الفصل الثامن والثمانون

أثر الطبيعة في اقتصاد الجاهليين

للوقوف على أسس اقتصاد أمة من الأمم،لا بد من الوقوف على طبيعة إقليمها من جوّ وأرض . فللطبيعة أثر كبير في تحديد خيرات تلك الأمة وفي تكوين سماتها وعاداتها وانتاجها:من ناتج زراعي أو حيواني أو صناعي ، ثم في فقرها وغناها .

فالجوّ البارد ذو الأمطار الغزيرة ، لا يمكن أن يكون أثره في الأحياء أثر الجو الحار الرطب ، أو الجو الحار الجاف،أو الجو المعتدل . الجو البارد يدفع الانسان إلى العمل ويبعث فيه الحيوية والنشاط ، ويجبره على العمل ، ويقدم له الماء هدية من السماء ، ثم هو يُكره الأرض أن تتلقح بماء المزن ، لتولد خضرة تكسو الأرض ببساط جميل يخلب الألباب ، ولتولد للماشية علفاً طرياً شهياً ، وللإنسان أرضاً طيعة لا تحتاج الى سقي باليد أو بالآلة ، ثم هو يوفر له كثيراً من الجهد الذي يجب على الانسان أن يبذله في البلاد الحارة الجافة لاستصلاح التربة ولمكافحة الحشرات التي تبارك فيها الحرارة الى غير ذلك من صعوبات ، لا تقاس بها الصعوبات التي تواجه سكان البلاد الباردة الممطرة .

أما الجو الحار الرطب ، فيغيث الانسان بمطر ، قد ينهمر انهماراً، وقد ينزل بمواسم ، لكن حرارته الشديدة المتشبعة بالرطوبة ، تهدّ الجسم ، وتعطيه رخاوة في بدنه وفي عقله ، تجعله يميل الى الخمول والكسل والدعة ، والى الاسترسال في العواطف ، ثم تحرمه من نشاط انسان الجو البارد ، وتجعله دونه في العمل وفي السعي في هذه الحياة والضرب في هذه الأرض وفي استغلال التربة وما فيها وما

عليها . وأما الجو الحار الجاف ، فيحرم سكانه من نعمة (الغيث) في الغالب ، ويلبس سطح الأرض أكسية غبراء من رمال تذروها الرياح ، ثم هو يجعل من الصعب على الانسان أو الحيوان ان يجد قوته في هذه القفار الواسعة المغبرة ، أو ان يعيش فيها عيشة مستقرة دائمة، في مجتمعات كثيفة كمجتمعات الأجواء الباردة أو المعتدلة أو الحارة الرطبة ، فاضطر إلى التنقل والارتحال بحثاً عن الكلأ والماء ، اللهم إلا في مواطن الماء ، وهي عزيزة ثمينة لأنها في أرض غلب على طبعها الجفاف . فتصير هذه المواطن القليلة هدفاً لهجمات العطاشى عليها في سني القحط وانحباس المطر ، وايام الضيق والشدة ، لسد الرمق وللمحافظة على ما في الجسم الذابل النحيل من عروق لتعينه على البقاء، حتى يفنى بطعنة ، أو يموت حتف أنفه.

تبلغ مساحة جزيرة العرب حوالى مليون وربع مليون ميل من الأميال المربعة . اذا ثبتنا مواضع المياه على (خارطتها) ، نجد انها قليلة ، لا يتناسب توزيعها ووجودها مع هذه المساحة الشاسعة. ثم انها مياه ضيقة المعين، لا يتسع صدرها لارواء بقاع واسعة على نحو ما نجده في مياه الأنهار الكبيرة . وفي هذه المواضع انحصر السكن ، فصار من ثم عدد سكانها قليلاً جداً في كل وقت . واذا قسنا مساحة الأرضين الخصبة منها القابلة للزرع والإنبات ذات الماء بالأرضين المجدبة، نجد انها قلة إلى كثرة ، وان ما لا يصلح منها للزرع أكثر بكثير مما يصلح له . وان مساحة البراري والبوادي تزيد على مساحة الأرض الطيبة الخصبة ، وان هنالك أرضين ذات طبقات ثخينة من الرمال ، أكرهت الناس على الابتعاد عنها ، ترفعاً من ان يطأ وجهها خفّ جمل أو نعل انسان ، أو ان تدوسها الأقدام .

وقد نشأ عن هذا الوضع ضيق في مساحة الأرضين المزروعة ، لشح الماء وعدم كفايته لارواء الانسان ولارواء ماشيته واسقاء أرضين واسعة ، ضيق أثر في شكل تكوين المجتمع العربي ، فلم يسمح بظهور المجتمعات الكثيفة الكبيرة في جزيرة العرب ، والمجتمعات الكثيفة الكبيرة ، هي المجتمعات الخلاقة التي تتعقد فيها الحياة ، وتظهر فيها الحكومات المنظمة للعمل وللانتاج وللتعامل بين الناس . جعل المجتمعات المذكورة مجتمع مستوطنات ، رزقها من زراعتها الصغيرة ومن رعاية الماشية ، وصار اقتصادها من ثم اقتصاداً بدائياً لا تعقيد فيه ولا تطوير يحول المواد الأولية الى مواد أخرى أفيد منها وأكثر ربحاً تفيد المجتمع ، وتعود عليه بأرباح طائلة من بيع المنتجات في الأسواق .

وهو ضيق صبر العرب قوماً يكرهون الزراعة وينفرون منها ، ويرون المزارع مواطناً من الدرجة الدنيا ، ولا سيما ذلك المزارع الذي يزرع الخضر والبقول وعلف الحيوان ، فهو عندهم (خضّار) . ولو كانت للعرب ميـاه فائضة ، وأمطار غزيرة لما كرهوا الزراعة ، ولما ازدروا شأنها ، فحرمانهم من الماء جعلهم يستحقرون شأن الزراعة لأنهم لم يتذوقوا ثمرتها ولم يشعروا بخيراتها ، ولهذا اختلف عنهم أهل اليمن وبقية العربية الجنوبية ومن وجد عندهم المـاء ، فغرسوا وزرعوا واعتبروا الزراعة نعمة ، وتقدموا إلى آلهتهـم لكي تبارك في زرعهم وتنعم في حصادهم وتعطيهم غلات وافرة كثيرة .

وجوّ جزيرة العرب جو من أجواء البلاد الحارة الجافة . أمطاره على العموم قليلة ، ولا سيما في أواسط جزيرة العرب . وقد تنحبس في بعض السنين انحباساً تاماً ، فيسبب انحباسها هذا كارثة ومصيبة ، يجف في أثنائهـا العشب ، ويبيبس كل أخضر ، فلا تجد الإبل لها طعاماً ، ولا يكون في وسع أهلها تقديم طعام لها لعدم وجوده عندهم ، وقد ينفق مالهـم من العطش والجوع ، فيصاب أصحابها بخسائر كبيرة ، وقد يهلك عدد من الناس قبل بلوغهم موضع ماء ، إما من شدة الحر والعطش والجوع ، وإما من السيف الذي لا بد لهم من استعماله لاجبار أهل الماء على السماح لهم بمشاركتهم لهـم اياه ، او بالاستحواذ عليه ونزولهم بـه ، وطردهم أصحابه عنه الى أماكن أخرى ، أو بهروبهم من هذا الموضع لقوة أصحابه ولتمكنهم من رد الطامعين عنه .

وتتساقط الأمطار في العربية الغربية والعربية الجنوبيـة ، ولكن سقوطها ليس منتظماً وعلى طول أيام السنة . فقد تثور السماء فجأة على الأرض ، فترسل عليها سيلاً مدراراً ، يكتسح ما يجده أمامه من إنسان وحيوان وكل عائق ، ليجد له سبيلاً الى أرض منخفضة أو الى أوديـة ، ثم لا يلبـث أن يختفي ويزول ، لأن عمره قصير في الغالب ، إذ تبتلعه أرض رملية ، فيغور الى باطنها ليكوّن مياهاً جوفية ، وقد تبتلعه البحار ، إذ يسيل بشدة الى الأودية المنحدرة الشديدة الانحدار فيتوجه مسرعاً نحو البحر ، فيذهب فيها هباءً من غير أن يفيد أحداً من الناس أو أن يغيثهم بشيء . وفي كتب أهل الأخبار قوائم بسيول كثيرة مهلكة مدمرة وقعت قبل الإسلام وبعده .

والأمطار في جزيرة العرب هي قليلة على العموم ، مقدار ما يتساقط منهـا

لا يسد رمق الزرع ولا يغني الزارع ولا يكفي في بعض السنين لانبات الخضرة ولظهور الكلأ . وقد يستمر هذا المعدل سنين ، فيتضايق الناس ، وقد ترد بعدها سنين ينهمر فيها المطر انهماراً ، فيسقط من السماء وكأنه ماء انهمر من أفواه قرب ، فيسبب سيولاً تؤذي الناس ولا تنفعهم ، وقد يستمر هطول المطر على هذا المعدل من الشدّة عدة سنين ، ثم يقف فيشح ، وتبخل السماء ، فلا تعطي الأرض من غيثها إلا قليلاً . وقد تبخل بخلاً شديداً فلا تعطيها منه شيئاً يذكر ، فيتضايق الناس ، ويعيشون عندئذ عيشة صعبة قاسية ، قد تضطرهم إلى الارتحال الى مواضع أخرى بحثاً عن الكلأ والماء .

وقد يكون انحباس المطر ، ظاهرة موضعية ، تصيب موضعاً ، ولا تصيب مواضع أخرى ، وقد يكون عاماً ، يصيب أكثر جزيرة العرب أو كلها. وتكون شدته عندئذ في هذه الحالة أعم وأشد . وضرره في الناس أكثر ، فأينما ترحل القبائل لا تجد أمامها إلا القحط والمحنة ، وقلة الماء والغذاء ، أي (القحط) والجدب والمحل . و (القحط) الجدب من أثر احتباس المطر ، فيتأذى الناس ، ويقل الطعام وترتفع أسعاره . ويعيشون في شدة[1] . ويلازم القحط في الغالب ، اختفاء الطعام وارتفاع ثمنه . فالقحط ملازم اذن لانحباس المطر ، ويلازمه الجوع وارتفاع السعر ، وقلة الطعام ، واختفاؤه من السوق ، بسبب الخزن أملاً في الحصول على ربح ومكسب ، أو بسبب قلة حاصل الموسم . ويقال أقحط القوم ، أي أصابهم القحط ، وكان ذلك في اقحاط الزمان .

وقد يعقب انحباس المطر ظهور الملح في طعم مياه الآبار والعيون[2] ، حتى قد يصير الشرب منها صعباً ، والزرع عليها غير ممكن . فيضطر أصحابها عندئذ الى تركها والارتحال عنها الى مواضع أخرى ، يحفرون فيها آباراً جديدة ؛ تكلفهم مالاً وجهداً ، وقد لا يجدون في الأرض الجديدة ماءً عذباً سائغاً فراتاً للشاربين ، وقد لا يجدون فيها ما يكفيهم لشربهم ولشرب أموالهم ؛ مما يحملهم على الارتحال إلى أرض أخرى ، أو على التشتت والتبعثر ، بسبب عدم وجود الماء أو عدم سدّه حاجتهم .

---

١ تاج العروس (٥/٢٠١) ، (قحط) .
٢ تاج العروس (٢/٢٢٩) ، (ملح) .

ويقال للسنة وللأرض التي لم يصبها المطر : (الجماد) . وسنة جامدة لا كلأ فيها ولا خصب ولا مطر . وأرض جماد ، يابسة لم يصبها مطر ولا شيء فيها[1]. وهي من السنين الحرجة في حياة العرب ، المؤذية المهلكة للأنفس وللمال . ويقال للمُحل (الجدب) . والجدب نقيض الخصب[2] . و (المحل) الجدب وانقطاع المطر ويبس الأرض من الكلأ. وتعد أيام المحل من شرّ الأيام ، يقال : (زمان ماحل) ، و (مكان ماحل) ، و (بلد ماحل) ، و (أرض محـل) ، وأرض محلة ومحول . يريدون بالمحل الشدة والجوع الشديد وإن لم يكن جدب ، على سبيل المجاز ، لأن المُحل الجدب ويبس الأرض وانقطاع المطر ، فتشتد حالة الناس ، ويظهر الجوع ويعيش الناس في ضنك شديد[3] .

ويقال لمثل هذه السنين الشديدة ، التي تجف فيها المراعي ، ويصاب النـاس فيها بأزمة شديدة،سنة جرداء ، وسنة الجمود لجمود الرياح فيها وانقطاع الأمطار وذهاب الماشية وهزالها وثبات الغلاء ؛ ويقال لها الحطمة والأزمة واللّزبة والمجاعة والرّمد ، وكحل والقصر والشدة والحاجر ، وما شاكل ذلك من ألفاظ فيها معاني الشدة والفقر والجوع[4] .

وكان منهم من يتصور أن نجوم الشتاء هي سبب نزول الغيث . ولذلك كانوا إذا لم يمطروا ، وانحبست السماء عندهم يقولون : « أجحرت النجوم » . قال الراجز :

إذا الشتاء أجحرت نجومـه واشتد في غير ثرى أزومه

ومن المجاز أجحر القوم ، إذا دخلوا في القحط . والجحرمة الضيق[5] . وليس أشد على العرب وأضيق في انحباس المطر عنهم .

---

١ تاج العروس (٢/٣٢٤ وما بعدها) ، (جمد) .
٢ تاج العروس (١/١٧٦) ، (جدب) .
٣ تاج العروس (٨/١١٣) ، (محل) .
٤ الصفة (٢١٤) .
٥ تاج العروس (٣/٨٨) ، (جحر) . قال زهير بن أبي سلمى :
اذا السنة الشهباء بالناس أجحفت ونال كرام المـال في الجحرة الاكل
يريد بكرام المال الابل ، يقول : انها تنحر وتؤكل لإنهم لا يجدون لبنا يغنيهم عن أكلها ، تاج العروس (٣/٨٨) ، (جحر) .

واذا أمطرت السماء ، استبشر الناس خيراً ، فالمطر خير وبركة ونعمة . يعقبه ربيع مفرح مبهج ، تسمن فيه إبلهم ومواشيهم ، ويكثر ولدها ، فتنمو أموالهم، وكانوا يقولون اذا ألبنوا وسمنت إبلهم : « كان ربيعنا مملوحاً »[1] .

وقد تهب بعض الرياح فتنكب الناس بأنفسهم وبأموالهم وتؤذيهم، لذلك يسمونها (النكباء) . و (النكباء) ريح انحرفت ووقعت بين ريحين . وهي تهلك المال وتحبس القطر . ذكر انها تهب بين الصبا والشمال ، والجربيـــاء التي بين الجنوب والصبا . وذكر بعضهم ان نكب الرياح أربع : الأزيب ، وهـــي نكباء الصبا والجنوب ، مهياف ملواح ميباس للبقل ، وهـي التي تجيء بين الريحين . وذكر بعض آخر ان الأزيب ، هو الجنوب لا نكباؤها . والثانيـــة الصابية ، وتسمى النكيباء أيضاً ، وهي نكباء الصبا والشمال ، معجاج مصراد لا مطر فيها ولا خير عندها . والثالثة الجربياء ، وهي نكباء الشمال والدبور ، وهي قرة وربما كان فيها مطر قليل ، وهي نيحة الأزيب . والرابعة الهَيف ، وهي نكباء الجنوب والدبور، وهي نيحة النكيباء[2] .

وقد تأتي السماء بسحب كثيفة من جراد ، فلا تهبط مكاناً إلا جردته . والجراد من شر الآفات والنوازل التي تنزل بالزرع، يجرده جرداً وينزل الخسائر بأصحابه، أضف الى ذلك الأوبئة والأمراض التي كانت تهب بين الحين والحـــين ، فتصيب الانسان أو الحيوان أو الزرع ، وهـــو عاجز إذ ذاك عن مقاومتها وعن التغلب عليها ، نضيف اليها الحميّات التي كانت قد عششت في مواضع المياه، كالعيون ، فكانت تصيب الناس ، ولا يكاد يسلم منها انسان ، فقد عرفت (خيبر) بالحمى، حتى قيل لها (حمى خيبرية) أو (خيبرية) ؛ وعرفت يثرب بالحمى أيضاً ، وعرفت مواضع من وادي القرى ، بالحمى كذلك ، كما عرفت (هجـــر) في العربية الشرقية بهذا الوباء كذلك .

ويتضايق الانسان في التهائم من أثر الحرارة المتشبعة بنسب عالية من الرطوبة . ودرجات الحرارة فيها وإن كانت دون درجتها في الأماكن الأخرى في الأغلب ، غير أن اقترانها بالرطوبة العالية جعلتها حرارة تضايق الانسان الى حـــد مزعج ، تبعث على الاسترخاء والكسل ، حتى صيرت الجسم خاملاً ، خال من الحيوية

---

١ تاج العروس (٢/٢٢٨) ، (ملح) .
٢ تاج العروس (١/٤٩٤) ، (نكب) .

والنشاط ، غير فعّال لا يستطيع أن يعمل بنشاط وهمة أهل الأجواء المعتـدلة أو الحارة الجافة . وعلى الرغم من ارتفاع نسبة الرطوبة في هذه التهائم وتشبع هوائها ببخار الماء ، فإنها لم تحظ بدرجة عادلة من المطر ، يخفف من شدة وطأة الحرارة فيها . ويسقي أرضها سقياً كافيـاً لتنبت لسكانها ما ينبته الجـو الاستوائي المشبع بالرطوبة المذابة في الحرارة المشابه لجو هذه التهائم في البـلاد الأخرى . فحرمت من الغابات ومن الأشجار الضخمة ذات الخشب الصلد ، ومن الأدغال التي تؤوي الوحوش ، ومن المياه الفوّارة المتدفقة ، ومن الحشائش ، ومن أمثال ذلك ممـا يرى في البلاد ذات المناخ المشابه ، مما يكون ثروة لسكانها ، قـد تعوض عن حرمانهم من الجو المعتدل ، أو الجو البارد المنشط .

وتخف الرطوبة ويقل شأنها وتذهب حدتها كلما ابتعد الانسان عن الساحـل ، فيزداد الجفاف في الجو حتى يبلغ أقصاه في البواطن،فيشعر الانسان عندئذ بانطلاق في جسمه وبشيء من النشاط في حركته ، وبحدة في ذهنه ، لأنه يجد أمامه مناخاً أصح وأصفى من مناخ السواحل ، هواؤه جاف في الشتاء وفي الصيف ، البرودة فيه في موسم الشتاء أظهر وأبرز من برودة الأشتية في التهائم ، والحـر فيه في الصيف أخف على الجسم بكثير من حر صيف السواحل . أما المطر،فنسبة سقوطه في الباطن أقل من نسبة هطوله على التهائم وفي العربيـة الجنوبية . وقد عوضت الطبيعة أهل البواطن عن شح مطرها هذا ، بارسال ألوان وأشكال من الأهويـة والرياح والعواصف عليهم ، تحمل بعضها في أمواجها سحراً عجيباً ينعش الروح والبدن ، اذا مس انساناً أنساه شظف عيشه وغلظ الجو الذي يعيش فيه ، وصيره بحس وكأنه ملك الملوك ، وصاحب خزائن الأرض ، واذا مست عصاه أحداً من أصحاب الحس المرهف ، أثارت فيه قريحته ، فصيرته شاعراً ينظم إحساسه بكلم موزون مقفى ، وبشعر غزلي ، يتغزل فيه ، يتغزل بتلك الأهويـة ، التي لمست جسمه ، وأغرقت فمه ووجهه بقبلاتها الحبيبة المثيرة ، التي أنسته أشجانه وما يلاقيه في حياته من ضيق وشح ، وهو ما يكاد يفيق من حلم حبه هذا ، حتى يفاجأ بأعاصير ورياح الواقع ، تعصف به ونخيمته الخفيفة ، وعماله ، تتلاعب به ، وقد ترشق وجهه بموجات متعاقبة من سموم مشبع برمال ، تجعله يغمض عينيه ويسدّ فمه ، ويبرقع وجهه ببرقع ليقيه من هذه الرياح العاتية التي تحرشت بـه من غير سبب ، مع انه انسان مسكين قنوع ، لا دخل له في وجوده في هـذا المكان ،

ولد فيه عن غير عمد ولا اختيار ، وسيموت فيه وهو لا يدري لمَ يموت ، ولمَ عاش ، والى أين ذاهب . فاذا ذهبت وولت ، وركد الجو واستقر ، جلس تحت خيمته التي لا تقيه من حر ولا من برد ، ولا من شمس ولا من مطر : إلا بقدر ، ليستجم ويستريح ، أو ليستلقي على أرضها ، وليتناول أكله ، وهو أبسط أكل يأكله انسان في هذه الحياة من غير شك .

والسعيد في جزيرة العرب من ولد في مستوطنة ذات ماء . فهو في عيشة هنيئة راضية ، في بيت مهما كان نوعه ، فإنه أحسن حالاً على كل حال من بيوت الوبر أو الشعر ، يستطيع أن يشرب فيه ماءً يتناوله من منبعه ، لا من قرب خزن الماء فيها أياماً ، وأن يرى نخلاً وشيئاً من شجر وخضرة وزرع ، وصوت رجال ونساء وأطفال ، وبعض بائعين وبائعات . أي حياة جماعة . وهو أكثر سعادة وحضارة إن كانت مستوطنته على ملتقى طرق ، تمر بها القوافل لتمتار منها ميرة الطريق ، ولتأخذ منها الماء ولتسقي إبلها وترويها ، ولشتري منها ما تجده من حاجات ضرورية ومن منتوجات موضعية ، تحتاج اليها ، أو يمكن بيعها في مواضع أخرى . وفي هذه المواضع نجد الحضارة الجاهلية ومن آثارها نستنبط التأريخ الجاهلي ، وفيها نرى معدن الرقة وموطن اللين والدماثة ، لما فيها من ظرف تهدأ النفس وتريح الأعصاب ، فصار أصحابها من ثم ألين عريكة وأسهل انقياداً من الأعراب الذين ولدوا في محيط خشن ، ونشأوا من خشونة ، فصار طبعهم من ثم غليظاً خشناً ، وهو لا يمكن أن يكون إلا كذلك ، وليس له دخل في ظهور هذا الطبع عنده .

ومن هنا صار أهل اليمن من ألين العرب عريكة ، ومن أكثرهم تعاوناً فيما بينهم . جاء في الحديث : « ان رجلاً من أهل اليمن قال للنبي ، صلى الله عليه وسلم : إنا أهل قاه ، فاذا كان قاه أحدنا دعا من يعينه فعملوا له ، فأطعمهم وسقاهم من شراب يقال له المزر ، فقال : أله نشوة ؟ قال : نعم . قال : فلا تشربوه . قال أبو عبيدة : القاه سرعة الاجابة وحسن المعاونة ، يعني ان بعضهم يعاون بعضاً ، وأصله الطاعة . وقيل المعنى : إنا أهل طاعة لمن يتملك علينا ، وهي عادتنا لا نرى خلافها ، ، فاذا أمرنا بأمر أو نهانا عن أمر أطعناه ، فاذا كان قاه أحدنا ، أي ذوقاه أحدنا دعانا الى معونته . وقال الدينوري : اذا تناوب أهل الجوخان ، فاجتمعوا مرة عند هذا ومرة عند هذا وتعاونوا على

الدياس ، فان أهل اليمن يسمون ذلك القاه ، ونوبة كل رجل قاهـة ، وذلك كالطاعة له عليهم »[1] . وجاء في الحديث : « أهل اليمن هم أرق قلوباً ، أي ألين ، وأقبل للموعظة ، والمراد ضد القسوة والشدة »[2] .

ومن هنا صار الأعرابي جلفاً صعباً خشناً ، يكره كل شيء لا يجده عنده ، لا يخضع لسلطان ، ولا يستسلم لقيادة أحد إلا لقيادة قبيلته المتمثلة في سيدها الى غير ذلك من صفات وسمات تحدثت عنها في الجزء الأول من هذا الكتاب ، وفي مواضع أخرى من الأجزاء الباقية .

والماء في أغلب أجزاء جزيرة العرب مقنن قدر بقدر ، ليس فيه فيض ، ولا زائد يحمله الى الجري الى مسافات بعيدة وبكميات كبيرة عن منبعه . ثم هو بين عيون وحسى وآبار محفورة،ومدى موارد هذه المياه مقدر محدود ، وهي لا تفيض فيض مياه الأنهار . فلم يتسع زرعها ، ولم تتحمل نشوء مجتمعات كبرى عندها ، وإنما ساعدت على ظهور مستوطنات ، لم تكن حضرية تماماً ولا بـدوية تماماً ، بل كانت متنزلة بين المنزلتين ، ودرجة وسطى بين الحضارة والبـداوة . تمكنت من إعالة نفسها ، بما توفر فيها من مواد أولية ، وبما زرعته من نخيـل وحبّ وخضر ، ومن بيع ما زاد عن حاجتها الى من حولها والى من كان يقصدها من الأعراب . وأوجدت فيها حرفاً ، ولكنها لم تكن حرفاً متطورة ذات انتاج واسع، لضآلة الموارد ، ولصغر المجتمع ، ولعدم وجود رؤوس الأموال الكبيرة لتشغيلها في استغلال ما قـد يكون فيها من موارد طبيعية كامنة أو ظاهرة . وفي تغرير الناس للعمل في استثمارها وفي استثمار الأرض استثماراً واسعاً ، ينتج غلة وافرة ، وفي مجتمعات صغيرة ، ذات مـوارد محدودة ، لا يمكن أن تظهر فيها رؤوس أموال كبـيرة ، وكيف تبرز رؤوس الأموال في مستوطنات فقيرة ، مواردها محدودة ، وخيراتها مقننه ، وهي في محيط فقير ، تتناوبها الرياح من كل جهة ، وأعين الأعراب الجياع الفقراء لها بالمرصاد .

وقد انتشرت هذه المستوطنات وتناثرت وتبعثرت في أرضين واسعة غلب على طبعها اليباس والجفاف ، كسيت بطبقات متفاوتة السمك من الرمال، فحالت بينها

---

١ تاج العروس (٤٠٧/٩) ، (القاه) .
٢ اللسان (١٢٢/١٠) ، (رقق) .

وبين تكوين المجتمعات الكبيرة ، وبين ظهور حكومات كبيرة قويـة في جزيرة العرب . وجعلت من العرب شعوباً وقبائل ، متناثرة متشاحنة ، ذات لهجات ، تشعر كل قبيلة منها ، انها أمة قائمة بذاتها ، ولها كيان خاص ، ونسب وجدّ ، ولاء أبناؤها للقبيلة ، ولرمزها : سيد القبيلة ولرؤسائها المتزعمين لفروعها ولأغصانها ، أو للمكان الذي أقامت فيه . ومجتمع مثل هذا ، حضره في مستوطنات متباعدة صغيرة ، وبدوه متباعدون متنافرون متشاحنون ، لا أمان فيه للافراد وللتجـار وللمسافرين إلا بعقود وبعهود ، لا يمكن ان يظهر فيـه اقتصاد متين متطور ، ذو انتاج متطور متقدم ، يفيض على حاجة أهله ، فيصدره الى الخارج ، فتخلف اقتصاده ، ولم ينتج إلا المواد الأولية البسيطة المتوفرة لديه ، مثل التمور والحبوب والحمور والجلود ، وهي سلع استهلكت في الداخل ، ولم يصدّر منها الى الخارج إلا القليل مثل الجلود ، ثم هو أخّر الزراعة وعاق أهل المـال من البحث عن الماء لخوفهم من تعرضهم لغارات الأعراب الفقراء. وخطر الأعراب على الزرع لا يقل عن خطر الجراد عليه. لذلك لم يقبل المتمكن المتمول استنباط الماء ومن الزرع عليه ، إلا اذا وجد نفسه في مكان مأمون وفي موضع محمي له فيه أهل وعشيرة وجوار .

أما السلع المعدنية ، فهي من حاصل مواطن الحضر ، وهي من حديـد ، في الغالب ، صنعت من حديد استخرج من معادن جزيرة العرب ، ومن حديد استورد من الخارج ، ومن سلع حديد استوردت من الخارج ، إذا استهلكت أعيد سبكها ، ثم استعملت من جديد . وأغلبها صناعة سيوف وخناجر ، ومساحي ومناجل وما شابه ذلك من مواد ضرورية للحياة في جزيرة العرب . ولم نسمع بتصـدير شيء منها الى الخارج ، لأنها لم تكن بانتاج واسع ولا باتقان لتنافس السلع المماثلة لهـا في الخارج ، بل نجد أن أهل جزيرة العرب كانوا يستوردون أمثالها من الخارج أيضاً ، لرخص ثمنها بالنسبة الى المنتوج المحلي ، ولتفوقها على المنتوج العربي في نقاوة المعدن وفي الصنعة والاتقان .

والمعادن في جزيرة العرب ، محدودة وبقدر وبشح في الغالب ، وقـد تحدثت في الجزء الأول من هذا الكتاب عن وجود ذهب وفضة وخامات حديـد ونحاس في مواضع من جزيرة العرب . وسأتحدث عنها أيضاً في أثناء بحثي عن الصناعـة عند الجاهليين . وهي في العربية الغربية وفي العربية الجنوبية في الغالب . وقـد

عرفت المواضع التي استخرج المعدن منها بـ (المعدن) و (معدن)[1] . والمعدن مكان كل شيء يكون فيه أصله ومبدؤه[2] . ولكن استخراج المعدن من منجمه وخامه ، يحتاج الى مال وعلم وأيد عاملة فنية ، لها مران وخبرة في الاستخراج وفي التنقية ، ليمكن استخراجه بكميات وافرة ، وبسعر اقتصادي مناسب ، منافس للأسعار العالية في الأسواق الأخرى . وهذه الشروط لم تكن متوفرة عند أهل الجاهلية ، لذلك لم نسمع بتصديرها من المعادن ، إلا الذهب ، حيث قدمه السبئيون للآشوريين وللعبرانيين ، رشوة وجزية كما تقول الموارد . أما المعادن الأخرى ، فلم نسمع في كتب المتقدمين على الإسلام من الأعاجم ، ولا في كتابات الجاهليين ولا في أخبار أهل الأخبار ، أنها صُدّرت الى الخارج .

وأما الأخشاب الصلدة الثقيلة القوية مثل الساج ، وهو خشب رزين قوي[3] ، ومثل الآبنوس ، والصندل ، وأمثالها ، فغير موجودة في جزيرة العرب ، وانما كانت تستورد من الهند في الغالب لعمل السفن وللأغراض الأخرى ، لأنها من أشجار تحتاج الى أمطار وحرارة ورطوبة ، وهي شروط غير متوفرة في أكثر أنحاء بلاد العرب . وفي بلاد العرب أشجار ذات خشب ، نمت في الجبال بصورة خاصة ، لذلك عرفت بـ (شجر الجبال)[4] ، سأتحدث عنها في أثناء بحثي عن الشجر ، أمدت أهل العربية الغربية والجنوبية ، بشيء من حاجتهم الى الخشب ، حيث استعملوه في البناء وفي الأثاث ، لكن أخشابها لم تكن قوية صلدة مثل الأخشاب المذكورة ، ثم ان الناس كانوا يقتطعون شجرها ولا يزرعون غيرها في مواضعها ، فقلّت ، وقلّ الخشب نتيجة لذلك ، حتى ان أهل الأخبار ليذكرون ان أهل مكة لما أرادوا تسقيف الكعبة ، لم يجدوا خشباً يصلح للتسقيف، فلما سمعوا بخبر تحطم سفينة رومية عند (الشعيبة) ، ذهبوا الى هناك ، وجاءوا بالخشب اللازم للتسقيف من ذلك الميناء . وخشب السراة، وخشب المواضع المرتفعة الأخرى، خشب لا يضاهي خشب الهند أو افريقية في الصلابة وفي المتانة والصلادة ، لذلك لم يستعمل في بناء السفن ولم يساعد في تطوير وسائل النقل في البحار .

---

١ كمجلس
٢ تاج العروس (٩/٢٧٥) ، (عدن) .
٣ تاج العروس (٢/٦١) ، (ساج) .
٤ تاج العروس (٨/٣٣٥) ، (الساسم) .

أما الأنحاء الأخرى من جزيرة العرب ، فلم يكن شجرها من النوع المنتج للخشب الصلد المتين الصالح لصناعة السفن أو لأعمال البناء ولصنع أثاث البيت وغيره ، وإذا وجد شجر ذو خشب أنبتته الطبيعة ، أو كان من زرع الانسان، فإنه لم يكن كثيراً ولا كافياً لسدّ حاجات الناس . ثم ان شجر الطبيعة — ما نبت منه في الجبال ، وما أنبت منه في السهول والمنخفضات — مشاع بين أهل المنطقة ، يقطعه من يريد ، لا يجبر قاطعه على زرع غيره في محله ، لذلك قضى عليه هذا القطع والاهمال ، وصار الخشب اللازم للنجارة وفي الأعمال الاخرى قليلاً في جزيرة العرب ، مع أنه من الوسائل المهمة الداخلة في تنمية الاقتصاد وفي الترفيه عن الناس وفي رفع مستواهم الحضاري .

ولم تعرف بلاد العرب بتصدير الخضر والاثمار والحبوب . فلم نعثر في الاخبار على خبر يفيد تصدير شيء منها الى العراق أو بلاد الشأم ، أو أي بلد آخر خارج حدود جزيرة العرب . بل نجد أنها كانت تستورد الحبوب والدقيق والزيوت من بلاد الشأم ، وذلك لان موارد الماء فيها لم تمكنها من زرع زراعة كثيفة واسعة ، فصارت زراعتها زراعة محلية في الغالب ، عمادها الاستهلاك المحلي ، أو التصدير الى الارضين المجاورة للمزارع في داخل الجزيرة وفي المواسم الجيدة وعند ظهور فيض في الحاصل ، فصارت اليمامة ريفاً لاهل مكة تمونهم بالحبوب،وكانت سوقاً للأعراب ، تمدّهم بالتمور . وكانت الطائف ، مزرعة تمد أهل مكة بالاثمار والزبيب .

والجمل في طليعة حيوان جزيرة العرب من حيث الفائدة والشهرة . هو رمز البداوة وعنوان الصحارى،والحيوان الوحيد الذي رضي بمصادقة الأعرابي وبتمضية حياته معه ، قاطعاً الفيافي والبراري معرضاً نفسه للجوع وللعطش ، ولتحمل الحياة الشاقة الخشنة في البادية ، مع الأعراب الغلاظ الجفاة ، الذين استصعب اخوانهم أهل الحضر العيش معهم ، وهو لولاه لما تمكن الأعراب من اختراق البوادي ومن التنقل بها ، ولما طابت لهم الحياة . فخيامهم من وبره ، وشربهم وكسر حدة جوعهم من لبن نياقه ، ثم هو طعامهم عند الحاجة ، ورأس مالهم ، اذا احتاجوا الى مال . تليه الخيل والضأن والمعز والحمير وغيرها . وهي كلها دونه بكثير في تحمّل العطش والجوع ومشقات الحياة ، ثم هي لا تستطيع تحمل غلظ الأعراب وصعوبة حياتهم ، لأنها أكثر رقة من الجمل ، لذلك اجتنبت البوادي،

وعاشت على المراعـــي الخضراء وعنـــد مشارف الحضارة ، وشاركت الحضر في بيوتهم ، فهي من أموال العرب في الغالب ، أي الحضر والرعاة الملازمين للمراعي المتصلة بمشارف الحضارة .

ودولة الحيوان في جزيرة العرب دولة صغيرة ، اذا قيست بما يجب ان تكون عليه بالنسبة الى المساحة السطحية . وسبب صغرها ان المراعي الغنية بالعلف اللازمة لتربية الحيوان ولإكثار نسله ، لم تكن متوفرة عند أهل الجاهلية ، وان أصحاب الماشية كانوا عالة على الطبيعة ، لعسر أحوالهم وعدم تمكنهم من الانفاق على الماشية وتهيئة العلف الصحي اللازم لنمو الحيوان ولاكثار نسله، ثم إن الأحوال الاقتصادية لم تكن حسنة وعلى ما يرام ، بل كانت منخفضة ، وهذا ما حدّ من الاستهلاك المحلي ، وحدّ من عدد الذين كانوا يمتهنون حرفة تربيـة المواشي ، الى أسباب أخرى لا مجال للبحث عنها في هذا المكان .

والعدد العام لسكان جزيرة العرب ، في الجاهلية وحتى الآن هو قليل بالنسبة الى ما يجب ان يكون عليه اذا قسنا العدد بعدد الأميال المربعة التي تكوّن المساحة السطحية لبلاد العرب . وسبب ذلك ان المسكون المعمور منها ، قليل بالنسبة الى المهجور القفر ، والبوادي فيها أوسع وأكثر من الأرضين الصالحة للزرع وللرعي وللسكن . وان الموارد المعاشية التي تُعيّش الانسان وحيوانه ، لا تكفي في معظم أنحاء جزيرة العرب لاعاشة المجتمعات الكثيفة المكتظـــة ، والمستوطنات الضخمة : فالحسي أو العيون أو الآبار أو البرك ، أو ما أشبهها من موارد ماء ، لا يمكن ان تستضيف مجتمعاً كبيراً مع توابعه من المواشي ، وهي لا تتمكن أيضاً من توفير الماء اللازم لزرع كثيف ، ولتهيئة كلأ تعلفه المواشي. لذلك صار حجم مستوطناتها يتناسب مع حجم الماء المتوفر فيها ، وانتاجها انتاج محدود ، هو حاصل زراعي في الغالب ، يختلف قلة وكثرة باختلاف حجم المساحات المزروعة ، أي سعة الماء الموجود في المستوطنة .

وفي هذه المستوطنات وفي الأرياف والقرى، نجد الملكية الفردية ، بصور متباينة. ملكية دور ثابتة ، وملكية مزارع وآبار . فالذي يحضر بئراً وينفق من ماله على حفرها تكون البئر بئره ، في امكانه بيع الماء منها للمحتاج اليه ، وفي امكانه الزرع عليها ، فيكون الزرع زرعه بالطبع ، وله بيع حاصله من تمـــر أو خضر ، أو

حب . والذي أقام على مقربة من الحضر ، ولا سيما من حضر العراق وبلاد الشأم استطاع الاتجار مع تلك البلاد ، ببيع ما عنده من ماشية وجلود وبشراء ما كان يحتاج اليه من مواد ضرورية، أو من مواد يتاجر بها مع المستوطنات ومع الأعراب. فتولد رأس المال في هذه المستوطنات ، ولا سيما في الكبيرة منها ، ذات الماء الغزير ، وجاء الرأس المال بالعبيد ، لتشغيلهم في الزرع .

أما البوادي وديار الأعراب ، فالأرض فيها للقبيلة ، ما خلا الاحماء . وأما الماء والكلأ فللجميع ، لا يمنع أحد من أبنائها من وروده ، وحق الرعي فيها للجميع . لصاحب الإبل حق رعي إبله في أي موضع شاء من حيّه ، وله أن ينقل بيته في (ديرته) ، ليجد لإبله الكلأ اللازم لها ، وأن يذهب الى البرك ومواضع الماء لأخذ ما يحتاج اليه من الماء ، الذي يكون في الغالب على ساعات أو أيام من بيته . واذا جف الكلأ واختفى خبر الأرض ، اضطر للانتقال الى مواضع أخرى ، ليجد فيها ما يعلف إبله . وفي هذا المجتمع الاعرابي ، ملكية فردية ، هي ملكية الخيام وما فيها من أشياء بسيطة وملكية إبل ، وبعدد ما يملكه الإنسان من جمال ونوق ، تقدر ملكية الأفراد . وفيه شيوع : شيوع في الماء والكلأ والنار . الماء للجميع ، ما لم يكن محمياً ولا مملوكاً ، والنار للجميع ، أي حق الاحتطاب ، فلكل حق قطع الشجر وما يراه من زرع نابت غير محمي ولا مملوك .

ومجتمع على هذا النوع من البساطة في الحياة ، يكون اقتصاده بالطبع بسيطاً ، الجمل والناقة فيه ، المال ورأس المال . وكل شيء يقاس فيه على عدد من الناحية الاقتصادية، ما يملكه الانسان من أباعر ونوق . فهو اقتصاد إبل ، الإبل فيه في محل الدراهم والدنانير أو الفضة والذهب . وهو عالم استهلاكه قليل وتصديره قليل كذلك ، ليس فيه استهلاك سلع متطورة ، وليس فيه انتاج متطور ، كل انتاجه الإبل ومشتقاتها وكفى .

وقد حالت البراري بين العرب وبين تكوين المجتمعات الكبيرة ، وعرقلت الاتصال بين المستوطنات التي بعثرتها ونشرتها هنا وهناك . وبعثرت الأعراب في البوادي على شكل قبائل وعشائر ، تغزو بعضها بعضاً طمعاً في رزق هي في حاجة اليه ، وتعقد أحلافاً فيما بينها للدفاع عن نفسها ، ثم هي توجه كل أنظارها نحو

المستوطنات ومواضع الحضر ، لتجد فيها غفلة أو موضع ضعف تدخل منه الى ديارهم لتأخذ منها كل ما يمكن أخذه ، وكل شيء يقع في أيديهم هو ثمين بالنسبة لهم ، لأنهم لا يملكون شيئاً ، والذي لا يملك شيئاً ويجهل قيم الأشياء يحسب كل شيء يقع في يديه ثميناً له قيمة . وهكذا صارت البوادي والأعرابية من عوامل القلق وعدم الاستقرار في جزيرة العرب،ومن عوامل التحاسد والتباغض والتناحر فيما بين سكانها لأتفه الأسباب ، حتى صارت من الأمراض المستعصية عند العرب ، التي لا تزال باقية حية . وفي ظروف من هذا النوع ، لا يمكن أن يظهر فيها اقتصاد متطور وانتاج كبير ، وان يرتفع مستوى حياة الناس ، فتأخر اقتصاد سكان جزيرة العرب ، وغلب على سواد الناس . وهبط بينهم مستوى المعيشة ، حتى اضطر البعض إلى وأد بناتهم خشية املاق، أو بيع أولادهم من جوع وفقر .

وقد وجدت هذه الروح الأعرابية بين الحضر كذلك ، تجسمت في العصبية للحي وللقرية ، وفي تناحر الزعماء على الزعامة والملوك على الملكية ، حتى في اليمن التي تمثل النموذج الحسن للانسان الحضري الطيع الهادىء،نجد الملوك يحاربون بعضهم بعضاً ، والزعماء يثورون على ملوكهم لأخذ عروشهم ، مما حمل الحبش والفرس والروم على التدخل في شؤونها ، فدمرت المدن والقرى والمستوطنات ، وأحرق الزرع ، وتباهى الملوك والثوار بعدد ما أحرقوه من مدن وقرى وزرع ، ومحيط تسوده الفتن والقلاقل والحروب لا بد وان يتأثر اقتصاده بها ، وأن يتأخر زرعه وعمله ، وكيف يعمل الانسان ويجازف بماله ، وهو غير مطمئن على حياته ولا واثق من يومه ولا مما سيأتيه به الغد من مصائب وأحزان !

لقد حالت البوادي بين العرب وبين ظهور اقتصاد متقدم متطور عندهم ، يقوم على تحويل المواد الأولية ، أي المواد الخام الى مواد أفيد منها وأهم ، والى انتاج كبير راق ، يجلب لهم دخلاً طيباً يرفع من مستواهم . فساءت أحوالهم وغلب الفقر عليهم . وصار معاشهم ضيقاً ، وحياتهم الاقتصادية متأخرة ، أغلب منتجاتهم بسيطة ، ليس فيها تطوير ولا تنويع ، ولا تصنيع ، وليس في أسواقهم مشترون جيوبهم منتفخة بالعملة ، ليجازف التاجر بجلب سلع متنوعة اليها،فصارت سلعهم قليلة ، اقتصرت على السلع الضرورية جداً للبيت ، وعلى الناتج الطبيعي المستحصل من الزرع أو من الحيوان ومن الحاصل المحلي في الغالب .

وقد أوجد عدم التناسق والتناسب والاتزان بين نسب توزيع الخصب الى الجدب تبايناً كبيراً في كيفية توزيع الناس ، فجعل السكان ثلاث طبقات : أهل مدر ، وهم حضر مستقرون ، وهم أرقى أهل جزيرة العرب . وأهل وبر ، وهم أعراب يقطنون البـــوادي . وطبقة ثالثة ، كانت بين بين ، ووسط بين الحضر وبين البدو ، عاشت عـــلى اتصال ومقربة من الحضر ، لم تبتعـد عنهم ، ولم تفارق الماء والحضارة ، بل لازمتها ، ولم تمعن في البادية إلا في أيام الربيع عند نزول الغيث واخضرار الأرض ، فتبتعد عندئذ بماشيتها الى البادية لتنعم هناك بنعمة الربيع. وهي جماعة الرعاة . والرعاة قوم بين الحضر وبـــين الأعراب . كانوا متنقلة في الأصل ، فلما قاربوا الماء والحضر ، تأثروا بالظروف الجديـدة ، فاستقروا بعض الاستقرار ، وأضافوا الى رعاية الإبل ، رعاية البقر والغنم والخيل . وكان هؤلاء مادة الحضر في الغالب ، والجرثومة التي كونت المجتمع الحضري .

واقتصاد الأعراب اقتصاد واحد ، وان تنوع أصحابه قلوا أو كثروا ، قبائل كانوا أم عشائر أم أفخاذ . لأن جذوره وأسسه واحدة ، هي البادية وتربية الإبل ، وليس في البادية غير كلأ وعشب وشجيرات أو أشجار ، تعلف أوراقها وأغصانها الإبل ، ويحتطبها البدو لبيع حطبها من أهل الحضر ان كانوا على مقربة منهم ، أو لاستعماله وقوداً لهم ، أو فحماً يبيعونه للحضر ، وليس فيها غير (وبر) ، وشيء من الملح ، يحملونـــه الى أهل الحواضر لبيعه منهم . وأما مشترياتهم ، فبسيطة ، تمور ودقيق وأبسط أنواع الثياب وما يحتاج البيت اليه من مواد . واقتصاد من هذا النوع ، لا يساعد على ظهور رأس مال كبير ، وعـــلى حدوث تطوير في الصناعة ، لذلك تخلف اقتصاد الأعراب عن اقتصاد المستوطنات والقرى بدرجات ودرجات .

أما اقتصاد أهل الحضر ، فإنه اقتصاد متطور بالقياس الى اقتصاد الأعراب : اقتصاد البداوة ، أو اقتصاد بدوي إن شئت تسميته بذلك . اقتصاد الحضر متفاوت في الدرجات ، أبسطه اقتصاد المستوطنات الصغيرة المنتشرة في بواطن جزيرة العرب وأعلاه اقتصاد المدن الواقعة في أطراف الجزيرة وعلى سواحل البحر وفي أرضين خصبة غنية بالماء وبالزرع . وقد برز بعض أهل تلك المستوطنـات في التجارة ، وبرز بعض آخر بالزراعة ، وجمع بعض آخر بين الزراعة والحرف اليدوية القائمة على أساس تحويل المنتجات الزراعية الى منتجات أخرى ، أو تحويل الجلـــود الى

أدم ، أو تحويل المواد الأولية المتيسرة الى مـــواد ذات ضرورة للمجتمع . وهي إما استهلاكية ، تُوجِرَ بها في الأسواق الداخلية ، وإما انتاجية، صنعت للإستهلاك المحلي وللتصدير .

ومن أبرز المستوطنات التي ظهرت في باطن جزيرة العرب ، مستوطنات اليمامة، والمستوطنات التي ظهرت على الأودية ومواضع الماء . وقد عاشت عـــلى الزراعة وتربية الماشية ، وموّنت الأعراب بالتمور ، وموّنت الحجاز بالحبوب . ومنهـا ما كانت ملتقى طرق برية ، ربطت العربية الجنوبية بالعراق ، ومنها ما ربط بين العربية الشرقية وبلاد الشأم . وأنا آسف ، لأن أقول إن معارفنا عن المستوطنات قليلة ، لعدم وصول شيء في النصوص الجاهليه عنها ، ولعدم تطرق أهل الأخبار اليها ، إلا عندما يكون لذكرها صلة بالأيام أو بالشعر أو بالحوادث البارزة جداً التي وقعت قبيل الإسلام ، أو التي كان لها اتصال بظهور الاسلام .

وأما المستوطنات التي برزت وظهـــرت في أطراف الجزيرة ، فهي عديدة ، أشهرها وأعرفها وأعرضها ذكـــراً مكة والمدينة . مكة في التجارة ، والمدينة في الزراعة . ولا يعني ذلك، ان المدينتين المذكورتين كانتا أعظم المستوطنات المذكورة، وأبرزهما في التجارة والزراعة عند ظهور الاسلام ، وان البقيـــة الباقية ، لم تكن لاحقة بهما في الناحيتين . فقول مثل هذا لا يمكن ان يجزم به مؤرخ حصيف ، وانما جاءتهما هذه الشهرة بفضل الاسلام، فقد ظهر الاسلام في المدينتين المذكورتين، ونزل القرآن الكريم فيهما ، وأشير فيه الى أمور عديدة وقعت بهما، وعاش الرسول فيهما ، فمن هنا صار اهتمام العلماء وأهل الأخبار بهما أكثر من سائر مواضع جزيرة العرب ، ولا سيما المواضع البعيدة النائية عن المدينتين ، والتي لم يكن لها اتصال متين بظهور الاسلام ، ومن هنا كثرت أخبارهما ، حتى ظن الناس ان مكة قبل الاسلام . كانت أرض التجارة والتجار ، وقبلة جميع العرب، ومجمع أصنام كل العرب ، وموضع تكدس الأموال، وبلد الربا والمرابين . وهو استنتاج أخذ من الروايات التي قصها أهل الأخبار عنها دون نقد ولا تحليل . ولكننا لو استعرضنا ما ذكره أهل الأخبار أنفسهم عن هجر وعن البحرين وبقية العربية الشرقية ، فانه يرينا على قلته ، ان مدن وقرى هذا الجزء من جزيرة العرب ، لم تكن أقل درجة في المال والتجارة والانتـاج من مكة أو المدينـــة ، إن لم تكن قد تفوقت عليهما بالفعل ، بدليل ما جاء في أخبارهم عن مقدار الزكاة والصدقات التي أرسلها عمال

الرسول والخلفاء الى المدينة ، فانها تدل على وجود تجارة وأعمال في هذه الأرضين ربما كانت قـد فاقت أرباح وأعمال أهل مكة ، لكننا لا نعرف عنها شيئاً ، بسبب عدم اهتمام المؤرخين والأخباريين بأخبارها في الجاهلية ، لعدم وجود صلة لها بتأريخ الاسلام ، أو بسبب عدم وقوفهم على أخبارها ، فلم يتطرقوا لذلك الى شيء من أحوالها بصورة مفصلة،فظهرت وكأنها قد تأخرت عن مكة من النواحي الاقتصادية بكثير . وصارت مكة،بذلك،الموطن المتفوق الأول في المال وفي الزعامة وفي كل شيء في جزيرة العرب .

لقد أثر الجو اذن على اقتصاد جزيرة العرب ، كما أثر عليهم في كل شيء، حتى صبرهم على النحو المعروف،لهم خصائصهم وصفاتهم المميزة لهم عن غيرهم، ولو كان للعرب جو مثل أجواء أوروبة ، لكان شأنهم ولا شك في التأريخ شأن آخر . على كل ، فقـد كتب عليهم أن يعيشوا في الجو المذكور ، وكان من نصيبهم في هذه الحياة حرارة وجفاف ، وحرارة ورطوبة ، وأرضون غلب عليها اليبس والجفاف ، فصارت موارد رزقهم شحيحة في الجاهلية، وتخلفوا عن غيرهم في الانتاج وفي الابداع ، وغلب على سوادهم الفقر . والفقر كافر لا يرحم ، ولولا (النفط) اليوم ، الذي جاء على عرب القرن العشرين بالمال ، لما تضخمت جيوب الأسياد ، وبنيت القصور الشاهقة الضخمة بالملايين من الجنيهات ، وأملي ان يكون هذا المال سبباً في استغلال العرب أنفسهم لمواردهم الظاهرة والباطنة ، وأن يكون سبباً من أسباب التعمير ، لا الانفـاق والتبذير ، وأن يحول الطاقات المهملة الى طاقات منتجة ، قبل أن يأتي يوم تنضب فيه آبار النفط ، أو ان يموت النفط فيه أو يهمل،بسبب العثور على موارد تكون أحسن نوعية وأقل كلفة منه .

لقد جعل هذا الجوّ العرب ــ كما سبق أن ذكرت ــ قبائل وشعوباً متنابـذة متخاصمة ، متحالفة متعاقدة متآخية ، متطرفة في كل شيء ، متطرفة في حبها وفي اخلاصها ، متطرفة في الوقت نفسه في بغضها وفي حقدها ، تميل الى المادة الى درجة العبادة ، ثم تتطرف في أمور عاطفية بعيدة عن المادة والماديات بعداً كبيراً، تمجد العقل والتعقل ، وتقيم وزناً كبيراً للحكمة ولضرب الأمثال ، حتى ليخيل إليك أن كل أفعال الناس وأعمالهم إنما تصدر منهم عن عقل وحكمـة ، لكنك سرعان ما تصطدم بوجود واقع آخر ، هو واقع تغلب العواطف عـلى العقل ، وانصياعهم الى الانفعال وسرعة التأثر وفقدان الوزن بين الأمـور بميزان العقل ،

وتركهم أنفسهم فريسة لهذه العواطف ، تعبث بهم في حياتهم ، ولا تزال تعبث بهم الآن . تراهم كرماء،يقدمون أعز شيء عندهم لضيوفهم ، بإسراف وتبذير، ثم تراهم بخلاء يحرصون على أتفه الأشياء أحياناً حرصاً يدفعك على الاستغراب من وجود هـــذا التضاد في الأخلاق ، أو ما نسميه بازدواج الشخصية في اصطلاح المحدثين على نحو ما تحدثت عن ذلك في الأجزاء المتقدمة من هذا الكتاب .

لقد أثرت الطبيعة اذن في تكييف اقتصاد الجاهليين وفي تعيين موارده ، وفي توجيههم توجيهاً تجارياً في المواضع التي قلّ فيها الزرع ، مثل مستوطنات الأطراف حيث نجد أهلها يميلون الى التجارة ، ويرون فيها مهنة من أشرف المهن،وتوجيهاً زراعياً في المواضع التي توفرت فيها شروط الزراعة ، وتوجيهاً رعوياً في المواضع الأخرى ، لا سيما بين الاعراب . فلندخل الآن في استعراض هذا التوجيـــه وفي دراسة الموارد الطبيعية لجزيرة العرب ، وفي دراسة كيفية تعامل أهل الجاهلية في الأسواق ، بعد أن قدمنا مقدمتنا القصيرة عن أثر الطبيعة في الاقتصاد .

الفصل التاسع والثمانون

الزرع والمزروعات

والزراعة هي عماد ثروة اليمن وبقية العربية الجنوبية والمواضع التي تتوفر فيها المياه في جزيرة العرب . وهي رأس مالها الاكبر في حياتها . والمورد الأول الذي يتعيش عليه النـــاس . وقد انحصرت في المواضع الخصبة ، أي في المواضع التي جادت عليها الطبيعة بالأمطار أو بالينابيع والجعافر والعيون وبالمياه الجوفية القريبة من سطح الأرض وبالحسي وما أشبه ذلك . وحيث أن أغلب أرض بلاد العرب هي أرض صحراوية موات ، لهذا فإن الزراعة فيها معدومة ، ويمكن في المستقبل احياء قسم منها،وذلك باستخدام الوسائل الحديثة التي استنبطها العقل والتي سيستنبطها في استخراج الماء وفي اصلاح التربة ، وسيتحول شكل جزيرة العرب عندئذ عمّا هو عليـــه الآن كثيراً ولا شك . وقد حولت في هذه الأيام منـاطق موات ، الى أرض عمار ، تسقى بالميـــاه المنبعثة من الآبار (الارتوازية) ومن السدود التي حبست ميـــاه السيول ، وصارت تنتج في مواضع عديـــدة من جزيرة العرب غلة زراعية وافرة بفضل استعمال الفن الحديث في استنباط الماء وفي كيفية الاستفادة من التربة وفي ادخال أساليب الزراعة الحديثة الى هـذه الأماكن . وقد يأتي يوم ، تتحول فيه معظم أرض جزيرة العرب الفارغة المهملة التي يخشى الانسان من ولوجها الى أرض خصبة منتجة ، اذا ما زرعت زراعة حديثة ، تناسب جو بلاد العرب وتركيب تربتها،واستنبطت المياه الكافية من جوفها للزراعة وللشرب .

ونحن وإن كنا لا نملك مراجع جاهلية مكتوبة واسعة تتحدث عن الزراعة في

جزيرة العرب قبل الاسلام وعن أنواعها وتفاصيلها وأساليبها وطرقها وضرائبها وعن كيفية استغلال الأرض وطرق الاستفادة منها وواجب الفلاح تجاه صاحب الأرض، وعن الحاصلات السنوية ومقدار ما تأخذه الحكومة من المزارعين من ضرائب ، وأمثال ذلك من أمور متصلة بالزراعة ، لكنا قد تمكنا من تكوين رأي فيها من مراجعتنا للكتابات الكثيرة التي وصلت الينا وفيها أمور متعددة لها علاقة بهذه الموضوعات، كما ان آثار الأقنية والسدود الجاهلية المنتشرة في مختلف نواحي اليمن ، هي في حد ذاتها شاهدة على مقدار توسع اليمانيين في الزراعة في ذلك العهد . ونجد مثل هذه الآثار الجاهلية في مواضع أخرى من جزيرة العرب ، وهي دليل واضح على انها كانت مزروعة معمورة،لا مغمورة مهملة كما هو شأنها في الوقت الحاضر.

أما بخصوص الزراعة واستغلال الأرضين وايجارها وجباية الضرائب عنها والعقود التي كان يعقدها الملوك مع كبار الاقطاعيين وتنظيم المياه وأمثال ذلك،فقد وصلت الينا كتابات وأوامر عامة فيها ، كان يصدرها الملوك و (الكبراء) ، يعلنونها على الناس ، ليطلعوا عليها ، وليعملوا بموجبها ، تكتب على الحجارة ، وتوضع في محلات عامة ، أو في خزانات المسؤولين وذوي الشأن،ليرجع اليها حين الحاجة .

وهنالك كتابات كتبها رؤساء عشائر وأصحاب أملاك ، عن حدود أملاكهم، أو عن تأجيرها لغيرهم ، أو عن انشاء سدود لضبط المياه وتوزيعها ، أو عن حفر آبار ، وأمثال ذلك ، وهي كلها على صفتها الشخصية ذات قيمة بالقياس إلى هذا ، لما ورد فيها من أفكار ومصطلحات فنية ، تمكننا من تكوين رأي في الزراعة والنظم الاقتصادية في العربية الجنوبية في ذلك العهد .

واذا كنا قد حصلنا على فكرة ما عن الزراعة في اليمن وفي بعض أقسام العربية الجنوبية استناداً الى الألفاظ والمصطلحات الزراعية في الكتابات الجاهلية والى الوثائق الخاصة بالأرض وبالضرائب وبالتأجير وبعقود البيع والشراء ، والى بعض الصور المنقوشة على هذه الكتابات ، فاننا لم نعثر ، ويا للأسف ، على كتابات جاهلية تتحدث عن هذه الأمور في الحجاز وفي أواسط جزيرة العرب وفي الأقسام الشرقية منها ، وآراؤنا عنها مستمدة في الدرجة الأولى من المراجع الاسلامية ومن مشاهدات السياح لمناطق الآثار ووصفهم آثار الزراعة في المناطق التي مروا بها ، ومن تقارير الخبراء (الجيولوجيين) وغيرهم من موظفي شركات النفط العاملة في جزيرة العرب .

وفي لغة المسند مصطلحات زراعية تعبر عن معان خاصة ، وفيها مسمّيات لآلات وأدوات استخدمت في الزراعة . ولا بد أن تكون لهجات أهل العربية الجنوبية أوسع ألفاظاً في الزراعة من لهجات العرب الآخرين القاطنين في الأنحاء الأخرى من جزيرة العرب ، بسبب تنوع الأجواء في العربية الجنوبية ، وما أعقب ذلك من تنوع الزرع وطرق الزراعة فيها ، أضف الى ذلك خصب التربة ووجود الماء فيها ، وجوداً لا يماثله أي مكان آخر في جزيرة العرب . فظهرت فيها ألفاظ زراعة ومصطلحات زراعية لم تعرفها عربيات بقية جزيرة العرب،اضطرت اللهجات الأخرى إلى أخذها منها ، لعدم وجودها عندها ، ونجد في معجمات اللغة وفي كتب النبات والأدب ألفاظاً زراعية ، نص العلماء على أنها من لغات أهل اليمن .

وقد حفظت الأيام بعض الحجارة المكتوبة بالمسند ، وعليها صور ، أفادتنا في تكوين فكرة عن ملامح المزارع قبل الاسلام ، وفي تبيين طراز معيشته ، وشكل بعض ملابسه ، وما شابه ذلك . وبين هذه الحجارة المصورة المكتوبة ، حجر حفرت عليه صورة حرّاث حافي القدمين وقد ارتدى ثوباً بلغ ركبتيه وشد وسطه بحزام وأمسك بيده اليسرى الحبل أو النطاق المتصل بالمحراث ، وباليمين آلة على هيأة فأس من خشب ، ربما استعملها في ضرب ثوري المحراث ، أو استعملها في حفر الأرض أيضاً وفي تفتيت التراب المحفور . وقد رُبط الثوران بالمحراث، وأخذا يحرثان الأرض ، والفلاح يوجههما . ورسمت تحت الصورة صورة ثلاثة رجال ، يظهر من ملامحهم ومن شكل ملابسهم أنهم كانوا من أصحاب الأرض.

ولأهل اليمن سبق على غيرهم من أهل جزيرة العرب في الزراعة ، وهم حتى الآن على ما كانوا عليه من ميل اليها ، ويشتغل عدد منهم اليوم في المملكة العربية السعودية أجراء لغيرهم في زراعة الأرض ، أو مشاركون لأصحاب الأرض في الحاصل . أما الأعراب ، فكانوا يزدرون شأنها ، وينقصون من قدر المزارع (الحضار) . ونجد هذه النظرة الازدرائية الى المزارع عند أهل الحضر أيضاً ، حتى أن بعض الصحابة كرهوا تعاطي العمل في الأرض ، حتى بعد الفتح،تاركين ذلك الى أهل الذمة . روي عن (أبي أمامة الباهلي) أنه قال ، إذ رأى سكة وشيئاً من آلة الحرث ، فقال : سمعت النبي يقول : لا يدخل هذا بيت قوم إلا أدخله الذل . قالوا في تفسيره: « لما يلزمهم من حقوق الأرض التي يزرعونها، ويطالبهم بها الولاة . بل ويأخذون منهم الآن فوق ما عليهم بالضرب والحبس ،

بل ويجعلونهم كالعبيد أو أسوأ من العبيد ، فإن مات أحد منهم ، أخذوا ولده عوضه بالغصب والظلم ، وربما أخذوا الكثير من ميراثه ويحرمون ورثته ، بل ربما أخذوا من ببلد الزارع فجعلوه زراعاً ، وربما أخذوا ماله »[1] . وهو تفسير فيه شيء من التكلف ، يفصح عن كراهية القوم للزراعة أكثر من المعنى المذكور ، وأما الحديث نفسه ، من حيث الصحة أو الضعف ، فللعلماء كلام فيه . وفي كتب الحديث أحاديث أخرى تحث على الزراعة والزرع .

وورد في الحديث أن الرسول كان يحدث جمعاً من الصحابة عن الجنة ، وعن رجل زرع في الجنة فاستوى نباته ، وعنده رجل من أهل البادية ، فلما انتهى الرسول من كلامه ، قال الأعرابي : « والله لا تجده إلا قرشياً أو أنصارياً ، فإنهم أصحاب زرع . وأما نحن ، فلسنا بأصحاب زرع »[2] .

وكراهة الزرع ، كراهية نشأت من عدم توفر الماء والأرض لأكثر الناس ، فصاروا يكرهونها، أما الذين ملكوهما فلم يزدروها ولم يغضوا من شأنها، والأعرابي لا يملك شيئاً ، فصار يكره كل شيء لا يملكه ولا يقدر عليه ، من زراعة ومن حرف ومن قيود اجتماعية ومن تنظيم ، ومن كل ما يخالف مألوفه من عرف وتقاليد . ولذلك صارت الزراعة من عمل أهل المدر ، وعمل كل من وجد لديه الماء الوافر ، ليأخذ منه ما يلزمه للزرع ، وسادات القبائل ، الذين توفر الماء عندهم ، أو كان لديهم المال لتشغيله في البحث عن الماء ، زرعوا مثل أهل الحضر ، وشغلوا العبيد وأتباعهم في الزراعة ، لما وجدوا فيها من مكسب وربح، وكان للكثير منهم زرع وحوائط .

ونظراً لتغير الحال عند العرب في الاسلام ، وظهور الدعوة فيه الى الأمة والجماعة ، فقد حث الرسول المسلمين على الزرع ، وظهر من روى عن الرسول انه قال الزراعة أفضل المكاسب ، وذلك لما فيها من عموم الانتفاع ، حتى ان منهم من فضلها على التجارة للتوسعة على الناس ، ولما للقوت الذي يأتي منها من صلة بحياة الناس[3] . ومع ذلك ، فقد بقي العرف الجاهلي مسيطراً على عقلية السادة

١ ارشاد الساري (٤/١٧٢) .
٢ ارشاد الساري (٤/١٩٠) .
٣ ارشاد الساري (٤/١٧١) ، (ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو انسان أو بهيمة الا كان به صدقة) ، صحيح البخاري (كتاب المزارعة وفي كتاب الادب في باب رحمة الناس والبهائم) ، صحيح مسلم (كتاب البيوع في باب فضل الغرس والزرع) ، زاد المسلم (٢/٣٣٣ وما بعدها) .

الكبار ، من افتخارهم بحيازة الأرض ، ومن ازدرائهم من الاشتغال بأنفسهم بها، فكانوا يستخدمون العبيد والأجراء وكُرّاء الأرض في استغلالها ، فهؤلاء وأمثالهم خلقوا للعمل في الأرض ، أما هم فقد خلقوا ليكونوا سادة ، عملهم امتلاك الأرض ، وقد ظهر من هؤلاء جيل امتلك أرضين واسعة في البلاد المفتوحة شغل فيها أهل الذمة ، والنبط وسكان الأرضين المفتوحة ، ومئات وآلافاً من الرقيق والعبيد ، كان عليهم العمل ، ولسيدهم الكسب الوفير والمغنم .

وقد يزرع أهل الحضر في جوف القرية من النخيل والأشجار ، أو داخل ما طاف به سور المدينة ، ويقال لذلك (الضامنة) ، لأن أربابها قد ضمنوا عمارتها وحفظها ، فهي ذات ضمان ، محروسة آمنة ، وتحت رعاية وعيون أصحابها . وقد يزرعون خارج قريتهم ، وخارج العمارة في البرّ ، أي في الضاحية ، ويقولون لذلك (الضاحية) . وفي كتاب النبي لأكيدر : إن لنا الضاحية من البعل ، وان لكم الضامنة من النخل[1] . وقد كان زرع أهل الطائف وأهل يثرب وقرى اليمامة واليمن وغيرها بين ضاحية وضامنة . والضاحية أوسع وأكثر بالطبع ، لاتساع العين ووفرة الماء .

ولم يكن من الممكن بالنسبة لأيام الجاهلية ، زرع مساحات واسعة بالحبوب أو الخضر والنخيل وبقية الشجر ، لصغر حجوم المياه ، وقلة المطر ، وعدم كفايته لارواء الزرع منذ بذر بذوره حتى حصاده ، وللظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كانت مهيمنة على مجتمع ذلك العهد ، من عدم وجود حكومات قوية كبيرة ترعى الأمن وتحمي حقوق المزارع وزرعه من العبث به ، ثم تشجيعه وتقديم المعونة له . لذلك كان من الصعب ظهور مزارع كبيرة تنتج غلات عظيمة تعرض للاستهلاك المحلي والتصدير . ولم يكن في وسع أحد انشاء مثل هذه المزارع إلا اذا كان متمكناً ذا مال ونفوذ ، وصاحب عشيرة قوية ، تحمي حقه ممن يريد الاعتداء عليه .

وزرع ، بمعنى طرح البذر . وقيل الزرع نبات كل شيء يحرث . ويقال زرعت الشجر كما يقال زرعت البرّ والشعير . والزريعة الشيء المزروع، والزرعة البذر[2] . فالزراعة اذن ، هي التي تكون بفعل الانسان . يطرح بذراً أو يغرس

---

١ تاج العروس (٩/٢٦٦) ، (ضمن) .
٢ تاج العروس (٥/٣٦٨) ، (زرع) .

غرساً ، أو ينبت نبتاً . وأزرع الزرع طال . وموضع المزروع المزرعة . وقد غلب على المكان الذي يزرع براً وشعيراً[1] .

ويكون (الغرس) بفعل انسان ، يقوم بغرس الغرس . وغرس الشجر يغرسه غرساً ، أثبته في الأرض ، والغرس الشجر ، والغراس وقت الغرس[2] . فلا يكون الغرس ببذور ، وانما بغرس غرس ، ينمو ويكبر ، فيصير غرساً . ولا تعبر لفظة (غرس) عن ظهور النبات بفعل الطبيعة ، وانما تعبر عن غرس (فسيل) ليصير شجراً . من ذلك فسيل النخل ، وقضبان الكروم والأوراد، وأمثال ذلك[3] . ويعبر عن صغار الفسيل بـ (الوديّ) . وفي حديث أبي هريرة ، لم يشغلني عن النبي غرس الوديّ[4] . و (التغاريز) ما حول من فسيل النخل[5] .

وغرسوا الشجر سككاً . والسكة السطر المصطف من الشجر والنخيل . وقد كانت بساتين يثرب سككاً مسطرة بسطور النخل . ومنه الحديث : خير المال : سكة مأبورة ومهرة مأمورة . المأبورة المصلحة الملقحة من النخل، والمأمورة الكثيرة النتاج والنسل[6] . وغرسوا النخل أسطراً على جانبي مسايل الماء والجداول والسواقي. والسطر ، الصف من الشيء كالكتاب والشجر والنخل . يقال بنى إسطراً من نخل، وغرس سطراً من شجر ، أي صفاً[7] .

وغرسوا (الكرم) سككاً كذلك . وقد يتخذون له (عريشاً) يعترش العنب . و (العريش) ، ما عرش للكرم من عيدان تجعل كهيأة السقف ، فتجعل عليها قضبان الكرم فتعترشها[8] .

ويعبر بلفظة (نَبَتَ) عن كل ما نبت من نفسه ، أي بدون فعل فاعل، وانما بفعل الطبيعة في التربة ، وذلك في الغالب المألوف . وذلك بتأثير المطر عليها، أو بتأثير السيول والطوفان والرطوبة والمياه الجارية ، وأمثال ذلك ، مما يكون سبباً

---

١ تاج العروس (٥/٣٦٨) ، (زرع) .
٢ تاج العروس (٤/٢٠١) ، (غرس) .
٣ تاج العروس (٨/٥٨) ، (فسل) .
٤ تاج العروس (١٠/٣٨٧) ، (ودي) .
٥ تاج العروس (٤/٦٤) ، (غرز) .
٦ تاج العروس (٧/١٤٣) ، (سك) .
٧ تاج العروس (٣/٢٦٦ وما بعدها) ، (سطر) .
٨ تاج العروس (٤/٣٢٢) ، (عرش) .

لنبت النبات . يقال : « نبتت الأرض وأنبتت » ، و « نبت الكلأ »[1] .

وترد لفظة (سقح) بمعنى زرع وغرس في لغة المسند[2] . رقد فسرها بعض علماء العربيات الجنوبية بمعنى هيأ المـــاء وجمعه وأجرى السواقي والأرض وحفـــر القنوات ومهدها للزرع ، وبعبارة مختصرة التمهيد لكل شيء ولكل عمل[3] .

التربة :

وللتربة عند العرب أسماء ، وذلك لأهميتها بالنسبة الى حياتهم . فنجد في كتب المعاجم ألفاظاً كثيرة لها ، من حيث لونها ومن حيث خصبها ومن حيث نوعهـا ومن حيث وجود الماء فيها الى غير ذلك . وهم يقولون للأرض الطيبة السهلـــة التي لا يعلوها السيل (الأبهر) . وقيل الأبهر ما بين الأجبل[4] . ويقولـــون : (السُخاخ) للأرض اللينة الحرّة[5] . ويقولون أرض حلاوة ، تنبت ذكور البقل[6] . و (الخصب) نقيض الجدب ، وأرض خصبة منبتة ، قابلة للزرع . و(العثعث) ما لان من الأرض ومن مكارم المنابت: وقيل الكثيب من السهل أنبت أو لم ينبت[7] . و (الجادسة) ، الأرض لم تعمر ولم تعمل ولم تحرث . ورد في الحديث : من كانت له أرض جادسة ، قد عرفت له في الجاهلية حتى أسلم ، فهي لربها . أي الأرض التي لم تزرع قط[8] .

والسبخة ، أرض ذات نزو وملح . والسباخ الأرض التي تعلوهـــا الملوحة ، ولا تكاد تنبت إلا بعض الشجر[9] .

---

١ تاج العروس (١/٥٨٨) ، (نبت) .

٢ كما في هذه الجملة : « وسقح كل اسررس وجروبس » ، أي « وزرع كل الاوديه والجروب » ، Mordtmann und O. Mittwoch, Alt sud. Inchr., S. 9.

٣ وذلك كما في هذه الجملة : « صير وبقر وجرب وبقل وسقح كل اسررم وجربم » ، ومعناها « صير وحرث وعمل المدارج وزرع البقول ومهد كل الاودية والجرب » ، REP. EPIGR 3856, Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 35.

٤ تاج العروس (٣/٦٣) ، (بهر) .

٥ تاج العروس (٢/٢٦١) ، (سخ) .

٦ تاج العروس (١٠/٩٦) ، (حلو) .

٧ تاج العروس (١/٦٣٣) ، (عث) .

٨ تاج العروس (٤/١١٨) ، (جدس) .

٩ تاج العروس (٢/٢٦١) ، (سبخ) .

والبلوقة ، المفازة ، وهي الأرض المستوية اللينة،أو التي لا تنبت إلا (الرخامي) على رأي آخر،والثيران تولع به وتحفر أصوله فتأكل عروقه . وهي من الأرضين التي ليس بها شجر ولا تنبت شيئاً البتة على بعض الآراء . وقد يكون قفرهـا هذا ، وعدم انباتها سبب قول الأعراب أنها مساكن الجـن . ويظهر من أقوال بعض علماء اللغة أن البلوقة أرض واسعة مخصبة ، أي على عكس ما ذكره بعض آخر ، من أنها الأرض التي لا تنبت شيئاً[1] .

ويعبر عن الأرضين الزراعية بلفظة (ارض) (أرض) في جميع اللهجات العربية الجنوبية . وهي من أصل يرد بهذا المعنى في جميع اللهجات السامية . وهي تشير في الغالب الى الأرضين المعدّة لزراعة الخضر والحبوب ، وقد يراد بهـا الأرضين المزروعة بالخضر والحبوب . ولذلك فلفظة (أرض) ، قـد تعني أرضاً صالحة للزرع ، غير أنها غير مزروعة ، وقد تعني أرضاً مزروعـة ، ويرادف هذا المعنى معنى لفظة (المزرعة) .

والقراح : الأرض لا مـاء بها ولا شجر ، وقيـل الأرض المخلصة للزرع والغرس ، وقيل : القراح المزرعة التي ليس عليها بناء ولا فيها شجر[2] .

و (الجربة)[3] ، المزرعة . ومنه سميت الجربة المزرعة المعروفة بوادي زبيد . والجربة : القراح من الأرض المصلحة لزرع أو غرس ، واستعارها (امرؤ القيس) للنخل ، فقال :

كجربة نخل أو كجربة يثرب[4]

والركيب : المزرعة والقراح الذي يزرع فيه ، والمشارة ، أو الجـدول بين الدبرتين ، أو ما بين الحائطين من النخل والكرم،وقيل ما بين النهرين من الكرم . قال تأبط شراً :

فيوماً على أهل المواشي وتارة لأهل ركيب ذي ثميل وسنبل

وأهل الركيب ، هم الحُضّار[5] .

---

١ تاج العروس (٦/٢٩٩) ، (بلق) .
٢ تاج العروس (٢/٢٠٥) ، (قرح) ، المخصص (١٠/١٤٨) .
٣ بالكسر .
٤ تاج العروس (١/١٧٩) ، (جرب) .
٥ تاج العروس (١/٢٧٨) ، (ركب) .

فالركيب اذن أرض زراعة ، تكون محددة ، معينة المعالم ، يمتلكها مالك أو ملاك ، تزرع أشجاراً مثمرة في الغالب ، لا حبوباً .

والحقل ، قراح طيب يزرع فيه ، وقيل هو الموضع الجادس أي البكر الذي لم يزرع فيه قط . يقال أحقلت الأرض ، صارت ذات حقل . والمحاقل المزارع[1].

والمبقلة : الأرض التي يزرع البقل فيها . وأما المبطخة ، وتجمع على مباطخ، فالأرض التي يزرع فيها البطيخ . والمرج : الأرض الواسعة ذات كلأ وماء ، تمرج فيها الدواب حيث شاءت[2] .

والسبخة أرض ذات نز وملح ، وهي الأرض التي تعلوها الملوحة ولا تكاد تنبت إلا بعض النبات . ولهذا لا يزرعها الفلاح ، وتترك لعدم صلاحها للزرع ، ولصعوبة استصلاحها بغسلها من الأملاح[3] . وفي جزيرة العرب سباخ رخوة قد تغوص فيها الأقدام ، لذلك ابتعد عنها المسافرون .

ويعبر في المسند عن الأرض المزروعة نخيلاً بلفظة (انخل) ، أي (نخيل) . ويراد بذلك الأرض المغروسة نخلاً . ويعبر عن الأرض المزروعة أشجاراً بلفظة (اثمر) ، أي أشجاراً مثمرة ، وعن الأرض المخصصة بزراعة الحبوب بكلمة (مذرا) (مذرى)[4] . وعن الارض التي تزرع أعناباً بـ (اعنب) ، أي بساتين الكروم .

وفسر بعض الباحثين في العربيات الجنوبية لفظة (موفرن) (موفر)، الواردة في نصوص المسند ، بمعنى الأرض الصالحة للزراعة بصورة عامة ، كما فسرها بعضهم بمعنى المزرعة والحديقة[5] . وهي في مقابل لفظة (الوفراء) في عربيتنا ، والوفراء الأرض التي لم ينقص من نبتها شيء ، والأرض التي في نباتها فرة ، أي كثرة . يقال أرض وفراء ، وهذه أرض نباتها فر ، وفرة[6] .

---

١ تاج العروس (٧/٢٨١) ، (حقل) ، القاموس (٢/٣٥٨) ، جامع الاصول (١١/٤٧٨) .

٢ عمدة القارىء (١١/٢١٤ وما بعدها) .

٣ تاج العروس ٢(/٢٦١) ، (سبخ) .

٤ REP. EPIGR., Tome, V, p. 196.

٥ Rhodokanakis, Stud. Lexi., I, S. 58.
نقوش خربة معين (ص ٢٥) ، النقش رقم ١٧ .

٦ تاج العروس (٣/٦٠٥) ، (وفر) .

وقد حوّل بعض أصحاب الأرض والمزارعين الأرضين الزراعية الى بساتين وحدائق ، غرست بالنخيل والشجر الملتف درّت عليهم أرباحاً حسنة ، من بيع ثمارها . واكتسبت بعضها شهرة ، بسبب وقوع أحداث فيها ، مثل : (الحديقة) من أعراض المدينة ، كانت بها رقعة بين الأوس والخزرج[1] ، ومثل (حديقة الرحمان) ، بستان كان لمسيلمة بفناء اليمامة ، فلما قتل عندها سميت : (حديقة الموت)[2] .

والحديقة ، الروضة ذات الشجر ، والبستان عليه الحائط ، وخص بعضهم من النخل والشجر الملتف ، وخص بعضهم الشجر بالمثمر ، وقال بعضهم بل هي الجنة من نخل وعنب ، والقطعة من النخل[3] . و (المخرف) مثل (الخروفة) النخلة أو النخيل دون البستان[4] . و (المخرفة) سكة النخل والبستان من النخل[5] .

وقد وردت الجنة مفردة ومجموعة ومنكّرة ومُعرّفة في القرآن الكريم . وتقابل (كن) « Gan » و (كنّه) « Gannah » = « Gehenne » في العبرانية ؛ وهي في معنى (فردوس) الفارسية الأصل ، و « Paradise » في الانكليزية[6] . ويراد بها موضع للأشجار الجميلة التي تسرّ الناظرين والأشجار المثمرة والورد والزهر والمياه . والحديقة ذات النخيل والشجر ، أو ذات النخل والعنب . وهي البستان عند بعض اللغويين[7] . وأما (الجنينة) ، فتصغير جنة .

و (البستان) من الألفاظ المعربة . ذكر علماء اللغة أنها (معرب بوستان . فبو بمعنى الرائحة ؛ وستان – بالكسر – الجاذب) بالفارسية[8] .و (الروضة) و (الريضة) ، مستنقع الماء من قاع فيه جراثيم ورواب سهلة صغار في سرار الأرض . وقيل الأرض ذات الخضرة ، وقيل البستان الحسن ، وقيل الروضة عشب وماء ، ولا تكون روضة إلا بماء معها أو الى جنبها ، وقيل أرض ذات مياه وأشجار وأزهار

---

١ تاج العروس (٦/٣٠٩) ، (حدق) .
٢ تاج العروس (٦/٣١٠) ، (حدق) .
٣ تاج العروس (٦/٣٠٩) ، (حدق) .
٤ الروض الانف (٢/٢٩١) .
٥ تاج العروس (٦/٨١) ، (خرف) .
٦ Ency., I, p. 1014, Hastings, p. 282, 681.
٧ القاموس (٤/٢١١) ، تاج العروس (٩/١٦٦) ، (جنن) .
٨ تاج العروس (٩/١٤٠) ، (البستان) .

طيبة . وإن كانت الرياض في أعالي البراق والقفاف ، فهي السلقان ، واحدها سلق ، وان كانت في الوطآت فهي رياض . ورب روضة فيهـا حرجات من السدر البري ، وربمـا كانت الروضة ميلاً في ميل ، فإذا عرضت جداً فهي قيعان . ورياض (الصُمان) والحزن بالبادية أماكن مطمئنة مستوية يستريض فيها ماء السماء ، فأنبتت ضروباً من العشب ولا يسرع اليها الهيج والذبول[1] .

ويقال للبستان إذا كان محاطـاً بجدار (الحائط) ، وتجمع على حوائط . وقد وردت هذه اللفظة في كتب الحديث[2] . وهناك لفظة أخرى تؤدي هذا المعنى هي (الحظار) . ويراد بها الأرض التي فيها الزرع المحاط عليها . وقد ذكرت في كتب الحديث[3] . وذكر علماء اللغة أن من معاني (الحظار) ، الحائط وكل ما حال بينك وبين شيء ، وما يعمل للابل من شجر ليقيها البرد والريح . والجدار من الشجر يوضع بعضه عـلى بعض ليكون ذرى للمال يرد عنـه برد الشمال في الشتاء[4] .

ويعبر في المسند عن الحقول والبساتين وكل المزارع التي تكون داخل حدود القرى و (الهكر) (الهجر) أي المدن ، أو في ضواحيها وأطرافها ، بلفظة (اقنى) ، التي تعني الممتلكات ، أي المزارع المملوكة المغروسة بالشجر . أما لفظة (أرض) ، فتطلق بمعنى المزارع والأرضين المزروعة خارج حدود القرى والمدن ، وتزرع عادة بالمزروعات الواطئة ، أي : (الخضر)[5] .

وتحدد الأرضين بحدود تعين معالمها وتثبتها . ويقال للحدود (وثن) أي حد ، ويجمع على (اوثن) . وهناك لفظة أخرى تطلق على الحد هي (زنن) . وتعني الخط الفاصل الذي يعين الحدود[6] . وتجمع اللفظة على (ازنن) .

والدِّبر مشارات المزرعة ، أي مجاري مائها . وقيل : الدبار الكـردة من

---

١ تاج العروس (٥/٣٨) ، (روّض) .

٢ القاموس (٢/٣٥٥) ، (حوط) ، جامع الاصول (١١/٤٧٧) ، تاج العـروس (٥/١٢٣) .

٣ جامع الاصول (١١/٢٢٩) .

٤ تاج العروس (٣/١٥٠) ، (حظر) .

٥ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 8.

٦ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 69, 72, Glaser 1061, Hofmus. 12.

المزرعة ، والدبار : الأنهار الصغار التي تنفجر في أرض الزرع[1] . و (الكردة) ، الدبرة من المزارع ، وهي المشارات أي سواقيها . وهي من الألفاظ المعربة عن الفارسية[2] . و (المَشارة)[3] ، الكردة ، وهي من الألفاظ المعربة[4] .

ويعرف حافظ الكرم والنخل والزرع بـ (الناطر) و (الناطور) . ذكر علماء اللغة ان اللفظة من كلام أهل السواد ، ليست بعربية محضة ، ومنهم من جعلها من الألفاظ الأعجمية[5] . و (النُطّار) الخيال المنصوب بين الزرع[6] .

وقد استغل أهل اليمن الجبال والمناطق المرتفعة ، فزرعوها بمختلف المزروعات التي تلائم طبيعتها ، ففي المحلات التي يكون الجو فيها بارداً في الشتاء ولطيفاً في الربيع والصيف غرست الأشجار التي تلائم ذلك ، وزرعت في المناطق الوسط المعتدلة النباتات التي تحب اعتدال الجو . أما في التهائم والمناطق المنخفضة الحارة ، فقد زرعت النباتات التي تحب هذا الجو . وبذلك تنوعت المزروعات . وتكاثرت ألوانها ، وصار في الامكان الحصول في موسم الشتاء على المزروعات التي تزرع في الصيف ببعض البلاد الباردة ، والحصول في موسم الصيف على المزروعات التي تزرع في الشتاء .

ولتحقيق غرس الجبال والمناطق المرتفعة ، لا بد من تمهيدها للزرع . وذلك بجعلها مدرّجات عريضة ، تسند جوانبها الظاهرة بالصخور والحجارة منعاً من انهيار تربتها والمزروع فيها ، ويقال لهذه المدرجات في المسند (جروب) (جرب) جمع (جربت) (جربة) . وتحمى الجربة بحائط من الحجارة . وهي تعني الحجارة المقطوعة ، على سبيل المجاز المرسل من باب تسمية الكل باسم الجزء علاقة[7] .

وأهل اليمن لا يزالون يتبعون هذه الطريقة ، وفي كثير من المناطق الجبلية والهضاب المهملة الآن آثار تلك المدرجات . تتحدث عن زرع يانع في الأيام

---

١ تاج العروس (٣/١٩٧) ، (دبر) .
٢ تاج العروس (٢/٤٨٥) ، (كرد) .
٣ بالفتح .
٤ تاج العروس (٣/٥٤٢) ، (هشر) .
٥ تاج العروس (٣/٥٧٢) ، (نطر) .
٦ تاج العروس (٣/٥٧٣) ، (نطر) .
٧ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 43, 124, Kat. Texte, II, S. 32.

القديمة ، وهي تناجي أهل البلاد لعلّهم ينتبهون اليها فيعيدون اليها الحياة . وقد كانت زراعة الكروم ولا تزال من أهم المزروعات التي تعتمد على هذه الطريقة . وهي تتحمل جواً بارداً بعض البرودة ومعتدلاً ، ولهذا تجود بالثمر الكثير الطيب في هذه المدرّجات .

وقد أشار (بطلميوس) ، الى اتخـــاذ أهل النجود والجبال في بلاد العرب المدرجات لزرعها وتشجيرها.وأطلق على الجبال المكونة للقسم الجنوبي من (السراة) اسم « Climax Mons » ومعناه الجبال المدرجة ، فترى وكأنها ذات سلالم . وهذه الطريقة شائعـــة في اليمن حتى اليوم ، ولا سيما في جبل حضور نبي شعيب وفي الأقسام الغربية من السراة . فجبـــال (القليمس) « Climax Mons » التي يشير اليها (بطلميوس) ، إذن هي القسم الجنوبي من السراة الممتد في اليمن وعسير[1].

وزرع أهل (السراة) على هذه الطريقة أيضاً ، وكذلك أهل الجبال والمرتفعات ، ففي استطاعة المزارع في المواضع المرتفعة الاستفادة من ماء المطر وبالتحكم فيه ، وبحصره في (الركيب) أي المشارة المزروعـة ، أعني المزرعة التي يزرع بها ، والتي قد تكون ما بين ساقيتين أو الجدول بين الدبرتين ، أو المزرعة بصورة عامة. كما جاء في قول تأبط شراً :

فيوماً على أهل المواشي وتارة لأهل ركيب ذي ثميل وسنبل[2]

لقد تبين من نتائج الفحص العام الذي قام بـــه الباحثون لمواضع من العربية الجنوبية ، ان الزراعة كانت متقدمة تقدماً كبيراً في اليمن بالنسبة الى بقيـة أنحاء جزيرة العرب ، وأن العربي الجنوبي حرص حرصاً شديداً عـــلى الاستفادة من الأمطار في إرواء أرضه ، كما يتبين ذلك من آثار السدود التي تلاحظ في كـــل واد تقريباً . وهي سدود أقيمت لا لكي تتحكم في سير (السيول) وفي ضبطها خشية إغراق المـــدن والقرى والزرع فقط ، بـــل لكي يمكن خزنها في أحواض وتوجيهها الوجهة التي يريدونها في أوقات الحاجة اليها ، وذلك بواسطـــة أبواب

---

١ Glaser, Skizze, II, S. 215, D.G. Hogarth, The Penetration of Arabia, p. 20, Forster, II, p. 270. f.

٢ تاج العروس (٢٧٨/١) ، (ركب) .

تفتح وتغلق حسب الحاجة ، وقنوات ومجاري للماء توصل إلى مواضع الزرع والحاجة إلى الماء .

وقد درس بعض الباحثين ومنهم (بوون) « R. Le Baron Bowen » حالة الإرواء والزراعة في العربية الجنوبية دراسة علمية قيّمة وقدّم لنا معلومات ثمينة عن هذا الموضوع ، جعلتنا نأخذ فكرة عن أسلوب الزراعة والري عند العرب الجنوبيين منذ الألف الثانية قبل الميلاد إلى ما بعد الميلاد[1] . ودرس غيره من الباحثين بعض أساليب الزراعة واستغلال الأرض عند العرب الجنوبيين ، ولا سيما القتبانيين وعند غيرهم أيضاً ، وفي تقارير خبراء الزراعة والنفط والمعادن الذين سبروا أرض جزيرة العرب في مواضع مختلفة منها ، بعض المعلومات المفيدة عن الزراعة وعن أمور الري عند الجاهليين .

والأودية هي من أهم مناطق الزراعة في اليمن وفي العربية الجنوبية وفي بقية أنحاء جزيرة العرب ، ففيها الخصب والنماء والماء . ويقال للوادي (سرن) (السر) و (سرم) (سرّ) ، والجمع (أسرار) ، في العربيات الجنوبية . (والسر) في قول علماء اللغة بطن الوادي وأطيبه ، وأفضل موضع فيه ، وأخصب الوادي، والذي كتم نداه ولم ييبس[2] . ويقال له (نخل) في اللهجة الصفوية . وقد وردت في الكتابات الصفوية أسماء جملة أودية ، زرعوا بها[3] .

ونجد أطراف الأودية وجروفها وقد ظهرت المستوطنات بها ، كما ظهرت عند مصبّاتها ، وذلك لاستفادتها من السيول التي قد تهطل فتملأ بطونها . وهي تشبه المستوطنات التي تظهر على شواطىء الأنهار ، حيث تستفيد من المياه الجارية في النهر . وهي مستوطنات زراعية ، جلّ زراعتها النخيل ثم الحبوب وبعض الأشجار المثمرة والخضر والبقول .

وقد عثر على كتابات عديدة بالمسند وباللهجات العربية الأخرى ، تتحدث عن حفر آبار وعن زرع وعن تملك لهذه الآبار ، وأسماء تلك الأودية والمواضع التي

---

١ The Bible and the Ancient Near East, p. 317, 321, 325, R. Le Baron Bowen, Irrigation in Ancient qataban, Archaeological Discoveries in South Arabia, p. 43.

٢ تاج العروس (٣/٢٦٣) ، (سر) .

٣ CIS 269, Pars quinta, p. 44, Dunand 1330 a.

حفرت بها تلك الآبار . وهي وثائق تملك ، تبين حق صاحبها في تلك البئر .

ونجد في كتاب صفة جزيرة العرب وصف مواضع كانت غنية بالأغيال والمآجل والعيون ، وقد نبتت حولها الأشجار المثمرة والزروع ، وأنواع الخضر والبقول والأزهار ، مما يشير الى ما للماء من أهمية في احياء هذه الأرضين وفي استنباتها ، فلولا الأمطار الموسمية التي غذت اليمن بالماء الذي أولد الحياة في الأرض، لكانت اليمن قفراء مثل أكثر أرجاء جزيرة العرب ، ليس فيها نبت ولا زرع ، يكره أهلها الزراعة ويستهجنونها ، ويرون في الاشتغال بها خسة ودنية . وقد أقبل أهل هذه الأرضين التي توفرت بها مصادر الماء ، على استغلالها استغلالاً طيباً ، يدل على أن العرب لو تهيأ لهم الماء لما كرهوا الزراعة وازدروا شأن المزارعين .

واليمامة من الأرضين الخصبة في جزيرة العرب ، قال عنها أهل الأخبار : «وكانت أحسن بلاد الله أرضاً،وأكثرها خيراً وشجراً ونخيلاً من سائر الحجاز»[1]. وقد نعتت بـ (ريف مكة) ، إذ كانت تمون مكة بالحبوب ، ولولاها لما تمكنت مكة من العيش برخاء . فلما أسلم (ثمامة بن أثال بن النعمان) الحنفي سيد أهل اليمامة ، أراد العمرة ، فلما سمع به المشركون جاءوه ، فقالوا : يا ثمامة صبوت وتركت دين آبائك ! قال : لا أدري ما تقولون إلا اني أقسمت برب هذه البنيّة لا يصل اليكم من اليمامة شيء مما تنتفعون به حتى تتبعوا محمداً من آخركم .. وكانت ميرة قريش ومنافعهم من اليمامة ، ثم خرج فحبس عنهم ما كان يأتيهم منها من ميرتهم ومنافعهم ، فلما أضرّ بهم كتبوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن عهدنا بك وأنت تأمر بصلة الرحم وتحض عليها ، وإن ثمامة قد قطع عنا ميرتنا وأضرّ بنا ، فان رأيت أن تكتب اليه أن يخلّي بيننا وبين ميرتنا فافعل . فكتب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان خلّ بين قومي وبين ميرتهم »[2] . وبذلك استراحوا وعادت أقواتهم اليهم .

ويجب ان نحمل ما جاء في الشعر من (جوع قديم) لبني حنيفة ، وهم من أهل اليمامة ، محمل الأقوال التي يقولها الشعراء عند استهزائهم بخصومهم ، أو عند

---

١ تاج العروس (٩/١١٥) ، (يمم) .

٢ الاستيعاب (١/٢٠٦ وما بعدها) ، الاصابة (١/٢٠٤) ، (رقم ٩٦١) ، صحيح البخاري (كتاب الصلاة، باب الاغتسال اذا أسلم وربط الاسير في المسجد)، صحيح مسلم (كتاب الجهاد) ، زاد المسلم (٢/٢٧٨ وما بعدها) .

حنقهم على قوم لم ينالوا منهم خيراً ، أو محمل العصبيات القبلية . ورد في الشعر قول أحد الشعراء :

أكلت حنيفة ربها زمن التقحم والمجاعه
لم يحذروا من ربها سوء العواقب واتباعه

وروي بهذه الصورة :

أكلت ربها حنيفة من جو ع قديم بها ومن اعواز[1]

وقد ذكروا ان (بني حنيفة) كانوا قد اتخذوا إلهـاً من حيس ، فأصابتهم سنة ، فعمدوا اليه فأكلوه فعيرهم الشاعر به . والحيس في تفسير علماء اللغـة : تمر يخلط بالسمن وأقط فيعجن ، أو هو التمـر البرني والأقط يدقان ويعجنان بالسمن عجناً شديداً ثم يندر منه نواه ، ثم يسوى كالثريد ، وهي الوطبة ، وربما جعل فيه سويق أو فتيت عوض الأقط[2] .

وذكر أن اسم اليمامة القديم هو (الجوف) ، وأن الجوف المطمئن من الأرض وهو أوسع من الشعب تسيل فيـه التلاع والأودية وله جرفة[3] . فالجوف أرض خصبة ذات مياه قد تسيل وقد تكون قريبة من سطح الارض . ولما كانت اليمامة على هذه الصفة ، لا يستبعد أن تكون قد سميت بهذه التسمية .

وباليمامة أودية خصبة ، صارت من أهم مواضع الخصب فيها ، لوجود الماء فيها على مقربة من سطح الارض ولوجود العيون العذبة بها . من هذه الاودية : (العرض) . والعرض الوادي يكون فيه قرى ومياه ، أو كل وادٍ فيه نخل ، وقال بعضهم : كل وادٍ فيـه شجر[4] . ومن أعراض اليمامة ، عرض شمام ، وعرض حجر . فالاول يصب في (برك) وتلتقي سيولها بـ (جو) في أسفل (الخضرمة) ، فإذا التقيا سمّيـا (محققاً) ، وهو قاع يقطع الرمـل . قال الاعشى :

---

١ الاعلاق النفيسة (٢١٧) .
٢ تاج العروس (٤/١٣٥) ، (حاس) .
٣ تاج العروس (٦/٦٢) ، (جوف) .
٤ تاج العروس (٥/٤٥) ، (عرض) .

ألم ترَ أن العرض أصبح بطنه نخيـــلاً وزرعاً نابتاً وفصافصا

وقال المتلمس وبه لقب :

وذاك أوان العرض جنّ ذبابـه زنابـــيره والازرق المتلمـس[1]

وفي الشعر المتقدم دلالة على خصب (العرض) ، وكثرة زرعه ونخله ، وعلى اشتغال أهله بالزراعة .

وفي اليمامة مرتفع يقال له (عارض اليمامة) . والعارض الجبل وقد جاء ذكره في الحديث[2] . وإلى ذلك أشار (عمرو بن كلثوم) بقوله :

وأعرضت اليمامة واشمخرت كأسياف بأيدي مصلتينا[3]

ومن أودية اليمامة (العقيق) ، وهو واد واسع مما يلي (العرمة) تتدفق فيه شعاب العارض وفيه عيون عذبة الماء[4] . وبه معدن .

ومن مواضع اليمامة الخصيبة (قُرّان) ، موضع به ماء ونخيل ، وهـــو لبني سحيم من بني حنيفة ، ويذكر مع (ملهم)[5] . و (ملهم) موضع كثير النخل، به ماء . ويوم (ملهم) حرب نسبت لهذا المكان بين تميم وحنيفة[6] .

وكانت في الحجاز ، ولا سيما ما وقع منه شمال المدينة ، عند ظهور الاسلام، مواضع كثيرة ذات عيون ومياه جارية ، غرست بالنخيل،واشتغل أهلها بالزراعة. وقد كان وادي القرى كثير المياه بصورة خاصة،بالنسبة إلى باطن جزيرة العرب، وعلى مواضع المياه أقيمت مستوطنات وقرى عديدة ، عاشت على النخيل والزرع وعلى القوافل التي تسلك هذا الوادي تحمل التجارات . وقد وردت أسماء مواضع عامرة آهلة بالسكان في غزوات النبي ، تقع كلها في شمال (يثرب) الى فلسطين، وبين مكة ويثرب بعض مواضع مياه ، عاش سكانها على النخيل والقوافل والرعي

---

١ تاج العروس (٥/٤٦) ، (عرض) .
٢ تاج العروس (٥/٤٣) ، (عرض) .
٣ تاج العروس (٥/٤٩) ، (عرض) .
٤ تاج العروس (٧/١٥) ، (عق) .
٥ تاج العروس (٣/٤٨٨) ، (قرر) ، (٩/٣٠٩) ، (قرن) .
٦ تاج العروس (٩/٦٨) ، (لهم) .

وبعض الزرع . وكذلك وجدت بعض مواضع مياه (مكة) والعربية الجنوبية . ومن الأماكن الخصبة (وادي الغرس) ، قرب (فدك) بينها وبين (معدن النقرة) ، وكانت فيه منازل بني النضير[1] .

ومن المواضع التي استغلت في الزراعة الجرف . وهو موضع قرب المدينة على ثلاثة أميال منها ، بها كانت أموال (عمر) . ومنه حديث (أبي بكر) انه مرّ يستعرض الناس بالجرف فجعل ينسب القبائل حتى مر ببني فزارة[2] . وكان (عبد الرحمن بن عوف) يزرع به على عشرين ناضحاً ، فكان يدخل منه قوت أهله سنة[3] . أي انه كان يسقي زرعه نضحاً ، والناضح البعير أو الحمار أو الثور الذي يستقي عليه الماء ، والنضيح من الحياض ما قرب من البئر حتى يكون الافراغ فيه من الدلو ، ويكون عظيماً ، وهي ناضحة وسانية[4] .

وأرض يثرب وما تبعها من أطراف ، هي من الأرضين الخصبة ، وقد حفر أصحابها آباراً بها ، وسقوها منها ، وغرسوا عليها النخيل وزرعوا بها ؛ واتخذوا لهم بها (الحوائط) و (البساتين) . ويظهر أن بعضها كانت واسعة تسقى بآبار غنية بالماء ، لها جملة نواضح . وهي تظهر أن أهل المدينة كانوا مزارعين، وأن مزارعهم كانت تأتي عليهم بمال طيب ، جعل بعضهم من الأثرياء . وقد استفيد من شراج الحرة في سقي المزارع ، وكانت تستمد ماءها من الحرة . وقد كانت للزبير بن العوّام مزرعة على هذه الشراج ، كما كان لأنصاري مزرعة عليها كذلك ، وقد ورد ذكرهما في كتب الحديث بسبب اختلافهما على السقي[5] .

وتنافي هذه الأخبار المتحدثة عن اشتغال الأنصار بالزراعة ، الأخبار الأخرى التي يرويها أهل الأخبار أيضاً ، الذاكرة أن الأنصار ، أهل المدينة لم يكن لهم علم بالزراعة ولم يكونوا يقبلون عليها ، إقبال يهود خيبر وفدك ووادي القرى على الفلاحة . ويظهر أن رواياتهم هذه إنما نشأت من الوضع السيء الذي كان فيما بين الأوس والخزرج ومن تقاتلهم بعضهم مع بعض ، على الرئاسة والزعامة، وبسبب العصبية القبلية الضيقة ، فأثر كل ذلك على الزراعة في يثرب وفيما حولها

---

١ تاج العروس (٤/٢٠١) ، (غرس) .
٢ تاج العروس (٦/٥٦) ، (جرف) .
٣ الاستيعاب (٢/٣٨٨) ، (حاشية على الاصابة) .
٤ تاج العروس (٢/٢٤٠) ، (نضح) .
٥ ارشاد الساري (٤/١٩٧ وما بعدها) ، تاج العروس (٢/٦٣) ، (شرج) .

فجعلها متأخرة لاعتداء كل جانب منهما على زرع خصمه،وقد ألهاهم عن الزرع .

وبالمدينة وأطرافها مواضع عرف الواحد منها بـ (البقيع) . والبقيع الموضع فيه أروم الشجر من ضروب شتى ، والمكان المتسع ولا يسمى بقيعاً إلا وفيه الشجر ، ومنه (بقيع الغرقد) ، وقد ورد في الحديث ، وهو مقبرة مشهورة بالمدينة . سمي بالغرقد ، بشجر له شوك فذهب وبقي الاسم لازماً للموضع، وبقيع الخيل ،وبقيع الخبجبة، وبقيع الزبير ،وبقيع الخضمات،موضع عند خرم بني النبيت[1] .

وبيثرب ثلاثة أودية مهمة هي : العقيق ، وبطحان ، وقناة[2] . وفي وادي العقيق عيون ونخيل ، وقد ذكر في الحديث[3] . والأودية المذكورة من المواضع الخصبة المنبتة في هذه المنطقة ، ومياهها قريبة من سطح الأرض ، ومن الممكن العثور عليها بسهولة بحفر الآبار بها .

ومن الأودية التي استفيد منها في الزراعة (وادي مهزور) ، وقد ذكر في الحديث . ذكر انه وادي بني قريظة ، وان الرسول قضى في سيله ان يحبس حتى يبلغ الماء كعبين . وذكر بعضهم انه يذكر مع (مذينيب) يسيلان بماء المطر خاصة ، وهو من أودية المدينة . ومن مهزور الى مذينيب شعبة تصب فيها[4] .

وقد كان من الممكن استصلاح الأرض المحيطة بيثرب ، بحفر الآبار بها ، فالماء فيها غير بعيد عن سطح الأرض ، وهو عذب أو مج لكنه يصلح للشرب ولسقي الزرع . ولما نعمت يثرب بالهدوء في عهد الرسول ، أقبل بعض المهاجرين على الزراعة فيها ، فحفروا الآبار وزرعوا عليها ، وحوّطوها ، وجنوا منها ثمراً طيباً ، ولولا الفتوحات الاسلامية التي اجتلبت اليها المهاجرين والأنصار على السواء، للخيرات الكثيرة التي كانت في الأرضين المفتوحة ، لتحولت يثرب الى بساتين ومزارع منتجة ، تمون الأماكن البعيدة عنها بالتمور وبالفواكه والخضر .

وقد زرع أصحاب الأرض بيثرب أرضهم بقولاً وحبوباً ، ومنهم من زرع تحت النخيل ، ورد أن مولى من موالي (عثمان بن مظعون) كانت في يده أرض

---

١ تاج العروس (٥/٢٨٠) ، (بقع) .
٢ تاج العروس (٢/١٢٥) ، (بطح) .
٣ تاج العروس (٧/١٥) ، (عق) .
٤ تاج العروس (٣/٦٢٠) ، (هزر) .

لآل مظعون بالحرة ، فكان يزرعها قثاءً وبقلاً[1] . ولما صارت أرض (بني النضير) خالصة لرسول الله ، كان يزرع تحت النخل في أرضهم فيدخل من ذلك قوت أهله وأزواجه سنة ، وما فضل جعله في الكراع والسلاح[2] . وقد كان بنو النضير قد استغلوا أرضهم ، وأقاموا بها (الحوائط) ، ولما أسلم (مخيريق) ، وهو أحدهم ، جعل للرسول ما له وهو سبعة حوائط ، فجعلها الرسول صدقة[3] .

وذكر في بعض الروايات أن (أحيحة بن الجلاّح) ، وكان من أصحاب الأملاك بيثرب ، كانت له بساتين وأرضين يزرعها ويسقيها بالسواني فلا يعبأ بتأخر المطر وانقطاعه . ونسب بعض أهل الأخبار له هذه الأبيات :

إذا جمادي منعت قطرها ... إن جناني عطن معصف
معرورف أسبل جباره ... أسود كالغابة مغدودف
يزخر في أقطاره مغدق ... يحافتيه الشوع والغريف[4]

ويظهر من وجود المصطلحات الآرامية والفارسية والنبطية في لغة زراع يثرب ، أنهم استعانوا في الجاهلية بالرقيق المستورد من العراق ومن بلاد الشأم في زراعة الأرض وفي انباتها ، حتى أنهم أخذوا مسمّياتها منهم ، مثل (الخربز) الذي هو البطيخ في لغة أهل مكة ، كانوا يسمونه (الخربز) ، و (الخربز) لفظة عربية معربة ، من أصل فارسي ، وقد وردت في الحديث[5] .

ونجد في مواضع من بقية جزيرة العرب مياهاً صارت مواطن لسكن ، اختلفت كثافة سكانها باختلاف مقدار الماء. وهي رحمة وغوث بالنسبة للرحل ولأهل القوافل ولذلك صارت ملاذاً استليذ به في هذه البوادي البعيدة الأبعاد الجافة القاسية ، وقد اضطرت القوافل إلى الاتجاه نحوها للوصول الى أهدافها ، لذلك صارت عقداً ، تجتمع في بعض منها جملة طرق برية ، إذ كانت ذات مياه غزيرة وعلى مفترق طرق ، تختصر الأبعاد والمسافات ، وفي هذه الأماكن ، ظهرت زراعة النخيل ، وهي زراعة تقنع بالقليل من الماء ، لامتصاصها الرطوبة من باطن الارض،وبعض

---

١ البلاذري ، فتوح (٢٢) .
٢ البلاذري ، فتوح (٣١) .
٣ البلاذري ، فتوح (٣١) .
٤ تاج العروس (٥/٤٠٤) ، (شوع) .
٥ تاج العروس (٤/٣٣) ، (الخربز) .

النباتات الاخرى ، التي لا تحتاج الى سقي كثير ، وظهرت البيوت المعدة لاستقبال التجار والمسافرين وأصحاب القوافل .

وفي العربية الشرقية مواضع قرب فيها الماء العذب من وجه الأرض ، أو ظهر على وجهها وفار على شكل عيون ، وفي هذه المواضع صار سكن وزرع تناسبت كثافته مع كثافة الماء ومدى وصوله ، حيث توقف عند ذلك المكان الذي انتهى اليه . فالماء هو الذي يحدد الزرع ويعين نوعه ، وهو الذي يقرر السكن ويثبت حده . ومن هذه المواضع التي وجد فيها سكن وزع (هجر) ، وقد اشتهرت بنخيلها ، فقصدها الأعراب لامتيار التمر منها ، حتى ضرب بها المثل في كثرة التمر ، فقيل : كمبضع تمر الى هجر . ويظهر ان مياهها كانت راكدة متجمعة ، فتسببت في ظهور الأوبئة فيها . قال (عمر) « عجبت لتاجر هجر ، وراكب البحر . وانما خصها لكثرة وبائها ، أي تاجرها وراكب البحر سواء في الخطر »[1].

والأحساء من المواضع المشهورة بالزراعة في العربية الشرقية ، وقد عرفت بزراعة النخيل وبعض الأشجار والخضر ، وهي لا تزال على مكانتها ، فلا تزال عيون مائها تمون الناس بماء شربهم وزرعهم . و (قطر) موضع قديم يعود عهده الى ما قبل الميلاد ، وقد أشير اليه في الكتب اليونانية واللاتينية ، وأسس به المبشرون كنائس ، وقد ساهم أساقفته في المجامع الكنسية التي انعقدت للنظر في أمور الجدل بين المذاهب النصرانية ، كما اشتهرت بثياب جيدة نسبت اليها ، أشير اليها في الحديث ، كما أشرت الى ذلك في موضع آخر من هذا الكتاب .

و (كاظمة) اسم قديم معروف ، يرد في الشعر الجاهلي وفي القصص ، جوّ من سيف البحر من البصرة على مرحلتين . وفيه ركايا كثيرة وماؤها شروب . وقد أشير الى قطاها في شعر لامرىء القيس[2] . و (المرائض) في ديار (تميم) بين (كاظمة) و (النقيرة) فيها أحساء[3] .

---

١ تاج العروس ٣(٦١٤/) ، (هجر) .
٢ تاج العروس (٤٧/٩) ، (كظم) .
٣ تاج العروس (٣٩/٥) ، (روض) .

الفصل التسعون

الزرع

ولا بد من حرث الأرض وتنقيتها من الشوائب الضارة بالزرع ، ومن تليينها ، وذلك قبل الشروع بالبذر أو بالغرس . وقد كان بعضهم يحرق الأدغال والأعشاب وما يجده على الأرض المراد زرعها من زوائد وأوساخ ، وذلك للتخلص منها ، وللاستفادة منها في تقوية التربة وزيادة نمائها . ثم يقومون بحراثتها فيندمج رمادها في التربة ويصير جزءاً منها . وقد يقتلون أصول الزرع السابق وما يكون قد نبت على الارض من نبات غريب مؤذٍ للزرع ، قبل حراثة التربة . فاذا تم ذلك ، ونظفت التربة، سقوها بالماء ليكون من السهل على الأكار حرث الارض وتعزيقها ، ورعما لا يسقونها ، بل يحرثونها مباشرة . وذلك بالنسبة للأرضين التي تسقى بماء السماء ، حيث لا يتوفر الماء الجاري ، أو ماء الآبار . ومتى تمت الحراثة وقلبت التربة ، تهيأت للزرع ونظمت وفقاً لنوع الزرع الذي سيكون فيها ، على هيأة ألواح طويلة دقيقة ، أو مربعات تتخللها السواقي والقُني ، أو غير ذلك ، ثم يشرع بعد ذلك في الزرع والغرس . ويقوم الزارع نفسه في العادة بحرث أرضه واصلاحها وتمهيدها للزرع . وقد يقوم بالحراثة أشخاص مقابل أجر يدفع لهم .

والحرث والحراثة العمل في الأرض زرعاً كان أو غرساً . وقد يكون الحرث نفس الزرع . وذكر أن الحرث قذفك الحب في الأرض للازدراع ، والحرّاث الزرّاع[1] . و (الكرّاب) في مرادف الحرّاث ، والكرابة الحراثة . والكِراب

---

١ تاج العروس (١/٦١٤) ، (حرث) .

والكرب إثارتك الأرض . و (الفلاح) في معنى الحرّاث والأكار . لأنه يفلح الأرض ، وحرفته الفلاحة . ورد : « أحسبك من فلاحة اليمن ، وهم الأكرة، لأنهم يفلحون الأرض يشقّونها » . والفلاحة الحراثة ، وهي حرفة الأكار[1] .

و (الجوّار) الأكار ، وقيل : هو الذي يعمل لك في كرم أو بستان[2] . و (الأكار) الحرّاث والزارع ، والمؤاكرة المزارعة على نصيب معلوم مما يزرع في الأرض . وهي المخابرة . ويعدّ الأكار من الطبقات المحتقرة عند العرب . وفي حديث قتل أبي جهل ، فلو غير أكّار قتلني . أراد به احتقاره وانتقاصه، كيف مثله يقتل مثله[3] ، فهو رجل شريف غني ثريّ ، فكيف يقتله من هو دونه في المنزلة والمكانة ، فكان يتمنى وهو مقتول ، لو كان قاتله مثله في المنزلة والمكانة .

وقد اشتهرت اليمن بالفلاحة ، ورد : « وأحسبك من فلاحة اليمن . وهم الأكرة ، لأنهم يفلحون الأرض ، يشقونها »[4] . وقد بقيت شهرة أهل اليمن بالفلاحة الى هذا اليوم ، ومنهم قوم هاجروا الى العربية السعودية للاشتغال بالفلاحة في أرضها .

وأساليب الحراثة تكاد تكون واحدة عند جميع شعوب الشرق الأدنى . وبعض الاساليب بدائي جداً ، يُستعمل في حراثة الارضين الصغيرة بصورة خاصة . فتستعمل الحجارة أو الاخشاب أو الفؤوس على اختلاف أنواعها ، وبعضها متقدم نوعاً ما اعتمد على المسحاة وعلى آلات الحراثة التي تجرها الحيوانات ، وتستعمل هذه الطريقة في حراثة المزارع الكبيرة ، ومنها سكة الحراث حديدة الفدان التي يحرث بها الارض . وينسب الى الرسول قوله : ما دخلت السكة دار قوم إلاّ ذلوا . إشارة الى ما يلقاه أصحاب المزارع من عسف السلطان وايجابه عليهم بالمطالبات وما ينالهم من الذل عند تغير الاحوال بعده . وقد ذكرت السكة في ثلاثة أحاديث بثلاث معان مختلفة[5] . وورد في بعضها ما يفيد العكس ، أي مدح

---

١ تاج العروس (٢/٢٠٠) ، (فلح) .
٢ تاج العروس (٣/١١٣) ، (جار) .
٣ تاج العروس (٣/١٧) ، (أكر) .
٤ تاج العروس (٢/١٩٩) ، (فلح) .
٥ تاج العروس (٧/١٤٣) ، (سكك) .

للزراعة والزراعة وحث عليها .

وتشبه آلات حراثة الجاهليين الآلات التي يستعملها الفلاحون في بلاد العرب اليوم . وقد استعملوا (الفدان) في الفدن . و (الفدان) الثوران اللذان يفدن عليهما ، ولا يقال للواحد فدان[1] . وذكر ان (الهيس) الفدان ، أو أداته كلها بلهجة أهل اليمن ، أو بلغة أهل عُمان[2] .

ومن الآلات التي استعملت في حراثة التربة : المحفار ، وهي المسحاة وغيرها مما يحفر به[3] . والمِخَدّة ، حديدة تخدّ بها الارض[4] ، والمعول ، لتكسير الحجارة والحفر . والمسحاة ، وهي من حديد ، وصانعها سحّاء ، وحرفته السحاية[5] ، وهي لا تزال تستعمل في الحراثة وفي سد المياه وفتحها في السواقي لسقي المزارع والبساتين ، ولقلع الأعشاب والأشجار . و (المرّ) ، المسحاة أو مقبضها ، وقيل هو الذي يعمل به في الطين[6] .

ومن المصطلحات المستعملة في الحراثة ، العزق ، وهو تشقيق الارض بفأس . والأداة المعزق والمعزقة[7] . والكور الحفر ، ومنها كرت الارض كوراً أي حفرتها[8] . والجوّار الأكار ، والأكار الحفّار[9] . والتربيك في الحرث رفع الأعضاد بالمجنب[10] . والكَرَم من الارض التي عدنوها بالمعدن حتى نقّوا صخرها وحجارتها ، فتركوا مزرعتها لا حجر فيها ، وهي أفضل أرضهم . والارض الكرم يحرث فيها البرّ ، وهي سهلة لا تحتاج الى العدن[11] . والمعدن الصّاقور . ويقال عدنت الارض أي أصلحتها[12] . وأما قولهم نخنختُ الارضَ فبمعنى شققتها

---

١ القاموس (٤/٢٥٥) ، (فدن) ، المخصص (١٠/١٥٢ وما بعدها) ، تاج العروس (٩/٢٩٩) ، (فدن) .

٢ المخصص (١٠/١٥٢) ، القاموس (٢/٢٦٠) ، تاج العروس (٤/٢٧٦) ، (الهيس) .

٣ القاموس (٢/٤٢) ، تاج العروس (٣/١٥١) ، (حفر) .

٤ المخصص (١٠/٤٧) .

٥ تاج العروس (١٠/١٧٠) ، (سحا) .

٦ تاج العروس (٣/٥٣٨) ، (مور) .

٧ القاموس (٢/٢٦٤) ، تاج العروس (٧/١٢) .

٨ تاج العروس (٣/٥٣١) ، (كور) .

٩ القاموس (١/٢٦٥ ، ٢٩٤) ، تاج العروس (٣/١١٣) ، (جاد) .

١٠ المخصص (١٠/١٤٨ وما بعدها) ، القاموس (١/٤٩) .

١١ المخصص (١٠/١٤٨) ، تاج العروس (٩/٤١ وما بعدها) ، (كرم) .

١٢ المخصص (١٠/١٤٨) ، تاج العروس (٩/٢٤٧ وما بعدها) ، (عدن) .

للحرث . والنخة البقر العوامل[1] . ويقال رضت الارض اذا أثرتها[2] . وأما وطدت الارض فبمعنى ردمتها لتصلب ، والميطدة خشبة يوطد بها المكان من أساس بناء وغيره ليصلب[3] . ويقال شحبت الارض شحيـــاً وأشحبها ، اذا قشرت وجهها بمسحاة وغيرها ، وهي يمانية[4] . ويقال لكـــل واحد من أخاديد الارض تَلَمٌ والجمع التِلام . وهو مشق الكراب في الارض بلغة أهل اليمن[5] . والخرق بمعنى شق الارض للحرث . وخضضت الارض بمعنى قلبتها[6] .

والحيوانات المستخدمة في الحراثة هي الثيران والحمير والخيـل والجمال ، وذلك بحسب كثرة هذه الحيوانات وقلتها،ويستعمل في الحرث حيوان واحد حيناً وحيوانان حيناً آخر . وقد وصلت الينا بعض النصوص الجاهلية محفوراً فيها صور حيوانات تحرث ، تجر المحراث ويسوقها الفلاح . ويكون الكراب على البقر ، وهو الغالب، وفي المثل : « الكراب على البقر »[7] .

ويظهر من كتب الحديث أن اعتماد أهل الحجاز في الحراثة كان على البقر . وقد ورد في الحديث : « بينما رجل راكب على بقرة ، التفتت اليه ، فقالت : لم أخلق لهذا ، خلقت للحراثة »[8] . ويظهر أنهم كانوا يستعملون الكـــلاب في الحراثة كذلك . ففي الحديث : (كلب حرث) . وقد ورد أيضاً (كلب غنم) و (كلب ماشية) ، و (كلب صيد) ، و (كلب زراعة)[9] .

ويشتغل الفلاح بعد حراثة الارض باصلاحها ونـــثر الحب فيها نثراً متساوياً منتظماً ، ويستعمل لذلك بعض الآلات ، مثل (المـــالق)[10] و (المِـمْـلَـقَـة) .

---

١ تاج العروس (٢/٢٨٢) ، (نخخ) .
٢ تاج العروس (٨/٣١٣) ، (رضم) .
٣ القاموس (١/٣٤٥ وما بعدها) .
٤ المخصص (١٠/١٤٨) ، القاموس (١/٨٥ وما بعدها) .
٥ المخصص (١٠/١٤٨) ، القاموس (٤/٨٣) .
٦ المخصص (١٠/٢٤٨) .
٧ المخصص (١٠/١٥٠) .
٨ عمدة القارىء (١٢/١٥٩ وما بعدها) ، (باب استعمال البقر للحراثة) .
٩ عمدة القارىء (١٢/١٥٧ وما بعدها) ، جامع الاصول (٧/٤٦١ وما بعدها) ، « في ذكر الكلاب واقتنائها » ، ارشاد الساري (٤/١٧٢ وما بعدها) ، (باب اقتناء الكلب للحرث) .
١٠ كهاجـــر .

وهي خشبة عريضة ، تجرها الثيران ، وقد أثقلت لتستوي السَنّة واللؤمة فتتلما على الحب ، وتملس التربة المثارة[1] . و (المِجَزُّ) ، وهي شبحة فيها أسنان وفي طرفها نَقْران يكون فيهما حبلان وفي أعلى الشجة نقران فيهما عود معطوف ، وفي وسطها عود يقبض عليه ثم يوثق بالثورين فتغمز الاسنان في الارض حتى تحمل ما قد أثير من التراب حتى يأتيا به المكان المنخفض[2] . (والمجنب) وهي شبحة مثل المشط ، إلا أنها ليست لها أسنان ، وطرفها الاسفل مرهف يرفع بها التراب على الاعضاد والفلجان[3] .

ويعبر في عربية القرآن الكريم عن طرح البذر في الارض بلفظة (زرع) . ويقال أيضاً : زرعت الشجر كما يقال زرعت البُرّ والشعير . والزرع الإنبات . ومن هذا الاصل لفظة الزرع والزراعة[4] .

وتثار الارض وتقلب على الحبّ ، لضمان طمر الحب في التربة ، فلا يظهر على سطحها ، فتلتقطه الطيور ، ويتعرض للعوارض الجوية التي تفسده وتتلفه . ثم تسقى الارض ، ويقال للسقية الاولى العَفْر ، ثم تسقى بعد ذلك بحسب الحاجة حتى ينمو الزرع وينضج ويجمع ، فيقطع عندئذ السقي[5] .

والحِبة[6] ، بزور البقول والرياحين ، أو بزر العشب ، أو جميع بزور النبات ، وبزر كل ما نبت . والحبّة أيضاً يابس البقل ، تقول العرب : رعينا الحبة ، وذلك في آخر الصيف ، اذا هاجت الارض ويبس البقل والعشب وتناثرت بزورها وورقها ، فإذا رعتها النعم سمنت عليها . ويسمّون الحبّة بعد الاندثار : القميم والقف[7] .

والبزر كل حب يبذر للنبات. والبزور : الحبوب الصغار ، مثل بزور البقول وما أشبهها[8].

---

١ المخصص (١٠/١٥٤) ، القاموس (٣/٢٨٤) ، تاج العروس (٧/٧٣) ، (ملق) .
٢ المخصص (١٠/١٥٤) ، تاج العروس (٤/١٦) ، (جز) .
٣ المخصص (١٠/١٥٤) ، تاج العروس (١/١٩١) ، (جنب) .
٤ تاج العروس (٥/٣٦٨) ، (زرع) .
٥ تاج العروس (٣/٤١٠) ، (عفر) .
٦ بالكسر .
٧ تاج العروس (١/١٩٨) ، (حبب) .
٨ تاج العروس (٣/٤٠) ، (بزر) .

و (البذر) ، ما عزل للزراعة من الحبوب . و (البذر) زرع الارض[1] .

وتزرع بعض الزروع على السواقي وأطراف مسايل الماء ، وذلك بوضع (البذر) أو (البصل) في حفر ، ثم يوضع فوقها قليل من التراب ، لمنع الطيور من التهامها ، وللمحافظة عليها من أثر الجو فيها . وقد يزرع البزر ، فإذا نبت ، تقلع النبتة الواحدة ، لتزرع في موضع آخر .

وإذا أصاب الزرع الخصب والنماء ، عبر عن ذلك بلفظة (خصب) في المسند[2]. اللفظة التي نستعملها نحن في الزراعة ، بمعنى كثرة العشب والزرع والنماء والوفرة[3].

ولا بد لنمو الزرع ونضوجه من اسقاء ، ويعبر عن السقي بلفظة أخرى هي (المكر) . والمكر سقي الارض . يقال أمكروا الارض إذا سقوها[4] .

ولتقوية الارض وإعادة الحيوية اليها ، استخدم الجاهليون التسميد . وبالسماد تعاد الى الارض بعض قوتها ، وينمو الزرع . وقد استعملوا في ذلك جملة وسائل كما يفعل المزارعون في الزمن الحاضر الذين لا يزالون يسيرون على طريقة القدماء في التسميد ، فاستعملوا فضلات الانسان والحيوانات ، كما استعملوا الزبل أيضاً . وذكر أن من أسمدتهم عذرة الناس والسرقين برماد ، يسمد به النبات ليجود[5] . والسرجين ، والسرقين ، الزبل تدبل به الأرض[6] . والمزبلة موضع الزبل ، وزبل زرعه يزبله ، سمده ، أي أصلحه بالزبل وكذلك الأرض[7] . ويقال لتسميد الأرض بالزبل (عدن الأرض) أي أصلحها بالزبل[8] . ويقال دبل الأرض دبولاً ، بمعنى أصلحها بالسرقين ونحوه لتجود ، فهي مدبولة[9] .

ولحماية الزرع من عبث الطيور وبقية الحيوانات به ، اتخذوا وسائل عديدة لحمايته . منها : اللعين . ما يتخذ في المزارع كهيأة رجل ، أو الخيال تذعر به

---

١ تاج العروس (٣/٣٥) ، (بذر) .
REP. EPIGR. 4646.
٢
٣ تاج العروس (١/٢٣٥) ، (خصب) .
٤ تاج العروس (٣/٥٤٨) ، (مكر) .
٥ تاج العروس (٢/٣٨١) ، (سمد) .
٦ تاج العروس (٩/٢٣٤) ، (سرجن) .
٧ تاج العروس (٧/٣٥٤) ، (زبل) .
٨ تاج العروس (٩/٢٧٤) ، (عدن) .
٩ تاج العروس (٧/٣١٧) ، (دبل) .

الطيور والسباع والوحوش[1] . و (الخيال) ، كساء أسود ينصب على عود يخيل به للبهائم والطير فتظنه انساناً . وقيل خشبة توضع فيلقى عليهـــا الثوب للغنم اذا رآها الذئب ظنها انساناً . و (الخيلان) ، ما ينصبه الراعي عند حظيرة غنمه . وقيل : الخيال ، ما نصب في أرض ليعلم انها حمى ، فلا تقرب[2] .

الحصاد :

ويحصد الزرع بعد نضجه ، يحصد بالمنجل . وأكثر ما يستعمل في البر والشعير ونحوهما من الزرع . والمحصد ، المنجل[3] . والحصاد هو (فقل) في المسند[4] . وقد فسر بعض العلماء لفظة (خرفت) بمعنى الحصاد كذلك[5] . ولا يقصد بالحصاد هنا حصاد الحبوب وحدها ، كالحنطة والشعير ، كما نفهم من معنى اللفظـــة في عربيتنا ، وانما يقصد بها هذا ومعنى آخر هو جني الثمار وقطف الأعناب ، عند نضوجها .

ويقال لمن يحصد الحصاد بالأجرة (المحاين) ، وللعمل (المحاينة) ، يقال استأجره محاينة ، أي على الحصاد[6] .

وترد لفظة (افقل) من أصل (فقل) في النصوص الزراعية ، وهي من الالفاظ اليمانية القديمة التي وعتها كتب اللغة ، فذكرت ان (الفقل) التذرية بلغة أهل اليمن ، وان أهل اليمن يذرّون بالمفقلـــة ، وهي الحفراة ذات الاسنان ، يرفعون بها الدق ثم ينثرونه ويذرونه لاستخلاص الحب منه . و (الدق) ما قد ديس ولم يذر[7] . و (افقل) في نصوص المسند ، هي البيادر التي تتجمع من

---

١ تاج العروس (٩/٣٣٥) ، (لعن) .
٢ تاج العروس (٧/٣١٥) ، (خيل) .
٣ تاج العروس (٢/٣٣٦) ، (حصد) .
٤ Mordtmann und Mittwoch, Sab. Inschr., S. 117.
٥ Glaser 181, CIH 197, REP. EPIGR. 3966, Mordttmann und Mittwoch, Sab. Inschr., S. 113.
٦ تاج العروس (٩/١٨٨) ، (حين) .
٧ تاج العروس (٨/٦٥) ، (فقل) .
REP. EPIGR., VII, p. 285, Num. 4636, Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 157.

هذه الحبوب بعد التذرية .

وترد لفظة (خرف) في عربية القرآن الكريم بمعناها الوارد في نصوص المسند. فذكر علماء اللغة ، ان (خرف) بمعنى صرم واجتنى ، وان الاخـتراف بمعنى لقط النخل بسراً كان أو رطبـاً ، وأنها تعني قطف الثمر ، كما وردت لفظة (المخرفة) بمعنى البستان والنخل والسكة بين صفين من النخل ، يخترف المخترف من أيهما شاء ، والمخترف هو القاطف للثمر ، وأن (المخرف) بمعنى زنبيـل صغير يخترف فيه من أطايب الرطب،أو الآلة التي تخترف فيها الثمار و (الخارف) حافظ النخل ، والخرّاف النظار ، والخرافة ما خرف من النخل[1] .

وقد وردت لفظة (نحقل) بمعنى الناتج والمحصول . و (حقل) بمعنى الحاصل. أي الحاصل الزراعي المجموع من الحقل والمزرعة ، وذلك كما في هذه الجملة : « نحقل ثمنيت الفم بقـلم لس » . ومعناها : « الحاصل ثمانيـة آلاف لس من البقول » . و (لس) نوع من الكيل أو الوزن ، أو الكومـات ، أو الحزم .

ويعبر عن الدراسة بلفظـة (علص) في المسند . وفسّر بعض علماء المسند لفظة (معلصت) ، بمعنى المزرعة والحقل[2] . ولا استبعد كونهـا آلة من آلات الدراسة أيضاً .

واذا ديس الزرع قيل لذلك العمل الدق والدياس والدّراس. والإكادة كالإداسة[3] . وأما الدقّوقة ، فالبقر والحمر التي تدوس الزرع لاستخراج حبه وتهشيم سيقانه[4] . وقد تستعمل بعض الآلات لقطع سوق الزرع وتهشيمه وتهشيم السنبـل ، تجرها الثيران أو الحمير ، ويجلس عليها شخص ليثقلها ، وهي مثل العجلة ، التي تقطع الجلّ ، يقال لها (الحيلان) . وهي آلة من خشب لها محالتان كمحالة العجلة ، قد أنعلتا بحديد مضرس اذا دارتا على الجل قطعتاه ، فتجعـلان في طرفي عارضة

---

١ تاج العروس (٦/٨١ وما بعدها) ، (خرف) .

٢ Mordtmann und Mittwoch, Sab. Inschr., S. 115, Nr. 84, RW 125, CIH 197, Glaser 181.

٣ « أكد الحنطة داسها ودرسها » ، تاج العروس (٢/٢٩١) ، « أكد » .

٤ تاج العروس (٦/٣٤٦) ، (دق) .

ضخمة ، ويقعد عليها رجل ليثقلها ، ثم يجرها الثور على الجل[1] . وأما (المقحفة) فالخشبة المتقفعة التي يقحف بها الحب ، أي يذرى[2] .

وبعد الدياسة والدراسة يذرى الطعام لفصل الحب عن التبن . ويستعملون في ذلك آلات التذرية ، وهي آلات يدوية ما زال الفلاحون يستعملونها كما كانت قبل آلاف السنين ، تتألف من مقبض طويل وأصابع في رأسه يذرى بها الهشيم في الهواء ، ليحمل الهواء التبن ، وهو خفيف الوزن إلى مكان والحب الى مكان آخر . وقد ذكر العلماء جملة أسماء لآلة التذرية ، منها (المذرى) و (المذرّة)[3] و (المروح) و (المرواح) و (الميثار)[4] و (الحفراة) ، وهي (الرفش) أيضاً[5] .

ويتولى الفلاحون دوس الحاصل بأنفسهم ، لهشم السيقان والحصول على التبن والحب . يستعملون في ذلك أرجلهم وآلات الدياسة . أما إذا كان الحاصل كبيراً ، فيستعملون عندئذ الحيوان يمشي عليه ، أو يجر آلات الدياسة الثقيلة لهشم السيقان وفصل الحب عنها .

ومن عادات أهل اليمن في الدرس والدياسة التناوب ، وذلك بأن يجتمعوا مرّة عند هذا ومرة عند هذا ، فيتعاونوا على الدياس ، ويسمون ذلك (القاه). وذلك كالطاعة له عليهم ، لأنه تناوب قد ألزموه على أنفسهم ، فهو واجب لبعضهم على بعض . وقد وصف أحد أهل اليمن ذلك للرسول بقوله : « انا أهل قاه ، فإذا كان قاه أحدنا دعا من يعينه ، فعملوا له ، فأطعمهم وسقاهم من شراب يقال له المزر »[6] . وكان أهل (الجوخان) يتناوبون ويتعاونون على الدياس ، يجتمعون مرة عند هذا ومرة عند هذا ، يرون التعاون فيما بينهم لزاماً عليهم ، وكالطاعة لهم ، ونوبة كل رجل قاهة[7] .

---

١ المخصص (١١/٥٥) .
٢ تاج العروس (٦/٢١٦) ، (قحف) .
٣ المخصص (١١/٥٥) ، تاج العروس (٣/٢٢٤) ، (ذر) .
٤ المخصص (١١/٥٥) .
٥ تاج العروس (٣/١٥٢) ، (حفر) .
٦ تاج العروس ٩(/٤٠٧) ، (القاه) ، المخصص (١١/٥٥) .
٧ تاج العروس (٩/٤٠٧) ، (القاه) .

ويجمع الفلاحون الحاصل ثم يقسمونه بحسب الانفـاق ، إن كان هناك فلاح ورب أرض ، ليأخذ كل واحد منهما نصيبه ، أو يوزع حسب نصيب كل من الشركاء ، إن كان الزرع شركة . أو يسلم الى صاحب الزرع ، ان كان الزرع زرعه ، وكان الفلاحون عبيداً له . ويخزن الحاصل في مخازن مبنية ، وفي بيادر وبيدر الطعام كومه . والبيدر الموضع الذي يداس فيه الطعام ، والمكان الذي يجمع الطعام فيه . وهو (الأندر) ، و (الكدس)[1] . و (الأندر) ، كدس القمح خاصة[2] . والكُدس : الحب المحصود المجموع . وهو العرمة من الطعام والتمر والدراهم ونحو ذلك ، مما يكدس بعضه فوق بعض[3] .

وذكر علماء اللغة أن (الجرين) للحب ، والبيدر للتمر . وذكـروا أيضاً أن الجرين موضع السبر ، بلغة أهل اليمن ، وان (الجرد) الطحن شديـداً بلغة هذيل[4] .

وينقل الطعام بأوعية الى المخازن ، ومنها نوع يقال له (العيبة) ، وهو زنبيل من أدم ، ينقل فيه الزرع المحصود إلى (الجرن) في لغة همدان[5] . وهناك أسماء أوعية أخرى استعملت في نقل الحاصل من أرض الحصاد وكوم التذرية الى المخازن. ويعبر عن حمل الزرع بعد الحصاد إلى البيدر بلفظة (رفع) كأن يقال : (رفع الزرع) ، و (الرفاع) اكتناز الزرع ورفعه بعد الحصاد[6] . وأما (الغبوط) فالقبضات المصرومة من الزرع . و (الغبوط) هي القبضات التي اذا حصد البر وضع قبضة قبضة ، الواحد غبط[7] . وأما (المكتل) ،فزنبيل يحمل فيه التمر أو العنب إلى (الجرين) ، وقيل هو شبه الزنبيـل يسع خمسة عشر صاعاً . وفي حديث خيبر : فخرجوا بمساحيهم ومكاتلهم[8]. وكان (عمال خيبر) قد خرجوا بمساحيهم

---

١ تاج العروس (٣/٣٥) ، (بدر) .
٢ تاج العروس (٣/٥٦٠) ، (ندر) .
٣ تاج العروس (٤/٢٣٠) ، (كدس) .
٤ تاج العروس (٩/١٦٠) ، (جرن) .
٥ تاج العروس (١/٤٠٢) ، (عاب) .
٦ تاج العروس (٥/٣٥٨) ، (رفع) .
٧ تاج العروس (٥/١٩٠) ، (غبط) .
٨ تاج العروس (٨/٩٤) ، (كتل) .

ومكاتلهم ، فلما رأوا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم والجيش ، قالوا : محمد والخميس معه ، فأدبروا هراباً »[1] .

و (الحنوان) ، هما الخشبتان اللتان عليهما الشبكة ينقل عليها البُر[2] .
و (الوشيجة) ، ليف يُفتل ثم يشبك بين خشبتين ينقل بها البر المحصود[3] .

ويعبر عن جمع المحصولات في مواضع معينة لتحسينها ، أو لخزنها ، أو لتجفيفها وللمحافظة عليها بجملة ألفاظ ، منها : (الكدس) ، ويراد بها الحب المحصود المجموع ، وهو العرمة من الطعام والتمر والدراهم ونحو ذلك[4] . ومنها (المربد) ، والمربد كل شيء حبست به الإبل والغنم . ولهذا قيل مربد النعم الذي بالمدينة . وهو أيضاً الجرين الذي يوضع فيه التمر بعد الجداد ليبيبس ، وهو (الأندر) بلغة أهل الشأم ، والبيدر بلغة أهل العراق[5] . وأما (المسطح) ، فمكان مستو يبسط عليه التمر ويجفف ، ويسمى (الجرين) يمانية[6] . وأما (الصبرة) ، فما جمع من الطعام بلا كيل ووزن بعضه فوق بعض . يقال اشتريت الشيء صبرة ، أي بلا وزن ولا كيل . والصبرة الكدس[7] .

وللمحافظة على الحبوب وغيرها من التلف ، اتخذت مخازن تحت الأرض تحفظ فيها سميت (مدفن) (المدفن) في المسند[8] . ولا تزال هذه الطريقة معروفة في مواضع من جزيرة العرب حيث يخزنون القمح وسائر الحبوب في حفر تحفر في الأرض . ويعرف (المدفن) بـ (قنت) ؛ أي الحفرة في لغة المسند كذلك . وهي مخزن يخزن فيه الحب . وذكر (الهمداني) ، ان أهل اليمن كانوا في أيامه يحفرون حفراً في الأرض ويدفنون الذرة فيها ، ويسع المدفن خمسة آلاف قفيز الى ما هو أقل . ويسد عليه ، ويبقى على ذلك مدة طويلة . فإذا كشف المدفن ترك

---

١ سيرة ابن هشام (٢/٢٣٦ وما بعدها) ، (حاشية على الروض الانف) .
٢ المخصص (١١/٥٥) .
٣ المخصص (١١/٥٥) ، تاج العروس (٢/١١١) ، (وشج) .
٤ تاج العروس (٤/٢٣٠) ، (كدس) .
٥ تاج العروس (٢/٣٤٩) ، (ربد) .
٦ تاج العروس (٢/١٦٣) ، (سطح) .
٧ تاج العروس (٣/٣٢٤) ، (صبر) .
٨ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 73.

أياماً حتى يبرد ويسكن بخاره ، ولو دخله داخل عند كشفه لتلف بحرارته[1] .

ويعبر عن قطف الثمار وجزها ، ولا سيما النخل بلفظة (الصرام) ، و(صرم) و (اصطرام)[2] . و (اصطرام) النخل اجترامه . وجرم النخل جرماً ، خرصه وجزه ، والجرام صرام النخل[3] . وتؤدي لفظة (الجداد) معنى (الصرام) كذلك، وقيل : الجداد بمعنى الحصاد والقطاف[4] .

---

١ الصفة (١٠٨) .

٢ تاج العروس (٣٦٥/٨) ، (صرم) ، جامع الاصول (٤٧٧/١١) .

٣ تاج العروس (٢٢٤/٨) ، (جرم) .

٤ تاج العروس (٣١٣/٢) ، (جدد) .

obeikandl.com

الفصل الحادي والتسعون

المحاصيل الزراعية

الحبوب :

يطلق علماء اللغة على الحنطة والشعير لفظة : (الحب)[1] . وهما عماد الخبز في جزيرة العرب حتى الآن . وتقابل اللفظة كلمة (ميرس) في المسند .

والحنطة من أهم المواد الضرورية التي يتاجر بها ، وهي (بُر) في المسند[2] . والبُر[3] ، الحنطة في لغة القرآن الكريم كذلك . وهي (قمح) أيضاً . وقد تكلم بها أهل الحجاز ، ووردت في الحديث . وذكر أنها شامية وقيل قبطية[4] . وهي آرامية الأصل ، من (قمحو) « Gamho »[5] . وهي غذاء الطبقة المترفة والموسرة في الأكثر لغلاء ثمنها بالنسبة الى الفقراء . وقد تباهى الناس وافتخروا بتقديمهم (البر) الى الضيوف[6] . و (الحنطة) من الألفاظ التي كانت شائعة عند العرب أيضاً ، فهي

---

١ تاج العروس (١/١٩٨) ، (حبب) .

٢ راجع السطر : «٩٧» من النص الموسوم بـ : CIH 241, Glaser 618.

٣ بالضم .

٤ تاج العروس (٢/٢٠٨) ، (قمح) ،

٥ غرائب اللغة (٢٠٢) .

٦ قال المتنخل الهذلي :

لا در دري ان أطعمت نازلكم قرف الحتى وعندي البر مكنوز

تاج العروس (٣/٣٨) ، (بر) .

(حطاه) (خطاه) « Chittah » في العبرانية مثلاً[1] . وقد قيل لهـا (بر) في العبرانية كذلك[2] .

ويقال للحنطة : (البيضاء) ، وهي (السمراء) أيضاً[3] . و (البثنية) ، الحنطة الجيدة[4] .

وذكر (ابن المجاور) اسم موضع يقال له (بحرى) ، ذكر انه اشتهر بزرع الحنطة ، وان سكانه يزرعون الحنطة مرتين في السنة ، في كل ستة أشهر مرة[5] . واشتهرت (الطائف) بزراعة نوع من الحنطة الجيدة[6] . وأشير إلى نوع من الحنطة عرف بـ (المهريـة) ، قيل انها حنطة حمراء ، وكذلك سفاها ، وهي عظيمة السنبل غليظة القصب مربعة[7] .

والشعير ، أرخص من الحنطة ، ولذلك كثر استعماله في الأكـل ، فمنه كان خبز أكثر الناس[8] . ولا زال خبز أهل القرى وبعض الأعراب . وقد كان يهود المدينة يتاجرون به وبدقيق الشعير : يبيعونه في مواطنهم ، وفي الأسواق ولا سيما سوق (بني قينقاع) . وقد استدان الرسول من أحـد اليهود صاعين من دقيق الشعير .

ويقال للطحين في كتابات المسند (دققم) أي (دقيق)[9] . ويصنع بطرق مختلفة ، أشهرها (الرحى) ، التي تدار باليد ، والتي يديرها الحيوان ، والتي تدار بالقوى المائيـة . و (الطحانة) التي تدور بالماء[10] . ومع ان معظم الأسر تصنع الطحين في بيوتها ، فإن كثيراً من الناس يشترون الطحـين من الأسواق ، ويستوردونه من الخارج من بلاد الشأم في الغالب ، ويبيعونه في الأسواق المحلية . ويقال للدقيق (طحنم) في لغة المسند كذلك ، أي (طحين)[11] .

---

١ Hastings, p. 972, The Bible Dictionary, II, p. 549.
٢ Encyclopaedia Biblica, by Cheyne, Vol., II, p. 908.
٣ تاج العروس (٥/١٠) ، (بيض) .
٤ تاج العروس (٩/١٣٥) ، (بثن) .
٥ ابن المجاور (١/٢٦) .
٦ ابن المجاور (١/٢٥) .
٧ تاج العروس (٣/٥٥١) ، (مهر) .
٨ البخـاري (٥/٤٧) .
٩ راجع السطر الـ «١٢٠» من النص الموسوم بـ : CIH 241, Glaser 618.
١٠ تاج العروس (٩/٢٦٨) ، (طحن) .
١١ Handbuch, I, S. 137

ويظهر ان (الرز) لم يكن من الحبوب المعروفة عند أهل الحجاز ، أو الأماكن الأخرى من جزيرة العرب . وهو من طعام الحضر .

وقد تعود الناس استعمال حبوب أخرى بدلاً من الحنطة والشعير والذرة ، وذلك في سني الفاقة والعوز . وبعض هذه الحبوب هو من الحبوب التي تنبت بالطبيعة . ومن جملة هذه الحبوب (الطهف) ، حب يؤكل في المجهدة ضاو دقيق . لونه أحمر ، ويخبز[1] . و (العلّس) ، وهو حبة سوداء ، إذا أجدبوا طحنوهـا وأكلوها . وقيل هو ضرب من الحنطة ، يكون بناحية اليمن ، وقيل هـو طعام أهل صنعاء . ويقال إنه العدس[2] . و (البيقية) ، وهو حب أخضر يؤكل مخبوزاً ومطبوخاً ، حبّه أكبر من الجلبان ينبت في الحروث[3] . و (السلت) ، وهـو حب بين الشعير والبرّ ، إذا نقي انجرد قشره ، فكان مثل البر . وقيـل شعير لا قشر له أجرد، كأنه الحنطة يكون بالغور والحجاز[4] . ويقال للرطب من السلت: (البيضاء)[5] .

وقد عرفت زراعة الذرة باليمن بصورة خاصة ، كانوا يخبزونها ويستخرجون منها شراباً يقال له : (المزر) . أشير اليه في كتب الحديث والفقة ، وقد نهى الرسول عن شربه[6] . وذكر أن المزر نبيذ الذرة والشعير والحنطة والحبوب ، وقيل نبيذ الذرة خاصة ، وقيـل المزر من الذرة ، والبتع نبيذ العسل ، والجعة نبيذ الشعير ، والسكر من التمر ، والخمر من العنب[7] .

القطنية :

ويطلق علماء اللغة على حبوب الأرض التي تدخر كالحمص والعـدس والباقلاء والترمس والدخن والأرز والجلبان : (القطنية) ، وأطلقها بعض آخر على ما سوى

---

١ تاج العروس (٦/١٨٦) ، (أطهف) .
٢ تاج العروس (٤/١٩٥) ، (علس) ، المخصص (١١/٦٤) .
٣ تاج العروس (٦/٣٠٢) ، (بيقية) .
٤ تاج العروس (١/٥٥٤) ، (سلت) .
٥ تاج العروس (٥/١٠) ، (بيض) .
٦ الاصابة (١/١٣٧) ، (رقم ٥٦٧) ، (أوس بن بشير) .
٧ تاج العروس (٣/٥٤١) ، (مزر) .

الحنطة والشعير والزبيب والتمر ، أو على الحبوب التي تطبخ . وجعلها بعضهم : العدس والخلر ، وهو الماش ، والفول ، والدجـــر ، وهو اللوبياء ، والحمص وما شاكلها . وقد ذكر ان الخليفة (عمر) كان يأخذ من القطنية العشر[1] .

و (الحمص) معروف عند العرب ، وهو بري ، أي وحشيّ ، ينبت من نفسه ، وبستاني ، أي ينبت بزرع الانسان. وقد علفوا به فحول الدواب والجمال. وقد عالجوا به وبدقيقه وبنقيعه أمراضاً عديدة[2] . و (العدس) ، معروف عندهم أيضاً ، ويقال له (العلس) ، و (البلس) أيضاً[3] . وذكر ان (العلس) ، ضرب من البر جيد ، تكون حبتان منـــه في قشر ، يكون بناحية اليمن . وهو طعام معروف عند أهل صنعاء[4] .

والجلبان من (القطنية) (القطاني) ، نبت يشبه الماش ، أو هو حب أغبر أكدر على لون الماش إلا انه أشد كدرة وأعظم جرماً يطبخ[5] . و (الماش) ، معروف عند العرب كذلك ، يأكله الحضر ، ويداوون به[6] .

وقد أشير في القرآن الكريم الى البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل[7] . ولفظة (بقلن) ، و (بقلت) ، الواردة في نصوص المسند ، هي في مرادف (بقل) ، و (البقل) في عربيتنا ، وأما لفظة (تبقلت) ، فتقابل لفظة (تبقيل) ، ويراد بها زرع الأرض بالبقول .

والسلق من البقول ، وهو نبت ، له أوراق طوال.وأصل ذاهب في الأرض ، يطبخ ورقه . وقد ذكر ان أهل المدينة كانوا يأخذون ورق السلق ، فيجعلون فيه حبات من شعير ، ويطبخونه ، فيكون من ذلك أكل لذيذ[8] .

و (القثاء) ، الخيـــار ، ويقال انه اسم جنس لما يقول له الناس الخيار ، والعجور والفقوس ، وبعض الناس يطلقه على نوع يشبه الخيار . ويقال هو أخف

---

١ تاج العروس (٩/٣١١ وما بعدها) ، (قطن) ، اللسان (١٣/٣٤٤) .
٢ تاج العروس (٤/٣٨٣) ، (حمص) .
٣ تاج العروس (٤/١٨٦) ، (عدس) .
٤ تاج العروس (٤/١٩٥) ، (علس) .
٥ تاج العروس (١/١٨٦) ، (جلب) .
٦ تاج العروس (٤/٣٥٢) ، (ماش) .
٧ البقرة ٢٢ ، الآية ٦١ .
٨ عمدة القارىء (١٢/١٨٢) ، صحيح البخاري (٢/١٠٩) ، تاج العروس (٦/٣٨٢)، (سلق) .

من الخيار[1] . ويطلق العرب لفظة (الشعارير) على القثاء الصغير[2] . وذكر بعض علماء اللغة أن الخيار شبه القثاء ، وأن اللفظة ليست بعربية أصيلة[3] . وهي من أصل فارسي ، هو (خيار) ، ولهم نوع آخر من الخيار اسمه (خيار جنبر)[4]. وأما لفظه (القثاء)،من المعرّبات كذلك ، عربت من أصل آرامي[5] . و (القثد) نبت يشبة القثاء ، وقيل ضرب منه ، وهو القثاء المدور ، أو هو الخيار . وفي الحديث انه كان يأكل القثد بالمجاج[6] . والمجاج العسل .

ويقال للقثاء (قشّايم) (قشّائيم) « Kishshu'im » في العبرانية،و (قثوتو) في لغة بني إرم . ويظهر أن لفظة (قثّاء) من الألفاظ القديمة . وقد ذهب بعض الباحثين الى أنها من الألفاظ الإرمية في الأصل[7] . أما لفظة (خيار) فيرون أنها من أصل فارسي[8] .

وذكر علماء اللغة أن (الفقّوس) ، هو البطيخ الشامي ، والذي يقال له البطيخ الهندي ، بلغة أهل مصر ، والحبحب بلغة أهل اليمن[9] .

وقد اختلف علماء التفسير واللغة في معنى (الفوم) ، فذهب بعضهم الى انه الثوم ، وقال بعض آخر الحنطة ، وهو لغة قديمة فيها . وذهب بعض آخر ، الى انه الحنطة وسائر الحبوب التي تخبز ، كما ذهب جماعة الى ان الفومة هي كل عقدة من بصلة أو ثومة أو لقمة عظيمة[10] .

والثوم ، بقلة معروفة كثيرة بأرض العرب،يأكلونها ويداوون بها نيئة ومعجونة، ومسحوقة ، ومطبوخة ، ومسلوقة[11] .

---

١ تاج العروس (١/١٠٠) ، (أقثأ) .
٢ تاج العروس (٣/٣٠٤) ، (شعر) .
٣ تاج العروس (٣/١٩٥) ، (خير) .
٤ غرائب اللغة (٢٢٦) .
٥ غرائب اللغة (٢٠٠) .
٦ تاج العروس (٢/٤٥٩) ، (قثد) .
٧ Encyclopaedia Biblica, by Cheyne, Vol., I, 965, Hastings, p. 271, Hastings, A Dictionary, Vol., I, p. 531.
٨ غرائب اللغة العربية (ص ٢٢٦) .
٩ تاج العروس (٤/٢٠٩) ، (فقس) .
١٠ تاج العروس (٩/١٥) ، (فوم) .
١١ تاج العروس (٨/٢٢٠) ، (الثوم) .

والبصل معروف وواحدته بصلة . وذكر انه (الفراريس) ، أو (الفراديس)[1]. وهم يداوون به ، ويضرب به المثل ، فيقال : أكسى من البصل[2] .

الكمأ :

والكمأ نبات معروف في جزيرة العرب ، يخرج من غير زرع كما يخرج الفطر . والعرب تسميه (جُدري الأرض) ، ويقال لبائعه (الكمّاء) . وقد استعمل العرب ماءه لشفاء العين . وقد أشير اليه في الحديث . وهو من النبات الذي يقتات به في أوقات ظهوره[3] . والكمأة السوداء خيار الكمأة. وأما (الجبأة)، فالكمأة الحمراء ، وقال بعض علماء اللغة الجبأة هنة بيضاء كأنها كمأة[4] .

وأما (الفطر) ، فهو ضرب من الكمأة . وقد ذكر علماء اللغة أنه قتال[5] . وقد أخذوا هذه الفكرة من وجود فصائل سامة منه . إلا أن بينه ما هو غير سام .

وذكر علماء اللغة أسماء أنواع عديدة لنباتات تشاكل الكمأة ، منها : العرجون، والطرثوث ، نبت رملي طويل مستدق كالفطر ، يضرب الى الحمرة ويبيبس ، يؤكل منه حلّز ، وهو الأحمر ، ومنه مرّ وهو الأبيض ، وذكر بعض علماء اللغة أن الطرثوث نبت على طول الذراع ، لا ورق له ، كأنه من جنس الكمأة[6] و (الطرنوث) و (الضغبوس)[7] . وذكر بعض علماء اللغة ، أن (الضغابيس) صغار القثاء ، جمع ضغبوس . وقيل : هي أغصان شبه العراجين تنبت بالغور ، في أصول السّمام والشوك طوال حمر ، وهي التي تؤكل ، أو نبات كالهليون ، ينبت في أصل الثمام يسلق بالخل والزيت ويؤكل[8] .

---

١ تاج العروس (٩/١٥) ، (فوم) .
٢ تاج العروس (٧/٢٢٨) ، (بصل) .
٣ تاج العروس (١/١١٢) ، (كمأ) ، المخصص (١٢/٢ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (١/٥٠) ، (جبأ) .
٥ تاج العروس (٣/٤٧٠) ، (فطر) .
٦ تاج العروس (١/٦٣١) ، (طرثوث) .
٧ المخصص (١٢/٢ وما بعدها) .
٨ تاج العروس (٤/١٧٦) ، (الضغابيس) .

وهناك بقول برية ، منها (القلقلان) ، و (البسباس)[1] ، و (الذرق)[2] ، و (النفل)[3] ، و (الملاح)[4] .

فصيلة اليقطين :

و (اليقطين) في تعريف علماء العربية : ما لا ساق له من النبات ونحوه ، أو كل شيء ذهب بسطاً في الأرض ، نحو القرع ، والبطيخ ، والشريان ، والدباء ، والحنظل ، ونحوها[5] . فكل هذا النبات هو من اليقطين .

واليقطين ، مذكور في القرآن الكريم[6] . وقد ذهب بعض علماء التفسير الى ان المراد من اليقطين في القرآن الكريم ، القرع ، وذهب بعض آخر ، الى انه الدباء ، وذهب بعض آخر الى انه البطيخ . وذهب قوم الى ان اليقطين شجرة غير ذات أصل من الدباء ونحوه أو غيره . وقد ذكروا ان أمية بن أبي الصلت أشار الى قصة (يونس) ، وكيف ان الله أنبت عليه شجرة من يقطين ، أظلته وعاش عليها ، وذلك قبل الاسلام ، إذ قال :

فأنبت يقطيناً عليه برحمة من الله لولا الله ألفي ضاحيا[7]

وذكر ان (القرع) ، حمل اليقطين ، وكان النبي يحبه . وأكثر ما تسميه (الدباء) ، وقل من يستعمل القرع[8] .

والبطيخ من المزروعات المعروفة في بلاد العرب[9] . وعرف أيضاً بـ (الخربز). وهي لفظة معربة من أصل فارسي هو (خربوزة)[10] . وقد وردت لفظة (الخربز)

---

١ تاج العروس (١٠٩/٤) ، (بس) .
٢ تاج العروس (٣٥١/٦)، (ذرق) .
٣ تاج العروس (١٤١/١) ، (نفل) .
٤ تاج العروس (٢٢٩/٢) ، (ملح) .
٥ تاج العروس (٣١١/٩) ، (قطن) .
٦ الصافات ، ٣٧ ، الآية ١٤٦ .
٧ تفسير الطبري (٦٤/٢٣ وما بعدها) .
٨ تاج العروس (٤٦٢/٥) ، (قرع) .
٩ القاموس (٢٥٧/١) ، تاج العروس (٢٥٣/٢) ، (البطيخ) .
١٠ القاموس (١٢٥/٢) ، تاج العروس (٣٣/٤) ، (الخربز) .

في الحديث ، مما يدل على انها كانت معروفة في الجاهلية . والظاهر انها وردت من العراق بواسطة التجـــار العرب أو التجار الفرس الذين كانوا يتاجرون مـــع الحجاز ، أو بواسطة الرقيق المستورد من هناك ، والذي استخـدم في الزراعة في هذه الديار .

وذكر علماء اللغة أن (الحبحبة) البطيخ المعروف بالبطيخ الشامي ، الذي يسميه أهل العراق: (الرقي) والفرس تسميه : (الهندي) لما أن أهـــل العراق يأتيهم من جهة (الرقـــة) ، والفرس من جهة الهند ، وأن أصل منشئه من هناك . وذكر بعض علماء اللغة أنه يسمى (الجوح) ، ويسميه المغاربة : (الدلاع)[1] .

والحنظل ، معروف جداً عند العرب ، وهم يداوون به ، ويعالجون به أمراضاً كثيرة،ولا زال الأعراب يقيمون له وزناً كبيراً في طبهم . ويأكلون حبه أيضاً .

النبات الشائك :

ومن فصائل النبات عند العرب ، النبات الشائك ، أي ذو الشوك . وهو كل نبات به شوك ، وأرض شاكة كثيرة الشوك . وشجرة مشوكة كثيرة الشوك ، وأرض مشوكة فيها السحاء والقتاد والهراس ، وذلك لأن هذا كله شاك . والسحاء، نبت شائك ، له زهرة حمراء في بياض تسمى (البهرمة) ، يرعاه النحل عسله غاية[2] . و (القتاد) ، شجر صلب له شوكة كالابر ، وجنـاه كجناة السمر ، ينبت بنجد وتهامة . قال بعض علماء اللغة ، إنه من العضاه ، وهـــو ضربان . فأما القتاد الضخام ، فانه يخرج له خشب عظام ، وشوكة حجناء قصيرة . وأما القتاد الآخر ، فإنه ينبت صعداً لا ينفرش منه شيء ، وهو قضبان مجتمعة ، كل قضيب منها ملآن ما بين أعلاه وأسفله شوكاً . وفي المثل : من دون ذلك خرط القتاد . وقد ذكر أن الإبل لا تأكل القتاد إلا في عام جدب ، فيجيء الرجـــل ويضرم فيه النار حتى يحرق شوكه ثم يرعيه إبله ، ويسمى ذلك التقتيد . والتقتيد هو أن تقطع القتاد ، فتحرقه ، أي شوكه،فتعلفه الإبل ، فتسمن عليـه ، وذلك عند الجدب[3] .

---

١ تاج العروس (١/١٩٩) ، (حبب) ، (٢/١٣٤) ، (جوح) .
٢ تاج العروس (١٠/١٧١) ، (سحا) .
٣ تاج العروس (٢/٤٥٨) ، (قتد) .

و (الهراس) ، شجر شائك ، شوكه كأنه حسك ، ثمره كالنبق ، قال بعض علماء اللغة : انه شجر ، وقال بعض آخر انه بقل ، أو شوك من أحرار البقول[1] . و (الحسك) ، نبات له ثمرة خشنة تعلق ثمرته بصوف الغنم ووبر الإبل في مراتعها ، وعند ورقه شوك ملزز صلب ذو ثلاث شعب ، لا يكاد أحد يمشي في أرض حسكة ، إلا أحد في رجليه حذاء[2] . و (النفـــل) ، نبت من أحرار البقول،ومن سطاحه ، ينبت متسطحاً وله حسك ، قيل : هو قت البرّ ، تأكله الإبل والخيل وتسمن عليه[3] .

والعوسج ، شجر من شجر الشوك ، له ثمر أحمر مدوّر ، كأنه خرز العقيق. وقيل : هو شجر كثير الشوك ، وهو ضروب ، منه ما يثمر ثمراً أحمر يقال له المقنع فيه حموضة . والعوسج المحض ، يقصر أنبوبه ويصلب عوده ولا يعظـــم شجره ، فذلك قلب العوسج ، وهو أعتقه[4] . وذكر ان (المصعة) ثمرة العوسج وحمله ، وهو قدر الحمصة حلو طيب يؤكل ، أحمر ، ومنه قولهم : هو أحمـــر كالمصعة ، ومنه اسود لا يؤكل على أردأ العوسج وأخبثه شوكاً[5] .

---

١ تاج العروس (٤/٢٧٢) ، (هرس) .
٢ تاج العروس (٧/١١٩ وما بعدها) ، (حسك) .
٣ تاج العروس (٨/١٤١) ، (نفل) .
٤ تاج العروس (٢/٧٤) ، (عسج) .
٥ تاج العروس (٥/٥١٢) ، (مصع) .

الفصل الثاني والتسعون

الشجر

الشجر في تعريف علماء اللغة : ما قام من النبات على ساق ، أو ما سما بنفسه دق أو جل ، قاوم الشتاء ، أو عجز عنه[1] . وتطلق اللفظة على كل الشجر ، مهما كان أصله ، شجر زرعه إنسان بغرس ، أو بحبّ . أو شجر أنبتته الطبيعة. شجر الحضر ، أي الشجر الذي يعيش بين أهل المدر ، وشجر وحشي ، نبت على الجبال أو في البوادي ، دون أن تتعهده يد إنسان .

والشجر : شجر مثمر ، وشجر غير مثمر . ثم هو أهلي ، أي من غرس وزرع الانسان ، وبري أي من انبات وغرس الطبيعة . والعادة ان ثمر الشجر الأهلي أطيب وألذ من ثمر الشجر البري ، لاعتناء الانسان به ورعايته له. ويستعمل الشجر الذي لا ثمر له ، حطباً أو في أعمال البناء إن كان ذا خشب جيد ، وفي أعمال أخرى . وفي جبال (السراة) أنواع من أشجار الجبال . ومن الأشجار المثمرة النخيل وسائر أشجار الفواكه .

وقد وجد النخل في كل مكان من جزيرة العرب فيه ماء ولو كان قليلاً . وهو شجر صبور ، يصبر على العطش طويلاً ، ومن أجل ذلك صار مثل الجمل رمزاً للصحراء . ولم ينفر العربي من زراعة النخيل نفوره من زراعة أشجار الفواكه والخضر بوجه خاص . وقد تخصص بزراعة النخل المستقرون بالطبع .

---

١ تاج العروس (٣/٢٩١) ، (شجر) .

أما الأعراب ، فإنهم لاضطرارهم الى التنقل من مكان الى مكان، ولعدم استقرارهم في موضع واحد استقرار أهل الحضر ، لم يكن ميسوراً لهم غرسه . ثم انهم كانوا يزدرون الزراعة بجميع أنواعها ، وفي ضمنها زراعة النخيل ، وأية زراعة أخرى بلا استثناء .

والنخل ، هو شجر التمر ، وهو (ن خ ل) (نخل) في المسند كذلك[1] . وقد صورت النخلة ونحتت على بعض الصخور وعلى كثير من نصوص المسند ، وجعلت رمزاً للشمس . وكان السومريون يجعلونها رمزاً للشمس كذلك[2] . والظاهر أن تحمل النخلة لحرّ الشمس ، ووجودها في مناطق دافئة ، ومنظر رأسها الذي هو على شكل كرة مكونة من السعف ، الذي يشبه خيوط أشعة الشمس ، حمل الناس على تصور قيام صلة لها بالشمس ، فجعلوها رمزاً لها وعلامة عليها .

وتعني لفظة (انخل) (أنخل) ، (النخيل) وبساتين النخيل ومزارعها[3]. ومن (نخل) أخذت لفظة (منخل) بمعنى مزرع النخيل ، أي الموضع المزروع نخلاً . وقد عني العرب الجنوبيون بزراعة النخيل ، وكونوا بساتين واسعة منها . وكانت (نجران) من أهم المناطق المشهورة بزراعة النخيل[4] .

واذا استقام فسيل النخل وثبت في الأرض ، صبر على العطش ، وتحمل السكوت عن طلب الماء ، أمداً طويلاً ، لاعتماده على رطوبة الأرض ولامتصاص جذوره للمياه الجوفية . ويقال للنخلة التي لا تحتاج الى سقي : (الغامرة)[5] .

وقد ورد عن الرسول قوله : « خير المال سكة مأبورة » ، قيل أراد النخل المصطف ، والسكة أيضاً : السنة وهي الحديدة التي يشق بها الفدان الأرض ، ويقال لها أيضاً المان[6] . وقد اعتبر العرب النخل من الشجر المبارك الذي بورك فيه لما فيه من فوائد .

---

١ RW 155, Bu Jemen 1907, 286, C 1514, Burchard 4, Mordtmann und Mittwoch, Sab. Inschr., S. 234.

٢ Carl Rathjens, Sabaeica, S. 140.

٣ REP. EPIGR. 4626' VII, II, p. 278.

٤ Wissmann — Höfner, S. 9.

٥ تاج العروس (١٤٨/٣) ، (غمر) .

٦ الروض الانف (٢٠٧/٢) .

والنخيل ، هي مثل الجمال ثروة ورأس مال تدر على صاحبه ربحـاً وافراً ، ومن كان له نخل وافر كان غنياً ثرياً . وقد ربح أصحاب النخيل أرباحاً طائلة من اشتغالهم بزراعة النخيل . فالتمر هو مادة ضرورية يعيش عليها أكثر العرب ويتأدمون بها . يأكلونه بدلاً من اللحـم . وكان الأعراب يأتون أهل الريف ، بما عندهم من وبر ومن حاصل البوادي ، ليبادلوه بالتمر وبالدقيق وبما يحتاجون اليه في حياتهم البدوية من حاجات ضرورية . فكسب أصحاب النخيل أرباحاً طيبة من بيعهم التمور . ولا يوجد مكان في جزيرة العرب فيه ماء ، إلا والنخلة هي سيدة المزروعات فيه ، بل تكاد تكون النبات المتفرد بالزرع في أكثر الأمكنة ، لا يزاحمها نبات آخر من النبات .

ويقال للنخل المرتفع طولاً مجنون[1] ، وهو نخل يقل تمره ، وتقل فائدته لذلك. واذا غرس النخل سطراً على جدول أو غير جدول ، قيل : (نخل ركيب)[2].

و (الجباب) تلقيح النخل ، وزمن الجباب زمن التلقيح للنخل ، و (الأبر) تلقيح النخل أيضاً[3] . وكانوا يلقحون النخلة بدسّ شمراخ الفحال في وعاء الطلع[4] .

ويؤكل التمر رطباً ، ويؤكل يابساً جافاً . ويقال لنضيج البسر قبل ان يتمر (رطباً) وواحدته (رطبة)[5] . واذا كان التمر يابساً قيل له (القسب)[6] . ويستعمل (القسب) بعد انتهاء موسم التمر وذهابه ، وهو أكثر تمر الأعراب ، لسهولة المحافظة عليه من التلف ومن الفساد وتغير الطعم .

وقد لجأ الجاهليون الى طريقـة كبس التمر ، للمحافظة عليه زمناً طويلاً ، ولسهولة نقلـه والاتجار به من مكان الى مكان . ومن طرقهم في ذلك ، أنهم كانوا ينزعون نواة التمر ، ثم يكنزونه في قرب وظروف من الخوص ، ويقولون

---

١ تاج العروس (١٦٦/٩) ، (جنن) .
٢ تاج العروس (٢٧٩/١) ، (ركب) .
٣ تاج العروس (١٧١/١) ، (جبّ) .
٤ تاج العروس (٢١٧/٢) ، (لقح) .
٥ تاج العروس (٢٧١/١) ، (رطب) .
٦ تاج العروس (٤٣٨/١) ، (قسب) .

لذلك التقليف . والقلف التمر الذي نزع نواه وكنز في القرب وظروف الخوص[1]. ولا تزال طريقة التقليف معروفة ، ويقال لما يخصف من التمر في (الخصاف) ، تمر مخصوف[2] ، وللتمر المكبوس في الخصافة مع ظرفه (الخصافة) ، أما القربة التي يكبس في داخلها التمر ، فيقال لها مع تمرها المكبوس بها (الكيشة) في لغة أهل العراق في الوقت الحاضر . و (تمر كيشة) ، هو التمر الذي يستخرج من (الكيشة) .

وقد يحفظ التمر في (القراب) ، وعاء شبه جراب من أدم : « وفي كتابه لوائل بن حجر : لكل عشرة من السرايا ما يحمل القراب من التمر »[3] .

ويكنز التمر في وعـــاء من خوص يقال له : (جلة) و (الجلة)[4] ، وهو (القفعة) ، ويسمى بالعراق (القفة) ، و (جلة التمر) في لغة أهل اليمن[5].

وللنخل فوائـــد كثيرة جعلها بعضهم نحواً من (٣٦٠) فائدة ، مثل استعمال سعفه وخوصه وجذوعه وليفه في حاجات الإنسان . حيث يصنع منها مختلف الأشياء ، ويباع بعضها في الأسواق ، فتكون دخلاً لأصحابها . وصارت منها صناعة تعيّش عليها أناس ، ولا زالت الصناعات المستندة على استغلال النخلة وأجزائها وسعفها باقية ، وان أخذت في الأفول والاندثار ، بسبب منافسة الجديد للقديم ، وانصراف الناس عن الوسائل البدائية القديمة الى الجديد المريح الرخيص .

والنخل في كل موضع من جزيرة العرب فيه ماء . وهو أنواع وفصائل كثيرة. وقد اشتهرت (هجر) بكثرة تمرها ، وبزيادته عن حاجة أهلها ، فكان الأعراب يأتونها للامتيار ، ولشراء التمر منها . وفيها ضرب المثل: كمبضع تمر الى هجر ، و (كجالب التمر الى هجر) . وكانت تصدره الى البوادي والى اليمامة ، حين يقل تمرها . وقد عرفت بكثرة وبائها . قال (عمر) : « عجبت لتاجر هجر وراكب البحر » ، كأنه أراد لكثرة وبائها وخطر البحر ، فتاجرها وراكب البحر في الخطر سواء[6] .

---

١ تاج العروس (٦/٢٢٧) ، (قلف) .
٢ تاج العروس (٦/٨٨) ، (خصف) .
٣ تاج العروس (١/٤٢٣) ، (قرب) .
٤ اللسان (١٣/١٥٦) ، (جلل) ، تاج العروس (٧/٢٦٠) ، (جلل) .
٥ تاج العروس (٥/٤٧٨) ، (قفع) .
٦ تاج العروس (٣/٦١٤) ، (هجر) .

واشتهرت خيبر بكثرة تمورها كذلك ، حتى ضرب بها المثـــل في كثرته كما ضرب المثل بكثرة تمر هجر . قال (حسان بن ثابت) :

فأنا ومن يهدي القصائد نحونا كمستبضع تمراً الى أهل خيبرا

وقال (خارجة بن ضرار المري) :

فإنك واستبضاعك الشعر نحونا كمستبضع تمراً الى أهل خيبرا[1]

ولا تزال أرض خيبر تحتضن النخيل وتتعهدها بالعناية والرعاية ، وقد وصف (فلبي) موضعها في الوقت الحاضر ، وذكر ان الذي يعتني بالنخيل ، هم قوم من (العبيد) ، يقومون بفلاحة الأرض وبالعناية بالشجر ، مقابل الحصول على نصف الحاصل ، فإذا حل موسم القطاف ، أخذت الحكومة حصتها قبل اقتسام الحاصل، ثم قسّم الباقي بين الأعراب الذين يدعون ملكية الأرض وبين العبيد الذين يسهرون طيلة أيام السنة على رعاية الشجر وعلى الزرع ، والمفروض أن تكون القسمة قسمة عادلة ، قسمة مناصفة ، غير ان الأعراب يشتطون في القسمة فيأخذون لهم أكثر مما يأخذ العبيد[2] . وينطبق هذا الوصف على حالة قسمة الحاصل في المواضع الأخرى من جزيرة العرب في الجاهلية ، ولا سيما في العربية الجنوبية . فقـــد كان جباة الحكومة أول من يأخذ حصة الحكومة ، أو حصة الحاكم المهيمن على المكان ، ثم يأتي دور صاحب الأرض ، الذي يحاول الاستئثار بالحاصل حتى لا يترك للفلاح الذي يفلح ويتعب ويكدّ إلا أقل ما يمكن اعطاؤه له .

وبأرض خيبر جملة عيون ومسايل ماء ، لا زال الناس يزرعون عليها . وتوجد آثار نقوش وكتابات تشير الى سكن كان بهذا الموضع يعود الى أيام الجاهليـــة . وقد عثر (فلبي) على نقود قديمة ، ومن الممكن استصلاح أرض خيبر وتحويلها الى أرض زراعية منتجة .

و (تيماء) من المناطق الخصبة كذلك . وتشاهد آثارها ظاهرة للعيان . وقـــد حصل المنقبون على مجموعات أثرية منها ، في جملتها قطع من النقـــود تعود الى

---

١ تاج العروس (٥/٢٧٨) ، (بضع) .
٢ عبد الله فلبي ، أرض الانبياء (ص ٣٨) .

القرن الأخير قبل الميـــلاد [1] . وهناك آثار آبار ومسايل ماء تدل على أن الأرض كانت مخصبة مزروعة ، ومن أشهر آبارها بئر (خداج)[2] . يستقي منها الأعراب ويزرعون عليها في الوقت الحاضر[3] . وقد وجد (فلبي) صوراً وصخوراً منحوتة تمثل رأس الإلـه (صلم) إلـه ثمود وإلـه هذه المنطقة ، وأمامها أرض ممهدة كانت موضع تقديم القرابين لذلك الإلـه[4] .

وقد وجد (فلبي) وغيره من السياح ممن زار هذه الأرضين الواقعـة شمال (يثرب) ، آثار مستوطنات جاهلية كثيرة وآثار قنوات وآبار ومسايل ميـاه ، تدل على أنها كانت عامرة مزروعة ، وان في الامكان احياءها ، وان آفة اندثارها هو كثرة الغزو الذي وقع عليها وعدم وجود حكومات تدافع عنها وتحميها مـن غزو الأعراب ، الذين كانوا وباءً بالنسبة للحضر ، ينهبون ما يجدونه أمـامهم ويحرقون الزرع ثم يهربون .

وعرفت اليمامة بتمورها أيضاً ، وهو أنواع عديدة ، وكـان الأعراب يأتونها لشراء التمر منها ، وقد عرف الذين يردون اليمامة لامتيار التمر بـ (السواقط) ، و (السقاط) ما يحملونه من تمر[5] .

وعرفت يثرب وما حولها وما وقع أعلاها الى بلاد الشأم بكثرة نخلها ، وهو نخل زرع سككاً في بساتين على طريقة الأنبـاط في أمصارهم ، لا يخافون عليها كيد كائد . تتخلله السواني والسواقي لتسقيه ، فيثرب حوائط وآطام ، عاش أهلها على الزرع والغرس والجلاد[6] . وقد أشير الى كثرة نخل يثرب في شعر ينسب الى الشاعر (امرىء القيس) ، فنعتها بـ (جنة يثرب) :

علون بأنطاكية فوق عقمة كجرمة نخل أو كجنة يثرب[7]

---

١ أرض الانبياء (١١١) .
٢ أرض الانبياء (١١٥) .
٣ أرض الانبياء (١١٦) .
٤ المصدر نفسه (ص ١٢١) .
٥ تاج العروس (١٥٦/٥) ، (سقط) .
٦ الروض الانف (٢٠٧/٢) ، تاج العروس (١٢٣/٥) ، (حوّط) ، جامع الاصول (١٧٧/١١) .
٧ تاج العروس (٢٢٤/٨) ، (جرم) .

وقد افتخر (كعب بن مالك) يوم الخندق على قريش بأن قومه غرسوا النخل حدائق تسقى بالنضح من آبار ثقبت من عهد (عاد) أي من آبار قديمة جداً، فهي تسقي النخيل المغروسة عليهـــا، ولهم رواكد فيها (الغاب) و (البردى) يزخر فيها نهر (المرار)، ولهم الزرع الذي يتباهى بسنبله الجميـــل، لا سيما إذا أصابته أشعة الشمس، لم يجعلوا تجارتهم اشتراء الحمير لأرض دوس أو مراد، بل أثاروا الأرض وحرثوها وغرسوها عـــلى نحو ما تفعل النبط في أمصارها، لا يخافون عليها كيد كائد، دلالة على عز أهل يثرب ومنعتهم وأنهم لم يغلبوا على بلادهم من قديم الدهر كما أجليت أكثر الأعاريب عن محالها وأزعجها الخوف عن مواطنها[1].

ومن أنواع التمور: (الصرفان)[2]، و (البرني)، تمر أصفر مدور، من أجود التمور. وقيل: ضرب من التمر أحمر مشرب بصفرة كثير اللحـــاء عذب الحلاوة[3]. و (التعضوض) ضرب من التمر، والعمر نخل السكر، وهو معروف عند أهل البحرين[4]. و (البحون)، ضرب من التمر[5]، والصفرى، وقد نعت بأنه سيد التمور، ثم (السرى)، ثم (اللصف)، ثم (الفحاحيل)، ثم (المجتنى)، ثم (الجعادى)، ثم (الشماريخ)، ثم (المشمرخ)، ثم (البياض)، ثم (السواد) وهما ألوان كثيرة[6].

الكرم:

والكرم شجر العنب، والعنب، ثم الكرم. وقد زرع في مواضع كثيرة من جزيرة العرب في البساتين وفي الحدائق. وفي الأماكن التي توفرت فيها المياه والجو الطيب المناسب لزراعته، مثل اليمن، التي اشتهرت به، و (الطائف) وهو

---

١ سيرة ابن هشام (٢/٢٠٧ وما بعدها)، (حاشية على الروض الانف) الـــروض الانف (٢/٢٠٧).
٢ تاج العروس (٦/١٦٤)، (صرف).
٣ تاج العروس (٩/١٣٧)، (برن).
٤ تاج العروس (٣/٤٢٠)، (عمر):
٥ اللسان (١٦/١٩٠ وما بعدها)، (بحن)، تاج العروس (٩/١٣٥)، (البحون).
٦ الصفة (١٦١).

أجناس عديدة، بعض أصيل أي من نابت جزيرة العرب ومن تربتها، وبعض مستورد استورد من بلاد الشأم بصورة خاصة ومن أماكن أخرى ، فغرس في بلاد العرب ونبت نباتاً حسناً ، وأجاد اجادة طيبة، جعل زرّاع الكروم يكثرونه من زراعته .

والعنب ، هو (عنبم) ، أي (عنب) في لغة المسند كذلك[1] .

وإذا يبس العنب دعي (زبيباً) . ويعرف الزبيب بـ (فصمم) ، أي (فصم) (فصيم) في اللهجة الحميرية . وقد وردت هذه اللفظة في نص أبرهة ، بمناسبة توزيع أبرهة الزبيب على العمال الذين ساهموا في بناء سد مأرب[2] .

وقد كان أهل اليمن كما يظهر من نصوص المسند يكثرون من زراعة الأعناب ويربحون من زراعتها كثيراً ، بدليل ورود كثير من النصوص الزراعية ، وفيها: أن أصحابها قد غرسوا أعناباً في المناطق الفلانية والفلانية ، أو ورثوا المزرعة الفلانية وفيها أعناب كثيرة . وبدليل حفر صور أغصان العنب وعناقيد العنب في الأحجار وابرازها على الألواح المصنوعة من الجبس ، أو حفرها على الأخشاب للزينة والزخرفة ، وتفننهم في ذلك ، حتى صارت هذه الزخرفة من مميزات الفن اليماني. وما كانوا يفعلون ذلك لو لم يكن للأعناب وجود في اليمن ، ولو لم تكن زراعته منتشرة كثيراً في تلك البلاد .

ومن أنواع العنب : العنب (الجرشي) ، وهو عنب طيب ، يقول علماء اللغة : هو أطيب العنب كله ، وهو أبيض الى الخضرة ، رقيق صغير الحبة ، وهو أسرع العنب إدراكاً ، عناقيده طويلة ، ينسب إلى جرش ، مخلاف باليمن[3]. والعنب (الكلافي) ، وهو نوع من أنواع أعناب أرض العرب ، وهو عنب أبيض فيه خضرة ، وزبيبه أدهم أكلف ، ولذلك سمي : الكلافي . وقيل : هو منسوب الى الكلاف بلد بشق اليمن[4] . والعنب التربي نسبة الى (تربة) ، والعنب التبوكيّ نسبة الى تبوك . و (الرمادي) ، ضرب من العنب بالطائف أسود

---

١ Halevy 360, 362.

٢ راجع السطر ١٢٨ من نص أبرهة ، جواد علي ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، الجزء الاول من المجلد الرابع (ص ٢١٨) .

٣ تاج العروس (٤/٢٨٧ وما بعدها) ، (جرش) .

٤ تاج العروس (٦/٢٣٨) ، (كلف) .

أغبر[1] . و (الغربيب) ، ضرب من العنب بالطائف شديد السواد ، وهو من أجود العنب وأرقه وأشده سواداً[2] . و (الحمنان) ، عنب طائفي ، أسود الى الحمرة صغير الحب[3] . والدوالي نوع من الكروم[4] .

و (العنجد) ، الزبيب ، أو ضرب منه ، أو الأسود منه ، أو الرديء منه[5]. و (الفرصد) ، عجم العنب ، أو عجم الزبيب[6] .

وقد اشتهرت قرية (ثافت)-باليمن بكثرة كرومها ، ويقال لها (أثافت) و (اثافة) أيضاً . وقد عرفت بخمرها المصنوع من هذه الكروم . وكان الأعشى كثيراً ما يتجر فيها ، وكان له معصار للخمر يعصر فيها ما جزل له أهل أثافت من أعنابهم[7] .

ويقال (الأكار) لمن يشتغل في بستان عنب . ويقال للأكار (الجوار)[8] . والأكار الزراع والحرّاث[9] .

والتين هو من الأشجار المعروفة في الحجاز وفي اليمن وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب . وقد أشير اليه في القرآن الكريم[10] . وهو كثير في أرض العرب، وأجناسه كثيرة ، برية ، وريفية ، وسهلية ، وجبلية . ويكون أخضر اللون ، أو أصفر،وأحمر وأسود . وهو كثير بالسراة مباح،يؤكل رطباً ويزبب ويدخر[11] . وذكر بعض علماء اللغة انه (البلس) ، وقال بعض آخر : البلس : ثمر كالتين يكثر باليمن ، وقيل هو التين نفسه اذا أدرك[12] . ومنه (الطبار) ، قيل هو تين كبير من أكبر أنواع التين ، كميت أنى تشقق ، واذا أكل قشر لغلظ لحائه ،

---

١ المخصص (١١/٢٢) .
٢ تاج العروس (١/٤١٠) ، (غرب) .
٣ تاج العروس (٩/١٨٣) ، (الحمن) .
٤ اللسان (١١/٢٥٤) .
٥ تاج العروس (٢/٤٣٣) ، (عنجد) .
٦ تاج العروس (٢/٤٥١) ، (الفرصد) .
٧ تاج العروس (١/٥٣٤) ، (أثث) .
٨ تاج العروس (٣/١١٣) ، (جار) .
٩ تاج العروس (٣/١٧) ، (أكر) .
١٠ سورة التين .
١١ تاج العروس (٩/١٥٤) ، (تين) .
١٢ تاج العروس (٤/١١١) ، (بلس) .

فيخرج أبيض ، ويزبب . وذكر بعض علماء اللغة ، انـــه من شجر الضرف ، وهو على صورة التين ، إلا انـه أدق[1] . و (الضرف) ، شجر التين ، يقال لثمره البلس . أو هو من شجر يشبه الأتأب في عظمه وورقه ، إلا ان سوقه غير مثل سوق التين ، وله تين . وقيل : له جنى أبيض مدوّر مفلطح كتين الحماط الصغار ، مُرّ يضرس يأكله الناس والطير والقرود[2] .

والرمّان من الفواكه المعروفـــة في الحجاز وفي اليمن ، وقد ذكر في القرآن الكريم[3] . ومنه أنواع برّية ، ذكر بعض علماء اللغة منها (المظ) . وهو ينبت في جبال السراة ، وفي بقية الجبال . وذكر بعض آخر ، أنه شجر الرمّـــان[4] . و (الجشب) قشور الرمان عند أهل اليمن[5] .

والتفّاح بأرض العرب كثير[6] . والموز معروف عندهم ، ولا سيما في العربية الجنوبية وفي التهائم[7] . و (الخوخ) معروف عند العرب[8] ، ويقال له (الفرسك)[9] .

و (الفرصاد) ، التوت أو حملـــه أو أحمره . و (التـــوت) من الألفاظ المعربة[10] . ويربون على ورقه ديدان الحرير .

و (الزيتون) ، شجر معروف في بلاد العرب ، استخرجوا منه زيت الزيتون . وقد ذكر في القرآن الكريم[11] .

و (السدر) ، من الأشجار المعروفة في كل مكان من جزيرة العرب . ورد ذكره في القرآن . واستعمل ورقه في مقام الصابون ، كما استفيـد من ثمره ومـن أغصانه وأخشابه . وهو يتحمل الصبر على العطش لعمق جذوره في باطن الأرض. وبذلك لاءم جوّ جزيرة العرب هذا النوع من الشجر ، وما زال الناس يزرعونه في كثير من المواضع . وقد استعمل مظلة يجلسون تحتها في أيام الحرّ الشديد ومجلساً

---

١ تاج العروس (٣/٣٥٥) ، (طبر) .
٢ تاج العروس (٦/١٧١) ، (الضرافة) .
٣ سورة الانعام ، الآية ٩٩ ، ١٤١ .
٤ تاج العروس (٥/٢٦٤) ، (مظظ) .
٥ المخصص (١١/١٤٠) ، تاج العروس (١/١٨٣) ، (جشب) .
٦ تاج العروس (٢/١٢٨) ، (التفاح) .
٧ تاج العروس (٤/٨٣) ، (موز) .
٨ تاج العروس (٢/٢٥٦) ، (الخوخة) .
٩ تاج العروس (٧/١٦٨) ، (الفرسك) .
١٠ تاج العروس (٢/٤٥١) ، (الفرصد) .
١١ سورة التين .

يجلسون فيه لتمضية الوقت والتسلي والترويح عن النفس .

والسدر من العضاه ، هو لونان ، فمنه عبري ومنه ضال . فأما العبري ، فما لا شوك فيه إلا ما لا يضير . وأما الضال ، فذو شوك . وذكر أهل الأخبار : أن أجود نبق يعلم بأرض العرب . نبق هجر . وهو أشد نبق حلاوة وأطيبه رائحة. يفوح فم آكله وثياب ملابسه كما يفوح العطر[1] .

الجوز :

والجوز معروف بأرض العرب ، ويربى باليمن . وبالسروات شجر جوز لا يربى ؛ وخشبه موصوف بالصلابة والقوة،وينبت الجوز في الجبال والمرتفعات. وقد أشير الى صلابة وقوة خشب الجوز في شعر للأعشى . وقد زعم ان سفينة (نوح) كانت من خشب الجوز[2] . والجوز نوعان : جوز يربى ، أي يزرعه الانسان بنفسه ويرعاه ، وجوز وحشي ، نبت على الطبيعة ، دون ان تزرعه يد انسان . وهو أنواع عديدة ، لها أسماء ترد في كتب اللغة .

اللوز :

واللوز ثمر معروف في بلاد العرب ، ومن أسمائه القمروص . وهو على نوعين: حلو ومرّ . وقد استعملا في المعالجة : في معالجة أمراض عديدة ، من باطنية وجلدية . واستعمل الحلو منه في الطعام ، وفي الحشو . والثمر الملوّز ، هو الثمر المحشو به . وذلك ان ينزع منه نواه ، ويحشى فيه اللوز[3] . واللوز ، صنف

---

١ تاج العروس (٣/٢٦١) ، (سدر) .

٢ قال الجعدي :

كأن مقط شرا سيفه ... الى طرف القنب فالمنقب
لطحن بترس شديد الصفا ... ق من خشب الجوز لم يثقب

وقال في وصف سفينة نوح :

يرفع بالقار والحديد من الجوز طوالا جذوعها عمما

تاج العروس (٤/٢٠) ، (جوز) .

٣ تاج العروس (٤/٧٩) ، (اللوز) .

من المزج ، والمزج ما لم يوصل الى أكله إلا بكسر،وقيل هو ما دق من المزج. أو المرّ من اللوز[1] .

الثمر :

والثمر ، حمل الشجر[2] . وهو (ثمـــر) في نصوص المسند كذلك ، ويجمع عندهم على (اثمر) ، أي (أثمار) . و (الفاكهة) الثمر كله[3] . وفي القرآن الكريم : « وفاكهة وأباً » . قال العلماء الأب الكلأ ، وما تأكله الأنعام ، والمرعى كله . والفاكهة ما أكله الناس . فالأب من المرعى للدواب كالفاكهة للانسان[4] .

ويحتاج الشجر المثمر الى رعاية وعناية وحماية من أذى الطبيعة ومن أذى الإنسان والحيوان . فعلى صاحبه حمايته من الشمس المحرقة ، ومن البرد الشديد ومن الأهوية والعواصف ، ومن الحشرات التي قد تصيبه فتأتي عليه ، ومن الأمراض والآفات الزراعية ، ومن تطاول إنسان غريب عنه عليه ، بقطعه أو بسرقة ثمره، ثم حمايته من أذى الحيوان ، بأكله أو بأكل ورقـــه أو ثمره ، وكسر أغصانه ، وأمثال ذلك مما يلحقه من أذى بالشجر وبثمره .

ولحماية الشجر ، أحاطوا الأرض المشجرة بحائط مرتفع قدر الإمكان ، ليمنع الانسان أو الحيوان من دخولها ، ومن الاعتداء على شجرها أو ثمرها ، ويقـــال لها (الحائط) . و (الحائط) البستان . وقـــد أطلقت اللفظة على البستان من النخل في الغالب . وكانت (يثرب) ، ذات (حوائط) . وقد أشير اليهـــا في الحديث : ورد : « على أهل الحوائط حفظها بالنهار . يعني البساتين »[5] .

وقد عني أهل الجاهلية بتحسين وبتنويع وبتطعيم أشجارهم المثمرة ، وكان منهم مثل أهل الطائف واليمن من استورد الشجر المثمر الجيد من الخارج . من بـــلاد الشأم ومن افريقية والهند ومن المواضع التي اشتهرت بصنف جيد من أصناف الشجر من جزيرة العرب ، وبذلك نوّعوا ثمرهم وحسنوا أصناف شجرهم ، ويظهر أثر

---

١ تاج العروس (٢/١٠٠) ، (مزج) ، (٤/٧٩) ، (اللوز) .
٢ تاج العروس (٣/٧٧) ، (ثمر) .
٣ تاج العروس (٩/٤٠٢) ، (فكه) .
٤ تاج العروس (١/١٤٢) ، (أب) .
٥ تاج العروس (٥/١٢٣) ، (حوط) .

استيراد الشجر من خارج جزيرة العرب ، من الأسماء الأعجمية التي عرفت بهـا في الجاهلية ، والتي تتحدث عن المكان الذي استوردت منه .

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء عدد من الأشجار نبتت ونمت نمواً طبيعياً ، منها ما نبت على الجبال والمرتفعات ، ومنها ما نبت في البوادي وفي التهـائم . فهي من الأشجار الوحشية التي لم تزرعها يد إنسان . بعض منهـا مثمر ، يستفاد من ثمره ، وبعض منها مثمر ، غير أنه لا يمكن الاستفادة من ثمره ، ولا ينتفع به إنسان أو حيوان . وبعض منه عقيم ، غير مثمر .

ومن الأشجار المعروفة : التين الوحشي ، أو التين البري . ويكثر وجوده في الجبال والمرتفعات . وقد عرفت جبال السراة بكثرة وجود هذا التين بها ،والزيتون الوحشي (العتم) . ذكر علماء اللغة ان (العتم) شجر الزيتون البري ، وقيل هو ما ينبت منه في الجبال ، ويوجد شجر يشبهه ينبت بالسراة[1] . ويستخرج الأهلون اليوم منه دهناً قاتم السواد يسمى (القطران) ، لطلاء الأبواب والنوافذ في أرض (شمران) المحاذية للسراة في المملكة العربية السعوديـة[2] . واتخذت منه الأسوكة . ورد : الأسوكة ثلاثة : أراك ، فإن لم يكن فعتم أو بطم[3] .

والحماط ، شجر شبيه بالتين ، خشبه وجناه وريحه ، إلا ان جناه هو أصغر وأشد حمرة من التين ، ومنابته في أجواف الجبـال ، وقد يستوقد بحطبه ويتخذ خشبه لما ينتفع به الناس ، ويبنون عليه البيوت والخيام . وقيل هو في مثل نبات التين،غير انه أصغر ورقاً وله تين كثير صغار من كل لون أسود وأملح وأصفر، وهو شديد الحلاوة ، ويحرق الفم اذا كان رطباً ، فإذا جفّ ذهب ذلك عنه ، وهو يدّخر . وله اذا جف متانة وعلوكة ، وهو أحب شجر الى الحيات ، تألفه كثيراً ، ولذلك قيل : شيطان حماط . وهو شجر التين الجبلي ، أو هو الأسود الصغير المستدير منه ، أو هو شجر (الجميز)[4] . و (الجميز) التين الذكر ، يكون بالغور ، وهو حلو ، وهو الأصفر منه والأسود يدمي الفم[5] .

---

١ تاج العروس (٣٨٨/٨) ، (عتم) .
٢ جريدة البلاد السعودية (العدد ١٦٤ ، السنـة الاولى ، ١٢ أغسطس ١٩٥٩) ، « الزراعة ومشاكلها في شمران » .
٣ تاج العروس (٣٨٨/٨) ، (عتم) .
٤ تاج العروس (١٢١/٥) ، (حمط) .
٥ تاج العروس (١٨/٤) ، (جمز) ، عرام (٤١٥) .

والتألب ، وينبت بجبال اليمن ، وله عناقيد كعناقيد البطم ، فإذا أدرك وجف اعتصر للمصابيح ، وهو أجود لها من الزيت . وتقع السرفة في التألبة فتعريها من ورقها . ويتخذ من عيدان التألب القسي[1] . و (الألب) شجرة شاكة كالاترج ، ومنابتها ذرى الجبال ، وهي سمّ ، يؤخذ خضبها وأطراف أفنانها فيدق رطباً ويقشب به اللحم ويطرح للسباع كلها ، فلا يلبثها اذا أكلته ، فإن هي شمّته ولم تأكله عميت عنه[2] .

و (الشوحط) ، ضرب من شجر الجبال ، تتخذ منه القسيّ . ويكثر وجوده في جبال السراة ، فإنها هي التي تنبته . وله ثمرة مثل العنبة الطويلة ، إلاّ أن طرفها أدق . وهي لينة تؤكل[3] . و (النبع) ، شجر من أشجار الجبال ، أصفر العود رزينه ثقيله في اليد ، وإذا تقادم احمر . تتخذ منه القسيّ . وكل القسيّ إذا ضمّت الى قوس النبع كرمتها قوس النبع ، لأنها أجمع القسي للارز واللين ، ولا يكون العود كريماً ، حتى يكون كذلك ، أي شديداً ليناً . وتتخذ السهام من أغصانه . وله ذكر في شعر الشعراء الجاهليين[4] .

ومن أشجار الجبال : (الرنف) ، و (الحثيل) ، و (البان) ، و(الظيان). و (الرنف) ، شجر ينضم ورقه الى قضبانه إذا جاء الليل وينتشر بالنهار . وفي مقتل (تأبط شراً) ، أن الذي رماه لاذ منه برنفة ، فلم يزل (تأبط شراً) بجدمها بالسيف حتى وصل اليه فقتله ، ثم مات من رميته[5] . و (الحُثَيْل) ، شجر جبلي يشبه الشوحط ، ينبت مع النبع وأشباهه[6] . و (البان) ، شجر ، ولحبّ ثمره دهن طيب . وتعالج بحبه جملة أمراض جلدية وداخلية . وهو يطول

---

١ المخصص (١٤٢/١١) ، عرام (٤٠٧ ، رقم ١٠) .
٢ تاج العروس (١٤٩/١) ، (ألب) .
٣ قال الاعشى :
وجيـــادا كأنهـــا قضـــب الشو حـط يحملـن شكـة الابطـال
تاج العروس (١٦٥/٥) ، (شحط) ، عرام ، أسماء جبال تهامة (ص ٣٩٦) .
٤ تاج العروس (٥١٨/٥) ، (نبع) .
٥ تاج العروس (١٢٢/٦) ، (أرنف) ، عرام ، أسماء جبال تهامة (ص ٣٩٦) :
٦ قال أوس بن حجر :
تعلمهـا في غيلهـا وهي حظوة بـواد بـه نبـع طـوال وحثيل
تاج العروس (٢٧٣/٧) ، (حثل) .

باستواء مثل نبات الأثل ، وورقه له هدب كهدب الأثل ، وليس لخشبه صلابة. وعدّه بعض العلماء من العضاه ، وله ثمرة تشبه قرون اللوبياء ، إلاّ أن خضرتها شديدة . فهو من النبات الذي تطيب به[1] . و (الظيان) ، ياسمين البرّ ، وهو نبت يشبه النسرين ، وضرب من اللبلاب . وقد دبغ بورقه ، ويلتف بعضه على بعض[2] . وهو على هذا التعريف ، ليس من الأشجار التي تعطي الخشب . وبعض ما ذكرته ينبت في الهضاب والأودية[3] . وذكر أن للظيان ، ساق غليظة ، وهو شاك ، ويحتطب . وله سنفة كسنفة العشرق . والسنفة: ما تدلى من الثمر وخرج عن أغصانه . والعشرق : ورق يشبه الحندقوقا منتنة الرائحة[4] .

والقرظ ، شجر عظام لها سوق غلاظ ، أمثال شجر الجوز وورقه أصغر من ورق التفاح ، وله حب يوضع في الموازين . وهو ينبت في القيعان ، واحدته قرظة . ويستعمل حبه للتداوي . ويدبغ به ، ويستخرج صبغ منه ، يصبغ به الأديم . والقرظ من أشهر مواد الدباغة وصبغ الجلود عند الجاهليين[5] .

و (الضهياء) ، وهو شجر يشبه العنّاب تأكله الإبل والغنم[6] . و (العرعر) شجر يعمل به القطران ، وهو شجر عظيم جبلي لا يزال أخضر ، يسميه البعض (السرو) ، وقيل : الساسم ، وقيل الشيزى ، وله ثمر أمثال النبق ، يبدو خضر ، ثم يبيض ، ثم يسود حتى يكون كالحمم ، ويحلو فيؤكل واحدته عرعرة[7] . و (البشام) ، شجر عطر الرائحة طيب الطعم ، يدق ورقه ويخلط بالحنّاء يسود الشعر . وقيل : هو شجر ذو ساق وأفنان وورق صغار، أكبر من ورق الصعتر ، ولا ثمر له ، واذا قطعت ورقته أو قصف غصنه هريق منه لبن

---

١ تاج العروس (١٤٧/٩) ، (البون) .
٢ تاج العروس (٢٧٣/٩) ، (ظن) ، (٢٣٣/١٠) ، (ظنى) .
٣ قال أوس بن حجر :
بواد به نبع طوال وحنيل وبان وظيان ورنف وشوحط
ألف أثيث ناعم متغيل
(آنف) تاج العروس (١٢٢/٦) ، (آرنف) .
٤ عرام ، أسماء جبال تهامة (٣٩٩) .
٥ تاج العروس (٢٥٨/٥) ، (قرظ) ، عرام ، أسماء جبال تهامة (٣٩٦) .
٦ عرام (٣٩٦ ، ٤٠٣ ، ٤١١) ، تاج العروس (٢٢٢/١٠) ، (ضهي) .
٧ تاج العروس (٢٩٢/٣) ، (عرر) .

أبيض . قيل : ويستاك بقضبه . وفي حديث (عتبة بن غزوان) ، ما لنا طعام إلا ورق البشام[1] .

و (الدلب) ، شجر (الصنّار) ، معرب (جنار) الفارسية ، واحدته (دلبة) ، شجر عظيم ، ورقه يشبه الخروع إلا أنه أصغر منه ، ومذاقه مرّ عصف ، وله نوّار صغار . يتخذ منه النواقيس . تقول العرب : هو من أهل الدربة بمعالجة الدلبة ، أي هو نصراني[2] . و (التنضب) ، شجر ضخام ليس له ورق ، وهو يسوق ويخرج له خشب ضخام وأفنان كثيرة ، وإنما ورقه قضبان تأكله الإبل والغنم . وقال بعض العلماء : التنضب شجر له شوك قصار ، وليس من شجر الشواهق ، تألفه الحرابى . وذكر بعض آخر ، أن التنضبة شجرة ضخمة يقطع منها العمد للأخبية ، وتتخذ منها السهام . وذكر بعض آخر : التنضب شجر حجازي ، وليس بنجد منه شيء إلا جزعة واحدة بطرف (ذقان) عند التقيدة ، وهو ينبت ضخماً على هيئة السرح ، وعيدانه بيض ضخمة ، وهو محتظر وورقه منقبض ولا تراه إلا كأنه يابس مغبرّ وان كان نابتاً . وشوكه كشوك العوسج ، وله جنى مثل العنب الصغار يؤكل . وهو أحيمر . ودخان التنضب أبيض مثل لون الغبار ، ولذلك شبهت الشعراء الغبار به . وقد قطعت منه العصي الجياد[3] . وذكر أن للتنضب ثمراً يقال له (الهمقع) يشبه المشمش يؤكل طيباً[4] .

والأيدع ، شجر يشبه الدلب ، إلا أن أغصانه أشد تقارباً من أغصان الدلب ، له وردة حمراء ، وليس له ثمر ، نهى الرسول عن كسر شيء من أغصانه وعن السدر والتنضب والشبهان ، لأن هؤلاء جميعاً ذوات ظلال يسكن الناس فيها من البرد والحر[5] .

---

١ تاج العروس (٨/٢٠٣) ، (بشم) .
٢ تاج (١/٢٤٧) ، (دلب) .
٣ قال عقيل بن علقمة المري :
وهل أشهدن خيلا كأن غبارها بأسفل علكد دواخن تنضب
وقال النابغة الجعدي :
كأن الدخان الذي غادرت ضحيا دواخن من تنضب
تاج العروس (١/٤٨٩) ، (نضب) .
٤ عرام (٤٠) ، تاج العروس (٥/٥٦١) ، (همقع) .
٥ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٠٠) .

والشبهان والشبه ، نبت كالسمر شائك له ورد لطيف أحمر،وحب كالشهدانج يشرب للدواء ، وترياق لنهش الهوام ، نافع للسعال ، ويفتت الحصى ويعقل البطن . وذكر انه شجر من العضاه[1] . فهو من النباتات التي تطبب بها . و (السرح) شجر كبير عظيم طويل لا يُرعى وانما يستظل فيه وينبت بنجد في السهل والغائط ، ولا ينبت في السهل والغلظ ، ولا ينبت في رمل ولا جبل ، ولا يأكله المال إلا قليلاً . له ثمر أصفر ، أو هو كل شجر لا شوك فيه . وقد ورد ذكره في الشعر الجاهلي[2] .

و (السلم) ، شجر من العضاه ، وورقه القرظ الذي يدبغ به الأديم . وهو سلب العيدان طولاً شبه القضبان ، وليس له خشب ، وإن عظم ، وله شوك دقاق طوال حاد ، وله برمة صفراء فيها حبة خضراء طيبة الريح وفيها شيء من مرارة ، وتجد بها الظباء وجداً شديداً[3] . والسماق في جملة الشجر الذي ينبت في جزيرة العرب ، ذكر بعض العلماء انه يسمى (الظمخ) في الحجاز ، و (العرتن) في نجد . وهو من شجر القفاف والجبال. وله ثمر حامض عناقيد فيها حب صغار. وهو من النبات الذي يداوى به ، في جملة أمراض[4] . وورد ان (الظمخ) ، هو شجر السماق ، ويقال فيه الظنخ ، والزمخ ، والطنخ . وان الظمخ ، شجرة على صورة الدلب ، يقطع منها خشب القصارين التي تدفن ، وهي العرن ، وهي أيضاً شجرة التين في لغة طيء[5] . وذكر ان (العرنة) عروق (العرنتن) ، و (العرنة) خشب الظمخ ، واحدتها ظمخة . شجرة على صورة الدلب ، يقطع منها خشب القصارين التي تدفن . وقيل هو شجر يشبه العوسج ؛ إلا انه أضخم منه ، وهو أثيث الفرع وليس له سوق طوال . وسقاء معرون دبغ به[6] .

و (الخزم) . شجر كالدوم سواء ، وله أفنان وبسر صغار يسود إذا أينع مر عفص لا يأكله الناس . تتخذ من لحائه الحبال . والخزام بائعه[7] . وذكر

---

١ تاج العروس (٩/٣٩٣) ، (أشبه) .
٢ تاج العروس (٢/١٦١) ، (سرح) .
٣ تاج العروس (٨/٣٣٧) ، (سلم) .
٤ عرام (٤٠٢ وحاشية رقم ٢) ، تاج العروس (٦/٣٨٥) ، (سحق) .
٥ تاج العروس (٢/٢٧٠) ، (الظمخ) .
٦ تاج العروس (٩/٢٧٧) ، (عرتن) .
٧ تاج العروس (٨/٢٧٤) ، (خزم) ، عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٠٢) .

أنه شجر يشبه ورقه ورق السـرديّ ، وله ساق كساق النخلة يتخذ منه الأرشية الجياد[1] . وأما (الدوم) ، فشجر ثمره (المقل) . تعبل شجرته وتسمو ولهـا خوص كخوص النخل ، وتخرج أفناء كأفناء النخلة[2] . وذكر أن (المقل) صمغ شجرة شائكة كشجرة اللبان ، وهو الذي يسمى (الكور) ، أحمر طيب الرائحة. ينبت بعمان، في جبل يدعى (قهوان) مطلّ على البحر . وهو من الأدوية المعروفة عند العرب . و (المقل المكي) ، ثمر شجر الدوم ، الشبيه بالنخلة في حالاتهـا ينضج ويؤكل ، ويستعملونه لمعالجـة المعدة . ويتدخن اليهود بالمقل ، الذي هو الكندر ، وحبّه يجعل في الدواء[3] .

و (الشقب) ، شجر ينبت كنبتة الرمّان وورقه كورق السدر ، وجناه كالنبق وفيه نوى . وذكر أنـه شجر من شجر الجبال ينبت في جبال اليمن على أفواه الأودية ، له أساريع كالشطب التي في السيف ، يتخذ منها القسي[4] . و(الإثرار) وله ورق يشبه ورق الصعتر وشوك نحو شوك الرمان ، ويقدح ناره إذا كان يابساً فيقتدح سريعاً ، وقد يتخذ من (الإثرار) القطران ، كما يتخذ من العرعر[5] .

و (المرخ) من شجر النار عند العرب ، أي من الأشجار التي تورى بسرعة وتعطي ناراً طيبة ، سريع الورى كثيره ، حتى قالوا : في كـل شجرة نار ، واستمجد المرخ والعفار . وقيل هو من العضاه ، وهو ينفرش ويطـول في السماء حتى يستظل فيـه ، وليس له ورق ولا شوك ، وعيدانه سلبة قضبان دقاق ، وينبت في شعب وفي خشب ، ومنه يكون الزناد الذي يقتدح به . ذكروا أنـه ليس في الشجر كله أورى ناراً من المرخ ، وربما كان المرخ مجتمعاً ملتفاً وهبت الريح وجاء بعضه إلى بعض فأورى فأحرق الوادي . ولم ير ذلك في سائر الشجر[6].

---

١ عرام (ص ٤٠٢ وحاشية رقم ٢) .
٢ تاج العروس (٢٩٧/٨) ، (دوم) .
٣ تاج العروس (١١٨/٨) ، (مقل) .
٤ تاج العروس (٣٢٣/١) ، (شقب) ، عرام (٤٠٣) .
٥ عرام (٤٠٢ ، ٤٠٨) .
٦ قال الاعشى :

زنـادك خـير زنـاد الملـو ك خالـط فيهـن مـرخ عفارا
ولوبـت تقـدح في ظلمـة حصـاة بنبـع لاوديت نـارا

تاج العروس (٢٧٨/٢) ، (مرخ) .

و (العفار) ، من شجر النار كذلك . وهو شجر يتخذ منه الزناد ، يسوى من أغصانه فيقتدح به . شبيه بشجرة الغبيراء الصغيرة ، وهو شجر خوار . وقيل في قوله تعالى : « أفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها » إنها المرخ والعفار . وهما شجرتان فيهما نار ليس في غيرهما من الشجر[1] .

و (الأراك) من الحمض ، وقيل الحمض نفسه ، له حمل كحمل عناقيد العنب ، يستاك به ، أي بفروعه . وهو أفضل ما استيك بفروعه ، وأطيب ما رعته الماشية رائحة لبن . تتخذ المساويك من الفروع ومن العروق ، وأجوده عند الناس العروق[2] . ويقال للغصن من ثمر الأراك (المرد) ، والنضيج منه (الكباث) ، و (البرير) ثمر الأراك أيضاً[3] . و (الطلح) ، شجر عظيم حجازي جناته كجنات السمرة ؛ وهو شوك أحجن ومنابته بطون الأودية ، وهو أعظم العضاه شوكاً وأجودها صمغاً . وذكر بعض علماء اللغة ، ان الطلح شجرة طويلة لها ظل يستظل بها الناس والإبل وورقها قليل ولها أغصان طوال عظام ، ولها شوك كثير مثل سلاء النخل ، ولها ساق عظيمة لا تلتقي عليها يدا الرجل ، وهي أم غيلان ، تنبت في الجبل ، الواحدة طلحة . وذكر بعض آخر ، ان الطلح أعظم العضاه وأكثره ورقاً ، وأشده خضرة ، وله أشواك ضخام طوال وشوكه من أقل الشوك أذى ، وليس لشوكته حرارة في الرجل ، وله برمة طيبة ، وليس في العضاه أكثر صمغاً منه ولا أضخم ولا ينبت إلا في أرض غليظة شديدة خصبة . وقد فسر بعض العلماء قوله تعالى : « وطلح منضود » ، بأنه الطلع ، و (الطلع) لغة في الطلح . وذكروا ان الطلع الموز . وهذا في نظر بعض آخر ، غير معروف ، لأن شجر الموز غير شجر الطلح[4] .

و (النشم) ، شجر جبلي ، تتخذ منه القسي ، وهو من عتق العيدان[5] .

---

١ تاج العروس (٣/٤١٢) ، (عفر) .

٢ تاج (٧/٩٩ وما بعدها) ، (أرك) .

٣ تاج العروس (٢/٥٠٠) ، (مرد) .

٤ تاج العروس (٢/١٩٠) ، ، (طلح) .

٥ تاج العروس (٩/٧٦) ، (نشم) .

و (الغرب) ، شجر ، يسوى منه الأقداح البيض[1] . و (العرفـط)[2] ، شجر من العضاه ، وهو فرش عـلى الأرض لا يذهب في السماء ، وله ورقة عريضة وشوكة حديدة حجنـاء ، وهو مما يلتحى لحاؤه وتصنع منه الأرشية التي يستقى بها ، وتخرج في برمه العلفة كأنها الباقلاء ، تأكله الإبل والغنم . وقيل لبرمتـه الفتلة ، وهي بيضاء كان هيادبها القطن . وهو من خرج العيـدان ، وليس له خشب ينتفع به فيما ينتفع من الخشب وصمغه كثير ، وربما قطر على الأرض حتى يصير تحت العرفط ، مثل الأرحاء العظام . وذكر بعض علماء اللغة : العرفط ، شجرة قصيرة متدانية الأغصان ، ذات شوك كثير طولها في السماء كطول البعـير بأركالها وريقة صغيرة . تنبت في الجبال ، تأكل الإبل بفيها أعراض غصنتهـا . وذكر أن لصمغها رائحة كريهة ، فإذا أكلته النحل حصل في عسلها من ريحه . وقد أشير الى رائحته هذه في كتب الحديث[3] .

و (الغرف) شجر يدبغ به ، ويعمل منه القسيّ ، وذكر انه لا يدبغ به ، وقيل يدبغ بورقه ، وإن كانت القسي تعمل من عيدانه ، وذكـر انه اذا جفّ فمضغ شبهت رائحته رائحة الكافور . وجعله بعضهم ثماماً . فقالوا : الثمام أنواع ، منـه : الغرف ، وهو شبيه بالأسل ، وتتخذ منه المكانس ، ويظلل بـه المزاد فيبرد[4] . و (الشث) شجر من أشجار الجبال ، وقيل ضرب من الشجر ونبت طيب الريح مرّ الطعم يدبغ به ، ينبت في جبال الغور وتهامة ونجد . وقيل شجر مثل شجر التفاح القصار في القدر ، ورقه شبيه بورق الخلاف ، ولا شوك له ، وله برمة موردة صغيرة ، فيهـا ثلاث حبات أو أربع سود ، ترعاه الحمام اذا انتثروا[5] .

وذكر ان (الغُرَيْف) شجر خوّار مثل الغرب أو البردي[6] . و (الضرو)

---

١ تاج العروس (١/٤٠٧) ، (غرب) .
٢ بالضـم .
٣ تاج العروس (٥/١٨٢) ، (اعرنفط) .
٤ تاج العروس (٦/٢٠٩) ، (غرف) .
٥ تاج العروس (١/٦٢٧ وما بعدها) ، (شث) .
٦ قال حاتم في صفة نخل :

رواء يسيل المـاء تحت أصـوله يميـل به غيـل بادنـاه غريف

وقال أحيحة بن الجلاح :

يزخـر في حافـاته مغـدق بحافتيـه الشـوع والغـريف

شجرة الكمكام ، وهو شجر طيب الريح يستاك به ، ويجعل ورقه في العطر ، وأكثر منابت الضرو باليمن ، وهو من شجر الجبال كالبلوط العظيم له عناقيد كعناقيد البطم ، غير انه أكبر حباً ، ويطبخ ورقه فإذا نضج صفي وردّ ماؤه الى النار فيعقد . يتداوى به[1] . وذكر ان الكمكام قرف شجر الضرو ، وقيل صمغ شجرة تدعى الكمكام تجلب من اليمن ، وقيل هو علك الضرو . وقرف شجرة الضرو أو لحاؤها من أفواه الطيب . وقد يستاك به[2] .

و (المظ) ، شجر الرمان أو بريه ، ينبت في جبال السراة ولا يحمل ثمراً وإنما ينوّر نوراً كثير . ومنابته الجبال . وفي نوره عسل كثير ويمص وتأكله النحل فيجود عسلها ، وله حطب أجود حطب وأثقبه ناراً يستوقد كما يستوقد الشمع . وقيل هو الرمان البري الذي تأكله النحل ، وإنما يعقد الرمان البري ورقاً ولا يكون له رمان . وقيل هو : دم الأخوين ، وهو دم الغزال ، الذي يعرف بالقاطر المكي ، وهو عصارة عروق الأرطي ، وهي حمر ، والإرطاة خضراء ، فإذا أكلتها الابل احمرت مشافرها[3] .

و (السماق) من الأشجار التي تنبت بجبال تهامة ، وأهل الحجاز يسمونه (الضمخ) ، وأهل نجد يسمونه (العرتن)[4] .

و (الشوع) ، شجر البان ، أو ثمره . قيل شجر طوال وقضبانه طوال سمجة ، ويسمى ثمره أيضاً الشوع . وهو يريع ويكثر على الجدب وقلة الأمطار ، والناس يسلفون في ثمره الأموال . وأهل الشوع ، يستعملون دهنه كما يستعمل أهل السمسم دهن السمسم . وهو جبلي ، وقيل ينبت في الجبل والسهل[5] .
و (الضبر) ، شجر جوز البر ، يكون بالسراة في جبالها ينور ولا يعقد . وذكر بعض علماء اللغة ، أن (الضبر) ، (جوز بويا) ، و (جوز بوا) ، كما يسميه البعض . وذكر بعض آخر ، أنه جوز صلب . و(الضُبّار) ، شجر يشبه شجر البلوط ، وحطبه جيد ، مثل حطب المظ . فإذا جمع حطبه رطباً ،

---

١ تاج العروس (٦/٢١٠) ، (غرف) .
٢ تاج العروس (١٠/٢١٩) ، (ضرى) .
٣ تاج العروس (٥/٢٦٤) ، (مظظ) .
٤ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٠٢) .
٥ تاج العروس (٥/٤٠٤) ، (شوع) .

ثم أشعلت فيه النار ، فرقع فرفعة المخاريق ، ويفعل ذلك بقرب الغيـــاض التي فيها الأسد . فتهرب[1] .

و (الطباق) ، شجر ينبت متجاوراً ، لا تكاد ترى منه واحدة منفردة ، وهو نحو القامة ، وله ورق طوال دقاق خضر تتزلـــج ، إذا غمزت يضمد بها الكسر فيجبر . وله نور أصفر مجتمع ، ولا تأكله الإبل ولكـــن الغنم ، ومنابته الصخر مع العرعر ، والنحل تجرسه والأوعال أيضاً . وينبت بجبال نواحي مكة ، وقد استخدم في معالجة أمراض جلدية وداخلية[2] . و (السرّاء) ضرب من شجر القسي[3] . و (الصوم) ، شجـرة بلغة هذيل ، قيل انها على شكل الانسان ، كريهة المنظر جداً ، يقال لثمرها رؤوس الشياطـــين ، يعني بالشياطين الحيات ، وليس لها ورق . وقيل لها هدب ولا تنتشر أفنانها بنبت نبات الأثل ، ولا تطول طوله ، وأكثر منابتها بلاد (بني شبابة)[4] .

و(القتاد) شجر ضخم ينبت بنجد وتهامة . وهو شجر صلب له شوك كالأبر. وهو من العضاه. وهو ضربان ، فأما القتاد الضخام ، فإنه يخرج له خشب عظام وشوكة حجناء قصيرة ، وأما القتاد الآخر ، فإنه ينبت صعداً لا ينفرش منه شيء وهو قضبان مجتمعة ، كل قضيب منها ملآن ما بين أعـلاه وأسفله شوكاً ، وفي المثل: من دون ذلك خرط القتاد . وإبل قتادية تأكل شوك القتاد[5] .

و (الأشكل) ، السدر الجبلي ، وقيل : شجر مثل شجر العنّاب في شوكه وعقف أغصانه ، غير أنه أصغر ورقاً وأكثر أفناناً ، وهو صلب جداً ، ولـــه نبيقة حامضة شديدة الحموضة ، منابته شواهق الجبال تتخذ منه القسي[6] .

و (الصاب) و (السلع) ضربان من الشجر مرّان ، والمصاب قصب السكر[7]. و (السّرح) من الأشجار ، له ثمر يقال له (الآء) ، يشبه الزيتون على قول

---

١ تاج العروس (٣/٣٤٧) ، (ضبر) .
٢ تاج العروس (٦/٤١٥) ، (طبق) .
٣ تاج العروس (١/٧٧) ، (سرأ) .
٤ تاج العروس (٨/٣٧٢) ، (صام) .
٥ تاج العروس (٢/٤٥٨) ، (قتد) .
٦ تاج العروس (٧/٣٩٣) ، (شكل) .
٧ تاج العروس (١/٣٤٠) ، (صوب) .

أو الموز على قول آخر . يأكله الناس ويرتبون منه الرب[1] . و (الغضور) شجر أغبر ينبت في كل جبال تهامة[2] . وذكر أن (السرح) شجر كبار عظام طوال لا ترعى وإنما يستظل فيه ، وينبت بنجد في السهل والغلظ ، ولا ينبت في رمل ولا في جبل ولا يأكله المال إلا قليلاً له ثمر أصفر . وقيل السرحة ، دوحة محلال واسعة يحل تحتها الناس في الصيف ويبنون تحتها البيوت[3] .

و (الغاف) شجر عظام ينبت في الرمل ويعظم،وورقه أصغر من ورق التفاح، وهو في خلقته ، وله ثمر حلو جداً ، وهو غلف كأنه قرون الباقلى وخشبه أبيض أو هو شجر الينبوت يكون بعمان . وذكر ان الغاف من العضاه ، وهي شجرة نحو القرظ شاكة حجازية تنبت في القفاف[4] .

الأشجار العادية :

ونجد في كتب اللغة والأخبار ألفاظاً تعبر عن قدم الأشجار وضخامتها، فاستعملوا (العادي) ، و (العدمل) ، و (العدملة) ، و (العُدملي) للقديم من الشجر . وقد رأينا انهم استعملوا (العادي) بمعنى الشيء القديم ، ولا شيء قديم لا يعرف أصله[5] . ومنه (العيدانة) ، للشجرة الصلبة القديمة ، التي لها عروق نافذة إلى الماء[6] . و (العُدمل) ، كل مسن قديم . وقيل هو الضخم القديم من الشجر[7] . و (العدولي) ، الشجرة القديمة الطويلة[8] . و (الربوض) ، الشجرة العظيمة الضخمة الغليظة[9] . والدوائح ، العظام من الشجر[10] . و (الهيكل) ،

---

١ تاج العروس (٢/١٦٢) ، (سرح) ، عرام ، أسماء جبال تهامة (ص ٤٠٠) .
٢ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٠١) ، تاج العروس (٣/٤٥٠) ، (غضر) .
٣ تاج العروس (٢/١٦١) ، (سرح) .
٤ تاج العروس (٦/٢١٤) ، (غيف) .
٥ تاج العروس (٢/٤٣٧) ، (عود) .
٦ تاج العروس (٢/٤٣٨) ، (عود) .
٧ تاج العروس (٨/١٢) ، (العدمل) .
٨ تاج العروس (٨/١١) ، (عدل) .
٩ تاج العروس (٥/٣٠) ، (ربض) .
١٠ تاج العروس (٢/١٣٧) ، (الداح) .

النبات الطويل البالغ العبل ، أي العظيم ، وكذلك الشجر[1] . أما الشجرة الطويلة، فيقال لها (سحوق) و (سهوق) . والنخلة السحوق ، الطويلة التي بعد ثمرها على المجتني . وقيل هي الجرداء الطويلة التي لا كرب لها[2] . و (السمق) من الشجر ، هو الشجر الطويل المرتفع[3] . والقراح ، النخل الطويل الذي زال كربه وصار أملس[4] .

جماعة الشجر :

وفي دواوين اللغة ألفاظ كثيرة أطلقت على جماعة الشجر من حيث كثافتها في أرض تنبت بها ، ومن هذه الألفاظ : (الدخل) ، الشجر الملتف ، كالدغل[5] . و (الدغل) ، الشجر الكثير الملتف ، وقيل هو اشتباك النبت وكثرته ، وأعرف ذلك في الحمض ، والجمع أدغال[6] . و (الشجـــراء) ، اسم لجماعة الشجر[7] ، و (الغيضة) ، مجتمع الشجر في مغيض ماء ، والمراد بالشجر ، أي شجر كان ، أو خاص بالغرب لا كل شجـر[8] ، و (الأجمة) ، الشجر الكثيف الملتف[9] . وأما (الغيطلة) ، فهي الشجر الكثيف الملتف ، وجماعـة الشجر والعشب وكل ملتف مختلط ، وقيل جماعة الطرفاء[10] . و (الحرجة) ، اسم لمجتمع الشجر ، وقيل الشجر الملتف . وقيل الحرجة تكون من السمر والطلح والعوسج والسلم والسدر . وقيل هو ما اجتمع من السدر والزيتون وسائر الشجر[11] . و (العيص) ، الشجر الكثير الملتف ، وقيل هو الشجر الملتف النابت بعضه في أصول بعض . وقيل : ما اجتمع بمكان وتدانى والتف من السدر والعوسج والنبع والسلم من العضاه كلها.

---

١ تاج العروس (٨/١٧٠) ، (هيكل) .
٢ تاج العروس (٦/٣٧٧) ، (سحق) .
٣ تاج العروس (٦/٣٨٤) ، (سحق) .
٤ تاج العروس (٢/٢٠٥) ، (قرح) .
٥ تاج العروس (٧/٣٢٠) ، (دخل) .
٦ تاج العروس (٧/٣٢٢) ، (دغل) .
٧ تاج العروس (٣/٢٩١) ، (شجر) .
٨ تاج العروس (٥/٦٥) ، (غيض) .
٩ تاج العروس (٨/١٨٠) ، (أجم) .
١٠ تاج العروس (٨/٤٦) ، (غطل) .
١١ تاج العروس (٢/٢٠) ، (حرج) .

وهو من الطرفاء الغيطلة ، ومن القصب الأجمة . وقيل العيص ما التف من الشجر وكثر مثل السلم ، والطلح ، والسيال ، والسدر ، والعرفط ، والعضاه[1] . وأما (الرمخ) ، فالشجر المجتمع كذلك[2] .

وأما (الغيل) ، فالشجر الكثير الملتف الذي ليس بشوك يستتر به . وقيل جماعة القصب والحلفاء[3] وأما (الغريف) ، فالشجر الكثير الملتف من أي شجر كان ، أو الأجمة من البردي والحلفاء ، وقد يكون من الضال والسلم[4] . وأما (الأباة) ، فالقصبة ، أو أجمة الحلفاء والقصب خاصة ، وماؤها شر المياه[5] . وأما (الزأرة) ، فالأجمة ذات الحلفاء والماء والقصب . و (الزأرة) قرية كبيرة بالبحرين ، وبها عين معروفة ، يقال لها عين الزأرة ، وقيل (مرزبان الزأرة) كان منها . و (المرزبان) الرئيس ، أي رئيس الأجمة[6] . و (الخيس) و (الخيسة) : فالشجر الكثير الملتف ، والمجتمع من كل الشجر ، أو ما كان حلفاء وقصباً ، وقيل الملتف من القصب والأشاء والنخل . وقيل : منبت الطرفاء وأنواع الشجر ، والخيسة ، الأجمة[7] . و (الربض) ، جماعة الطلح والسمر ، وقيل : جماعة الشجر الملتف[8] . و (الوهط) ، ما كثر من العرفط ، وقيل : وهط من عشر ، كما يقال عيص من سدر . وقيل : الوهط : المكان المطمئن من الأرض المستوى ، تنبت فيه العضاه ، والسمر ، والطلح ، والعرفط[9] . ويقال للغملى من النبات ، وهو ما التف بعضه على بعض (الشربب)[10] .

و (الأيكة) ، الشجر الملتف الكثير ، وقيل : الغيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما ، أو الجماعة من كل الشجر حتى من النخل ، وخص بعضهم به منبت الأثل ومجتمعه . وقال بعض علماء اللغة : الأيك الجماعة الكثيرة من الآراك تجتمع

---

١ تاج العروس (٤/٤١١) ، (العيص) .
٢ تاج العروس (٢/٢٥٩) ، (رمخ) .
٣ تاج العروس (٨/٥٣) ، (الغيل) .
٤ تاج العروس (٦/٢١٠) ، (غرف) .
٥ تاج العروس (١/٣٩) ، (أباءة) .
٦ تاج العروس (٣/٢٣٠) ، (زأر) .
٧ تاج العروس (٤/١٤٤) ، (الخيس) .
٨ تاج العروس (٥/٣٠) ، (ربض) .
٩ تاج العروس (٥/٢٤٣) ، (وهط) .
١٠ تاج العروس (١/٣١٥) ، (شرب) .

في مكان واحد . وقد ذكرت الأيكة في القرآن الكريم[1] . قيل أن شجر أصحاب الأيكة كان الدوم ، وقيل : أثـــل ورهط من عشر ، وقصيمة من غضى[2] . وأما (العيكة) ، فلغة في الأيكة[3] .

و (الغابة) ، الأجمة ذات الشجر المتكاثف ، لأنها تغيب ما فيها ، وقيل الغابة : الأجمة التي طالت ولها أطراف باسقة . يقال : ليث غابة . وقيل الغابة أجمة القصب . وفي الحديث : كان منبر الرسول من أثـــل الغابة ، وفي رواية من طرفاء الغابة . والغابة غيضة ذات شجر كثير ، وهي على تسعة أميـــال من المدينة . وقيل : موضع قريب من المدينـــة . والعرب تسمي ما لم تصبه الشمس من النبات كله : الغيبان[4] .

و (الصور) ، جماع النخل ، وقيل النخل المجتمع الصغار . قيـــل : ويقال لغير النخل من الشجر صور[5] . و (العقدة) ، المكان الكثير الشجر ، يرعونه من الرمث والعرفج ، وقيل الحائط الكثير النخل[6] .

وتنبت القصباء والحلفاء في الماء الراكد أو الهادىء ، وعلى حواشي الأنهار حيث يظهر الماء في المنخفضات . جاء في شعر للأعشى :

كبردية الغيل وسط الغريف إذا ما أتى الماء منها السديرا[7]

والقصباء جماعة القصب ، وقيل منبتها . وقد أقصب المكان ، وأرض قصبة ومقصبة ، أي ذات قصب[8] . وينبت في المواضع التي يكثر وجود الماء الراكدة أو الهادئة بها ، مثل المستنقعات والبطائح ، مثل بطائح العراق ، حيث تعد من أهم منابت القصب والبردي في العراق حتى اليوم .

والقصب مادة مهمة لأهل الريف ، ولمن يعيش على الماء ، مثل أهل البطائح

---

١ القرآن الكريم في سورة الحجر ، والشعراء ، و ص ، و ق .
٢ تاج العروس (٧/١٠٤ وما بعدها) ، (الأيك) .
٣ تاج العروس (٧/١٦٥) ، (عيكة) .
٤ تاج العروس (١/٤١٦ وما بعدها) ، (غبب) .
٥ تاج العروس (٣/٣٤٣) ، (صور) .
٦ تاج العروس (٢/٤٢٧) ، (عقد) .
٧ تاج العروس (٦/٢١٠) ، (غرف) .
٨ تاج العروس (١/٤٣٠) ، (قصب) .

والأهوار ، والمستنقعات ، والأجم التي تتخللها المياه . إذ اتخذوا منها بيوتاً صنعوها من القصب ، ولا زال سكان (الأهوار) في العراق يصنعون بيوتهم من القصب . واتخذوا منها فراشاً يجلسون عليه ، هو (الباريـة) ، ويقال لها (البوري) ، و (البورية) ، و (البورياء) ، و (الباري) ، و (الباریاء) . الحصير المنسوج من القصب . وقد أشير إلى (البوري) في الحديث[1] .

والحلفاء نبت من الأغلاس ، قلما تنبت إلاّ قريباً من ماء أو بطن واد، وهي سلبة غليظة المسّ ، وقد يأكل منها الإبل والغنم أكلاً قليلاً ، وهي أحب شجرة الى البقر . وقد كانت الأسود تأوي اليهـــا . ومن مآوي الأسود الآجام ومنابت الحلفاء . وقد تجف ، إذا قلّ الماء[2] .

والبرّدي من النبات الذي يحتاج مثل القصب والحلفاء الى ماء . فهو لا ينبت إلا قريباً من ماء أو في مستنقع أو هور ، أو منخفض فيه ماء . ويؤلف أجمة في وسط ماء[3] .

و (الجليل) ، نبت ضعيف يحشى به خصاص البيوت . وهو (الثمام) في رأي بعض علماء اللغة[4] . و (الثمام) ،نبت ضعيف له خوص ، أو شبيه بالخوص، وربما حشي به وسدّ به خصاص البيوت . وهو أنواع . فمنها : الضعة ومنهـــا الجليلة ، ومنهـــا الغرف ، وهو شبيه بالأسل وتتخذ منه المكانس ؛ ويظلل به المزاد فيبرد الماء . يقال : (بيت مثموم) مغطى به . وقد يستعمل لإزالة البياض من العين[5] .

الفحم وقطع الشجر :

وقـــد صنع أهل الجاهلية من النباتات البرية والأشجار الجبلية الفحم ، وهم لا يزالون يصنعونه من هـــذه المواد . وذلك بإشعالها أولاً ثم باطفاء جمرهـــا ،

---

١ تاج العروس (٣/٦٠ وما بعدها) ، (بار) .
٢ تاج العروس (٦/٧٦) ، (حلف) .
٣ تاج العروس (٢/٢٩٨) ، (برد) .
٤ تاج العروس (٧/٢٦١) ، (جلل) .
٥ تاج العروس (٨/٢١٩) ، (ثمم) .

للاستفادة من الفحم الحاصل من ذلك في أغراض شتى . ويحمله أصحابه الى أهل المدر ، لبيعه لهم ، أو لمقايضته مع الباعة بمواد أخرى يحتاجون اليها . وقد أدى الإسراف في ذلك وفي قلع الأشجار البرية النابتة بالطبيعة دون التعويض عنها بزراعة غيرها في مكانها ، الى تحوّل الأرضين الشجراء الى أرض جرداء ، وإلى إلحاق ضرر كبير بمصدر ثروة مهمة من الثروات الطبيعية .

وتشاهد في كثير من المناطق الجبلية والنجود بقايا أشجار قديمة وأصول أشجار ممتدة بين الصخور تدل على أن هذه المناطق الجرد كانت ذات أشجار باسقة ، ولكنها أصابها الدمار بفعل جهل الانسان واعتدائه عليها ، وعدم عنايته بها، فتلفت وبادت ، حتى استحالت تلك البقاع الشجراء قفاراً جرداً .

وكان مما ضيق من مساحة الأرضين المشجرة ، التي شجرتها الطبيعة بنفسها ، قطع الإنسان للشجر من عروقه أو من موضع اتصال الساق بالأرض ، للاستفادة من المقطوع الى أقصى حدّ ممكن ، مما أهلك النبت ، فأمات عروقه ، وقطع عنه مادة الحياة ، ولم يحفل بغرس آخر في مكانه ، ليأخذ محله ، لأن الأرض ليست أرضه ، وإنما هو يريد بيع الخشب والحطب ليستفيد من الثمن ، فقلت مساحة الأرض المشجرة بالطبيعة ، بهذا التجاوز الفظيع . ولم تعوض الطبيعة الإنسان عن الضرر الذي ألحقه بنتاجها ، فقد أعطته كثيراً ، وكان من الواجب عليه أن يعينها في الانبات ، لا أن يعمل على إفساد ما زرعته .

آفات زراعية :

ويفهم من بعض النصوص الجاهلية ان الزراعة كانت تتعرض لآفات زراعية خطيرة تقضي على المزروعات في بعض الأحيان . وطالما وجدنا أصحابها يسألون الآلهة وقاية مزروعاتهم وحمايتها وانزال البركة عليها ومنحهم غلات وافرة كثيرة . وقد يكون من بين هذه الآفات: الحشرات والجراد وانحباس المطر . ومن طرق هذه الحماية في نظرهم تسمية الزرع باسم إلَه ، ليكون في حمايته ورعايته . وقد يخصص نصيب منه لذلك الإلَه ، في مقابل حمايته له .

وفي كتب اللغة ألفاظ عديدة في معاني الآفات التي تصيب الزروع ، مثل : البثق ، وهو داء يصيب الزرع من ماء السماء[1] ، و (الغمل) ، وهو مرض

---

١ تاج العروس (٦/٢٨٣) ، (بثق) .

يغمل النبات ، فيجعله يركب بعضه بعضاً ويذبل ويعفن[1] . و (الخناس) ، داء يصيب الزرع فيتجعّن منه فلا يطول[2] . و (الشفران) ، و (البرقان) ، آفة للزرع تصيبه فيصفر منها ، وقيل دود يكون في الزرع فيتلفه[3] ، و (الأرقان)[4] ، والرصع ، والوصم ، وهو العيب في العود ، والقادح ، أكال يقع في الشجر وفي الخشب فيأكله ، والقادح أيضاً العفن ، ويقع القادح في الأسنان ، وهو السواد الذي يظهر فيها[5] . والسوس ، داء يصيب الزرع ، لوقوع السوس فيه ، بسبب حشرة تعبث فيه ، ويقال مثل ذلك بالنسبة إلى الصوف والثياب والطعام ، إذا عبثت العثة فيها[6] . و (العُثة)[7] سوسة ، أو الأرضة التي تلحس الصوف فتؤذيه . وقيل : دويبة تعلق الإهاب فتأكله . والجدجد أيضاً دويبة تعلق الإهاب فتأكله[8] . والأرضة ضربان ، ضرب صغار ، مثل كبار الذرّ ، وهي آفة الخشب خاصة ، وضرب مثل كبار النمل ، ذوات أجنحة ، وهي آفة كل شيء من خشب ونبات. غير انها لا تعرض للرطب ، وهي ذوات قوائم . وقيل : هي دودة بيضاء شبه النملة تظهر في أيام الربيع . وقيل دودة بيضاء سوداء الرأس ، وليس لها أجنحة ، وهي تغوص في الأرض وتبني لها كنّاً من الطين ، وهي تأكل الخشب وغيره[9] . والنخر ، داء يصيب الأغصان والسيقان ، والخشب ، فيسبب جفافها وتفتتها[10] . و (القادحة) ، دودة تأكل الشجر[11] .

و (القتع) ، دود حمر تأكل الخشب ، أو هي الأرضة ، وقيل الدود مطلقاً . وقيل هي السرفة ، والقتعة ، والهرنصانة ، والحطيطة ، والبطيطة ، واليسروع ، والعوانة ، والطحنة[12] .

---

١ تاج العروس (٨/٥٠) ، (غمل) .
٢ تاج العروس (٤/١٤٣) ، (خنس) .
٣ تاج العروس (٧/٩٧) ، (يرق) .
٤ تاج العروس (٦/٢٧٨) ، (ارق) .
٥ تاج العروس (٢/٢٠٣) ، (قدح) .
٦ تاج العروس (٤/١٦٨) ، (سوس) .
٧ بالضم .
٨ تاج العروس (١/٦٣٢) ، (عث) .
٩ تاج العروس (٥/٤) ، (أرض) .
١٠ المخصص (١١/٥٦) ، تاج العروس (٣/٥٥٩) ، (نخر) .
١١ المخصص (١١/١٢ وما بعدها) .
١٢ تاج العروس (٥/٤٥٨) ، (قتع) .

و (السرفة) ، دويبـــة تؤذي الزرع ، تثقب الشجر ثم تبني فيها بيتاً من عيدان دقـــاق تجمعها بمثل غزل العنكبوت ، وقيل دودة تنسج على بعض الشجر وتأكل ورقه وتهلك ما بقي منه بذلك النسج[1] . وذكر أن (الهرنصانة) ،السرفة[2] ، وأن (البطيطة) السرفة كذلك[3] . وأن (الحطيطة) السرفة أيضاً[4] .

ومن الأمراض والآفات التي تصيب النخيل ، الدمان ، ويقع عـــلى التمر ، فيفسد ، وتصيبه العفونة قبل إدراكه حتى يسود[5] . والمُراض ، داء للثمار يقع فيها فيهلكها[6] ، و (القشام)[7] ، وهو أن ينتفض تمر النخل قبل أن يصـــير بلحاً[8] . وذكر بعض العلماء أن الدمان فساد النخل قبل إدراكه ، وإنما يقع ذلك في الطلع يخرج قلب النخلـــة أسود معفوناً . وذهب آخرون الى أنه فساد الطلع وتعفنه وسواده . وقال بعضهم : الدمان التمر المتعفن ، وأنه فساد التمر وعفنه قبل إدراكه حتى يسود من الدمن . وأما المُراض ، فذكر بعض العلماء أنه اسم لجميع الأمراض . وأما القشام ، فهو أكال يقع في التمر[9] .

ومن الآفات التي كانت تصيب الزرع فتؤذي الناس وتلقي بأصحـــاب الزرع خسائر كبيرة (الجراد) . فقد كان يكتسح الزرع في بعض السنين اكتساحاً ، فيأتي في موجات كثيفة ، ويلتهم كل ما يجده أمامه ، حتى يجرد الأرض جرداً ، ولا يترك من نبتها شيئاً . ونجد في كتابات المسنـــد اشارات اليه . ويقال له : (اربى) في العربيات الجنوبية[10] . وفي العربية : (جراد سد) ، أي كثير سد الأفق . ويقال جاءنا سد من جراد ، إذا سد الأفق من كثرته[11] .

وللجراد أسماء تمثل مراحل نموه ، ذكرها علماء اللغة. مما يدل على مدى اتصاله

---

١ تاج العروس (٦/١٣٧) ، (سرف) .
٢ تاج العروس (٤/٤٤٧) ، (الهرنصانة) .
٣ تاج العروس (٥/١٠٩) ، (بط) .
٤ تاج العروس (٥/١١٩) ، (حطط) .
٥ القاموس (٤/٢٢٣) ، تاج العروس (٩/٢٠٣) ، (دمن) .
٦ تاج العروس (٥/٨٦) ، (مرض) .
٧ بالضم كغراب .
٨ القاموس (٤/١٦٥) ، (قشم) .
٩ عمدة القارىء (١٢/٣) .
١٠ South Arabian Inscriptions, p. 427.
١١ تاج العروس (٢/٣٧٣) ، (سدد) .

بحياة الناس ، وما كان يحدثه من أذى وأثر في زرعهم . وإذا أكل الجراد نبت أرض ، قيل : أرض مجرودة ، وجرد الجراد الأرض جرداً[1] ،ومن أسماء الجراد (الجندب) . وقيل انه الصدى يصر بالليل ويقفز ويطير . وقيل هو أصغر من الصدى يكون في البراري ، وقيل هو الصغير من الجراد[2] .

وكان الجراد يغزو المزارعين فيأتي على ما زرعوه ، لا يترك لهم منه شيئاً ، وهم عاجزون عن الاتيان عليه. وهو أنواع عديدة من حيث اللون والجسم . وكان إذا انتقل من مكان إلى مكان ظهر في السماء ، وكأنه سحابة من كثرته . وقد صار طعاماً لهم ، يأكلونه كما يأكل هو زرعهم . ذكر ان (ابن أبي أوفى) قال: غزونا مع النبي سبع غزوات أو ستاً كنا نأكل معه الجراد[3] .

الأسوكة :

السواك سوك الفم بالعود . والعود مسواك . ويتخذ من الأراك ، فإن لم يكن فعتم أو بطم[4] . ويستاك بالبشام كذلك ، وهو شجر ذو ساق وأفنان وورق صغار أكبر من ورق الصعتر ولا ثمر له[5] .

---

١ تاج العروس (٢/٣١٩) . (جرد) .
٢ تاج العروس (١/١٧٦) ، (جدب) .
٣ ارشاد الساري (٨/٢٧١) ، (باب جواز أكل الجراد) .
٤ تاج العروس (٨/٣٨٨) ، (عتم) .
٥ تاج العروس (٨/٢٠٣) ، (بشم) .

الفصل الثالث والتسعون

المراعي

وفي جزيرة العرب مراعي ، منها الخاص ، ومنها العام . والمراعي الخاصة ما تكون ملكاً لرجل أو أسرة أو قبيلة تفرض سلطانها على المرعى ، مثل الاحماء ، حيث لا يسمح لأحد غير مأذون بالرعي في (الحمى) . أما المراعي العامة، فهي التي لا تدخل في ملك أحـــد ، وإنما يرعى فيها كل أبناء الحي ، وجميع أبناء القبيلة ، لأن أرض القبيلة ملك للقبيلة ما دامت عزيزة فيها مالكة لرقبتها ، يرعى فيها كل أبنائهـــا ، فإذا ذلت واستخذت طمعت فيها القبائل المجاورة القوية ، فشاركتها في أرضهـــا ، وربما أجلتها عنها . وإذا ارتحلت القبيلة عن أرضها ، وتركتها ، ونزل بها نازل جديد ، صارت الأرض ملكاً له ، ما لم يدفع عنها بالقوة ، أو يتركها هو رضاءً . فإذا ارتحل عنها ، ونزل في مكان جديـــد ، سقط حقه فيها ، وانتقلت رقبة الأرض الى النازل الجديد . وهكذا تكون المراعي عامة مشاعة بين جميع أبناء القبيلة ، ما خلا الحمى ، ينتفع بها جميع أبنائها ، بما في ذلك سادة القبيلة وأصحاب الاحماء ، الذين ترعى إبلهم في احمائهم ، كما ترعى مع إبل الناس في مراعي القبيلة ، ولا يجوز لأحد من القبيلة أن يأخذ من أرباب المواشي عوضاً عن مراعي القبيلة ، لأنها للجميع . وقد أخذ بهذا الحـــكم في الإسلام بالنسبة للمراعي الموات ، بقول الرسول : « الناس شركاء في ثلاث: الماء ، والنار ، والكلأ »[1] .

---

١ الاحكام السلطانية (٢٠٨) .

و (الرعي) الكلأ ، وهو ما ترعاه الراعية . والراعي ، هو الذي يتولى أمر الماشية التي ترعى ، ويقال للذي يجيد رعية الإبل (ترْعاية) و (ترْعى) ، أو هو الحسن الارتياد للكلأ للماشية ، أو صناعته وصناعة آبائه رعاية الإبل . و (الرُعاوى) الإبل التي ترعى حوالى القوم وديارهم لأنها الإبلُ التي يعتمل عليها [1].

ويقال للمرعى في المسند (مرعم) ، (مرعيم) ، (مرعى) [2] . والمرعى موضع الرعي . والرعي الكلأ . والمرعى والرعي ما ترعاه الراعية . ورُعيان ، ورُعاء ، رعاة الغنم على الأكثر . ويقال (ترعى) و (ترعاية) و (تراعية) للرجل يجيد رعية الإبل ، أو هو الحسن الارتياد للكلأ للماشية ، أو صناعته وصناعة آبائه رعاية الإبل . و (الرُعاوى) [3] ، الإبل التي ترعى حوالى القوم وديارهم ، لأنها الإبل التي يعتمل عليها [4] . ويقال للمرعى (الأب) ، وهو الكلأ جميعه الذي تعتلفه الماشية ، رطبه ويابسه [5] .

ويعبر عن الإبل إذا رعت بـ (سامت المال) ، و (سامت الإبل) ، يقال سامت الراعية والماشية والغنم تسوم سوماً ، رعت حيث شاءت ، فهي سائمة . والسوام والسائمة الإبل الراعية ، وقيل كل ما رعى من المال في الفلوات إذا خلي وسومه يرعى حيث شاء ، والسائم الذاهب على وجهه حيث يشاء . وذكر ان السوام والسائمة كل إبل ترسل ترعى ولا تعلف في الأصل . وورد في الحديث : سائمة الغنم [6] . و (السرح) المال السائم . وذكر بعض علماء اللغة ان المال لا يسمى سرحاً إلا ما يفدى به ويراح [7] .

وتؤدي لفظة (مرتع) معنى (مرعى) . ورتع بمعنى أكل وشرب للبهائم. ولا يكون الرتع إلا في خصب وسعة [8] . وتؤدي لفظة (النجعة) ، معنى طلب الكلأ في موضعه . و « والنجعة عند العرب المذهب في طلب الكلأ في موضعه ،

---

١ تاج العروس (١٠/١٥٢) ، (رعى) .
٢ Rhodokanakis, Stud. Lexl., I, S. 57, Halevy 147.
٣ كسكارى ويضم .
٤ تاج العروس (١٠/١٥٢) ، (رعى) .
٥ تاج العروس (١/١٤٢) ، (أبّ) .
٦ تاج العروس (٨/٣٥٠) ، (سوم) .
٧ تاج العروس (٢/١٦٠) ، (سرح) .
٨ تاج العروس (٥/٣٤٧) ، (رتع) .

والبادية تحضر محاضرها عند هيج العشب ونقص الخرف وفناء ماء السماء في الغدران، فلا يزالون حاضرة يشربون الماء العدّ حتى يقع ربيع بالأرض خرفياً كان أو شتياً، فإذا وقع الربيع توزعتهم النجع وتشبعوا مساقط الغيث يرعون الكلأ والعشب ، إذا أعشبت البلاد ، ويشربون الكرع وهو ماء السماء ، فلا يزالون في النجع الى أن يهيج العشب من عام قابل وتنش الغدران فيرجعون الى محاضرهم على أعداد المياه»[1].

ويقال أرض معرضة ، للأرض التي يستعرضها المال ويعترضها ، أي هي أرض فيها نبات يرعاه المال إذا مرّ فيها[2] .

وإذا أقامت الإبل في المرعى ، قيل : (عدنت الإبل) ، وخص بعضهم به الإقامة في (الحمض) ، وقيل يكون في كل شيء[3] .

وقد تكون المراعي عند مشارف أهل الحضر ، لا تبعد عن القرى وعن مستوطناتهم كثيراً ، وذلك بالنسبة لرعي الغنم . فيؤدي أهل البيوت أغنامهم الى الراعي ، ليأخذها الى الخارج فيرعى بها وتتجمع عند الراعي أغنام لمختلف الناس، في مقابل أجر يدفع له . وقد كان الرسول راعي غنم ، يرعى غنم قريش، وغنم أهله بـ (أجياد) بالقراريط[4] .

وكان بين أصحاب الغنم ، وبين أصحاب الإبل تنازع ، وقد كان يستطيل أصحاب الإبل على أصحاب الغنم[5] .

و (المنقل) النجعة يتنقلون من المرعى إذا احتفوه إلى مرعى آخر ، وذلك إذا رعوا فلم يتركوا فيه شيئاً . والناقلة ضد القاطنين ، والجمع النواقل . والنقل الطريق المختصر[6] . والنُجعة طلب الكلأ في موضعه . والبادية تحضر محاضرها عند هيج العشب ونقص الخرف وفناء ماء السماء في الغدران ، فلا يزالون حاضرة يشربون الماء العدّ حتى يقع ربيع بالأرض خرفياً كان أو شتياً ، فإذا وقع الربيع توزعتهم النجع وتتبعوا مساقط الغيث يرعون الكلأ والعشب إذا أعشبت البلاد

---

١ تاج العروس (٥/٥١٩) ، (نجع) .
٢ تاج العروس (٥/٤٩) ، (عرض) .
٣ تاج العروس (٩/٢٧٤) ، (عدن) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/١٢٥ وما بعدها) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/١٢٦) .
٦ تاج العروس (٨/١٤٤) .

ويشربون الكرع وهو ماء السماء ، فلا يزالون في النجع إلى ان يهيج العشب من عام قابل ، وتنش الغدران ، فيرجعون إلى محاضرهم على أعداد المياه[1] .

وإذا أمطرت السماء مطراً كافياً ، كان ذلك خيراً للعرب وفرحة عظيمة . إذ تغيث الأرض وتكسوها حلة سندسية جميلة ، وتزول الغبرة عن وجهها ، وتظهر الأرض فرحة مستبشرة بعد عبوس وكآبة . فتهيج الأرض وتنبت نبتاً أخضر ، يكون بهجة للناظرين وطعاماً شهياً للإبل ولبقية حيواناتهم،تقبل عليه إقبالاً شديداً، فتشبع وتصح أجسامها ، ويكثر نسلها . ويقال للخضرة التي تكسو وجه الأرض (الكلأ) ، وهو العشب ، رطبه ويابسه . وأرض كليئة ومكلأة ، كثيرة الكلأ[2]. وذكر ان العشب الكلأ الرطب ، والرطب من البقول البرية ، ينبت في الربيع ، وهو سرعان الكلأ في الربيع يهيج ولا يبقى . ويدخل في العشب ، أحرار البقول وذكورها ، فأحرارها ما رق منها وكان ناعماً . وذكورها ما صلب وغلظ منها. وذكر بعضهم ان العشب كل ما أباده الشتاء وكان نباته ثانية من أرومة أو بذر[3].

وفي ذلك يقول الأعشى :

ألم تر أن الأرض أصبح بطنها نخيلاً وزرعـاً نابتاً وفصافصا

والفصافص الرطب من علف الحيوان ، ويسمى (القت) . وقيل هو رطب القت . وفي الحديث : ليس في الفصافص صدقة[4] .

و (البقل) ما نبت في بزره لا في أرومة ثابتة . وذكر أنه كل ما اخضرت به الأرض . والفرق بين البقل ودق الشجر ، أن البقل إذا رعي لم يبق له ساق، والشجر تبقى له سوق وإن دقت . وقال بعض علماء اللغة : البقل مـا لا يثبت أصله وفرعه في الشتاء . والبُقلة ، بقل الربيع خاصة . وبقلت الأرض إذا أنبتت[5]. وذكر أن من أسماء بقل الربيع : الجشر[6] .

---

١ تاج العروس (٥/٥١٩) ، (نجع) .
٢ تاج العروس (١/١١١) ، (كلأ) .
٣ تاج العروس (١/٣٨٣) ، (عشب) .
٤ تاج العروس (٤/٤١٦) ، (فصص) .
٥ تاج العروس (٧/٢٣١) ، (بقل) .
٦ تاج العروس (٣/١٠١) ، (جشر) .

وترد لفظة (لسسن) ، (لسس) ، الواردة في نصوص المسنـــد في معنى (لساس)[1] في عربيتنا[2] . ويراد بها أول البقل ، وقيل هو من البقل ما استمكنت منه الراعية وهو صغار . وقيل : البقل ما دام صغيراً لا تستمكن منه الراعية ، وذلك لأنها تلسه بألسنتها لساً[3] .

والحشيش الكلأ اليابس ، ولا يقال وهو رطب حشيش . والطاقة منه حشيشة . والعشب يعمّ الرطب واليابس . وقال بعض علماء اللغة : الحشيش أخضر الكلأ ويابسه . وقال بعض آخر العرب إذا اطلقوا اسم الحشيش عنوا به الخلي خاصة ، وهو أجود علف يصلح الخيل عليه . وهو من خير مراعي النعم . وقـال بعض آخر : البقل أجمع رطباً ويابساً حشيش وعلف وخلي[4] . والخـلي : الرطب من النبات . وقال بعض علماء اللغة : هو النبات الرقيق ما دام رطباً[5] .

وترد في المسند لفظة (جمست) (جمسة) ، بمعنى الحشائش عند جفافهـا والنبت إذا مـا ذهبت غضاضته[6] . وهي بهذا المعنى في عربية القرآن الكريم . فالجامس من النبات ما ذهبت غضوضته ورطوبته فولى وجسا[7] .

وتنبت الأمطار ما دقّ من الشجر ، وبعض أنواع الشجر ، وقد تثمر ثمراً يستفيد منه الانسان . كما يستفيد من عوده ومن حطبه وخشبه . أما ورقه فيكون طعاماً شهياً للإبل . ونجد في كتب اللغة أسماء عدد كبير من هذه النباتات . وقد استعان الأعـراب بالنبات وبالشجر في مداواة أنفسهم ، علمتهم تجاربهم الطويلة القديمة ، ما ينفع منها في معالجة ما يصابون به من مرض ، فصار لهم طب خاص بهم ، يقوم على الفراسة وعلى الملاحظة وعلى التجارب في استخدام النبات في مداواة الانسان وفي معالجة ماله ؛ ولا زال هذا الطب معمولاً به في البوادي ، عند الأعراب .

---

١ كغراب .
٢ القاموس (٢/٢٤٩) .
٣ تاج العروس (٤/٢٤١) ، (لـس) ، REP. EPIGR., Tome, V, P. 196.
٤ تاج العروس (٤/٢٩٨) ، (حشش) .
٥ تاج العروس (١٠/١٢٠) ، (خلى) .
٦ REP. EPIGR., Tome, V, P. 196.
٧ القاموس (٢/٢٠٥) ، تاج العروس (٤/١٢٢ وما بعدها) ، (جمس) .

ويعد الأراك من أطايب أكل الإبل ، إذا أصابت منه شيئاً ، ظهر طعمه في اللبن ، وهم يستحسنون هذا اللبن . وقد كان الرعاة إذا مروا به اجتنوا ثمرته ، و (الكباث) ، هو أحسن ثمره ، ولونه أسود ، وهو أطيب ثمر الأراك . وقد اجتناه الرسول يوم كان راعياً[1] . وهو النضيـــج من ثمر الأراك . وما لم ينضج فهو (برير) . وقيـل : الكباث هو مـا لم ينضج منه ، وقيـــل حمله إذا كان متفرقاً[2] .

وتكتسي الأرض بعد ظهور الكلأ ثوباً سندسياً جميلاً ، فتظهر خضراء، لكثرة ما عليها من (الخضر) ، وهو الزرع والنبات الذي نبت عليها . و (الخضر) ، المكان الكثير الخضرة . ويراد بالخضرة (البقلة الخضراء) ، وهي بقلة خضراء خشناء ورقها مثل ورق الدخن وكذلك ثمرتها وترتفع ذراعاً،وهي تملأ فم البعير . و (الخضر) ضرب من الجنبة ، والجنبة من الكلأ ما له أصل غامض في الأرض، مثل النصى والصليان . وليس الخضر من أحـرار البقول التي تهيج في الصيف . وجيدها الذي ينبته الربيع بتوالي أمطاره فتحسن وتنعـــم ، ولكنه من البقول التي ترعاها المواشي بعد هيج البقول ويبسها حيث لا تجد سواها،وتسميها العرب الجنبة، فلا ترى الماشية تكثر من أكلها ولا تستمرئها[3] .

والجنبة ، عامة الشجر التي تتربل في زمان الصيف . واسم لنبـــوت كثيرة ، وهي كلها عروق . سميت جنبة ، لأنها صغرت عن الشجر الكبار وارتفعت عن التي لا أرومة لها في الأرض . فمن الجنبة : النصي والصليان والحماط والمكر والحذر والدهماء . صغرت عن الشجر ونبلت عن البقول[4] . والنصي : نبت ما دام رطباً، فإذا ابيض ، فهو الطريفة ، فإذا ضخم ويبس ، فهو الحلي . وهـو من أفضل المرعى[5] . وذكر أن (الطريفة) من النصي ، إذا ابيض ويبس ، أو هو منـه اذا اعتم وتم وكذلك من الصليان . وذكر أيضاً أن الطريفة من النبـات ، أول الشيء ، يستطرفه المال،فيرعاه كائناً ما كان . وسميت طريفة ، لأن المال يطرفه

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/١٢٦) .
٢ تاج العروس (١/٦٤٠) ، (كبث) .
٣ تاج العروس (٣/١٧٩) ، (خضر) .
٤ تاج العروس (١/١٨٩) ، (جنب) .
٥ تاج العروس (١٠/٣٧٠) ، (أنصى) .

إذا لم يجد بقلاً . وقيل لكرمها وطرافتها واستطراف المال إياه . وقيل: الطريفة خير الكلأ ، إلا ما كان من العشب . ومن الطريفة النصيّ والصليان والهلتى والشحم والثغام[1] .

و (الحلي) ما ابيض من يبيس النصي والسبط ، وقيل : هو كل نبت يشبه نبات الزرع، أو اسم نبت بعينه. وقيل هو من خير مراتع أهل البادية للنعم والخيل[2].

والحماط ، شجر شبيه بالتين ، خشبه وجناه وريحه ، إلا أن جناه هو أصغر وأشد حمرة من التين ، ومنابته في أجواف الجبال ، وقد يستوقد بحطبه ، ويتخذ خشبه لما ينتفع به الناس ، يبنون عليه البيوت والخيام . وقيل : هو في مثل نبات التين ، غير أنه أصغر ورقاً ، وله تين كثير صغار من كل لون أسود وأملح وأصفر ، وهو شديد الحلاوة يحرق الفم إذا كان رطباً ، فإذا جف ذهب ذلك عنه . وهو يدخر وله إذا جفّ متانة وعلوكة . وهو أحب شجر الى الحيات ، أي انها تألفه كثيراً . يقال : شيطان حماط[3] .

والصليان ، نبت من الطريفة ، ينبت صعداً وأضخمه أعجازه وأصوله على قدر نبت الحليّ ، ومنابته السهول والرياض . وقيل الصليان من الجنبة لغلظه وبقائه[4] .

والمكرة نبتة غبراء مليحاء تنبت قصداً ، كأن فيها حمضاً حين تمضغ ، تنبت في السهل والرمل ، لها ورق وليس لها زهر . وقد تقع المكور على ضروب من الششجر كالرغل[5] . و (الدهماء) ، عشبة عريضة ذات ورق وقضب ، كأنها القرنوة ، ولها نورة حمراء يدبغ بها ، ومنبتها قفاف الرمل[6] .

الحمض والخلة :

ويقسم بعض العلماء المرعى كله إلى حمض وخلة . فالحمض ما فيه ملوحة ،

---

١ تاج العروس (٦/١٧٧ وما بعدها) ، (طرف) .
٢ تاج العروس (١٠/٩٨) ، (حلى) .
٣ تاج العروس (٥/١٢١) ، (حمط) .
٤ تاج العروس (٧/٤٠٦) ، (صلل) .
٥ تاج العروس (٣/٥٤٨) ، (مكر) .
٦ تاج العروس (٨/٢٩٩) ، (دهم) .

والخلة ما سواه . وكل أرض لم يكن بها حمض ، فهي خلّة ، وإن لم يكن بها من النبات شيء . وخلل الأرض التي لا حمض بها ، وربما كانت بها عضاه ، وربما لم تكن . ولو أتيت أرضاً ليس بها شيء من الشجر وهي جرز من الأرض، قلت انها خلة [1] .

والحمض ما ملح وأمر من النبات ، كالرمث والأثل والطرفاء ونحوها . وذكر أن الحمض من النبات كل نبت مالح أو حامض يقوم على سوق ولا أصل له . ومن الحمض النجيل ، والخذراف ، والاخريط ، والقضة ، والقلام ، والهرم ، والحرض ، والدغـل ، وما أشبهها . وذكر أن الحمض كل نبات لا يهيج في الربيع ويبقى على القيظ وفيه ملوحة ، إذا أكلته الإبل شربت عليه،واذا لم تجده رقت وضعفت . وهي كفاكهة الإبل ، والخلة ما حلا ، وهي كخبزها ، تقول العرب : الخلة خبز الإبل ، والحمض فاكهتها ويقال لحمها [2] .

والرمث ، مرعى للإبل ، وهو من الحمض ، وشجر يشبه الغضى،لا يطول ولكنه ينبسط ورقه ، وهو شبيه بالأشنان ، وله هدب طوال دقاق ، وهو مع ذلك كله كلأ تعيش فيه الابل والغنم وإن لم يكن معها غيره ، وربما خرج فيه عسل أبيض كأنه الجمان ، وهو شديد الحلاوة وله حطب وخشب ووقوده حسار ويتنفع بدخانه من الزكام . ويرتفع دون القامة فيحتطب [3] .

والطرفاء جماعة الطرفة ، شجر . قيل انها أربعة أصناف من الأثـل ، وقيل الطرفاء شجر من العضاه ، هدبه مثل هدب الأثـل ، وليس له خشب . وإنما يخرج عصيّاً سمحة في السماء ، وقد تتحمض به الإبل إذا لم تجد حمضاً غيره . وقيل انه من الحمض [4] .

والأثل : شجر ، عدّه بعضهم نوع من الطرفاء ، وقال بعض آخر : الأثلة سمرة أو عضاهة طويلة قويمة يعمل منها الأقداح [5] . والنجيـل ، ضرب من دق الحمض ، وقيل هو خير الحمض كله وألينه على السائمة . وذكر انه إذا أخرج

---

١ تاج العروس (٣٠٧/٧) ، (خلل) .
٢ تاج العروس (٢٢/٥) ، (حمض) .
٣ تاج العروس (٦٢٥/١) ، (رمث) .
٤ تاج العروس (١٧٧/٦) ، (طرف) .
٥ تاج العروس (٢٠٢/٧) ، (أثل) .

عن الحمض أربع شجرات ، فسائره نجيل . هي الرمث والغضى والسلج . ومن النجيل : الخذراف ، والرغل ، والغولان ، والهرم ، والفذا، والقلام والطمحاء[1] . والخذراف ، نبات ربعي إذا أحس بالصيف يبس ، أو هو ضرب من الحمض له وريقة صغيرة يرتفع قدر الذراع[2] . والرُغل ، نبت ، أو حمضة تنفرش وعيدانها صلاب وورقها نحو من ورق الجماجم إلا انها بيضاء ومنابتها السهول ، والإبل تحمض به[3] .

والغولان ، حمض كالأشنان ، وقيل شبيه بالعنظوان ، إلا انه أدق منه . وهو مرعى[4] . و (الهَرم) ، نبت ضعيف ترعاه الإبل ، وقيل ضرب من الحمض فيه ملوحة . وقيل هو يبيس الشبرق ، وهو أذله وأشده انبساطاً على الأرض واستبطاحاً . وقيل شجر ، وان الهرمة البقلة الحمقاء[5] . و (الغذام) ، نبت من الحمض[6] . و (القلام) من الحمض: هو كالأشنان إلا انه أعظم[7] . و (القِضاض)[8] شجر من الحمض ، وقيل هو دقيق ضعيف أصفر اللون[9] .

والأراك من الحمض ، وقوم مؤركون نازلون بالأراك يرعونها ، ويقال أطيب الألبان ألبان الأوارك . وفي الحديث أتى بلبن الأوارك وهو بعرفة ، فشرب منه[10] .

و (الحرض) ، من النجيل . وذكر أنه الأشنان ، تغسل به الأيدي على أثر الطعام . وشجرته ضخمة ، وربما استظل بها ، ولها حطب ، وهو الذي يغسل به الناس الثياب . وأنقى وأبيض حرض هو حرض ينبت باليمامة ، بواد منها يقال له جوّ الخضارم[11] . و (الحيهل) ، شجرة قصيرة من دق الحمض

---

١ تاج العروس (١٢٨/٨) ، (نجل) .
٢ تاج العروس (٨٠/٦) ، (خذرف) .
٣ تاج العروس (٣٤٨/٧) ، (رغل) .
٤ تاج العروس (٥٢/٨) ، (غال) .
٥ تاج العروس (١٠٢/٩) ، (هرم) .
٦ تاج العروس (٣/٩) ، (غذم) .
٧ تاج العروس (٣١/٩) ، (قلم) .
٨ وورد بالصاد .
٩ تاج العروس (٧٩/٥) .
١٠ تاج العروس (١٠٠/٧) ، (أرك) .
١١ تاج العروس (١٨/٥ وما بعدها) ، (حرض) .

لا ورق لها ، وقيل إنه (الهرم) ، وهو إذا أصابه المطر نبت سريعاً ، وإذا أكلته الإبل ، فلم تبعر ولم تسلح مسرعة ماتت ، وبذلك فسروا تسمية (الهرم) هرماً[1] .

وقد يضطر أصحاب الماشية الى اطعامها ما ينبت في الأرض السبخة ، أي ذات الملح . يقال (ملح الماشية) ، بمعنى أطعمها سبخة الملح[2] . و (السبخة) ، أرض ذات نز وملح ، وهي لا تكاد تنبت إلا بعض الشجر والنبات[3] . وتوجد السباخ في مواضع من جزيرة العرب ، في الأماكن الوطئة ، حيث تنز الأرض ، ويعلوها الملح ، وتكون رخوة .

ولفظة (رعى) من الألفاظ التي كثر ورودها في الكتابات الصفوية ، وهي كتابات أصحابها رعاة ، كانوا يتنقلون مع ماشيتهم من مكان الى آخر في طلب المرعى،فكانوا يكتبون خواطرهم على الحجارة والصخور ، تخليداً لنزولهم هاتيك المواضع . وهم من عشائر مختلفة امتهنت الرعي ، فكانت تتنقل من مكان الى مكان . تتوغل في الربيع في البوادي ، فإذا انتهى الموسم ويبس الكلأ ، عادت الى مواضع قريبة من الحضر ، حيث يتوفر فيها الماء ، فترعى ماشيتها بكلأ هذه الأرضين ، وتبيع الى أهل المدر ، ما يكون عندها من وبر وأصواف ومنتوج ألبان .

وتثبت النصوص الصفوية أن أصحابها كانوا جماعة من الرعاة ، يتنقلون من مكان الى مكان ، بدليل الإشارة الى المرعى (همرعى) (هـ مرعى) ، (ها مرعى) ، أي (المرعى) والى الماء والى البقر والإبل والشياه (شهى) (شاهي) ، والأودية (هنخل) (هـ — نخل) (ها نخل) وغير ذلك من الألفاظ التي ترد على ألسنة الرعاة . فكان هؤلاء الصفويون يتنقلون مع الكلأ والماء لرعي ماشيتهم[4] .

---

١ تاج العروس (٧/٢٩٨) ، (الحيهل) .
٢ تاج العروس (٢/٢٢٩) ، (ملح) .
٣ تاج العروس (٢/٢٦١) ، (سبخ) .
٤ ديسو ، العرب في سورية قبل الاسلام (ص ٩٤ وما بعدها) .

أصناف الرعاة :

والرعاة على صنفين : رعاة الإبل ، وهم الممعنون في البوادي ، والذين يبيتون مع الإبل في المرعى لا يأوون إلى بيوتهم ، ولا يرعون غيرها ، وهم : (الجشر) أو هم الذين يرعون الإبل ، ويقيمون معها في المرعى ، ولا يرعون معها غيرها من بقية الحيوانات[1] . وهم جلّ الأعراب ، بل كلهم ، لأن حياة الأعرابي هي حياة رعي إبل ، يرعاها عند بيته أو على مبعدة منه . بات مع الإبل بعيداً عن بيته أو أهله اياماً أو موسم الربيع ، أو أقام عند خيمته مع إبله ، فهو راعي إبل في الحالتين .

وراعي الإبل ، هو الأعرابي الأصيل ، ابن البادية جوّاب بيداء ، لا يأكل البقل والخضر ، هو كما قال الراجز :

جوّاب بيداء بها غروف لا يأكل البقل ولا يريف
ولا يرى في بيته القليف[2]

ويقال للأعرابي الذي ينشأ في البدو والفلوات لم يزايلها : المقحم[3] .

ويكون هؤلاء الرعاة الأعراب من أبعد الرعاة عن (المصانع) ، أي القرى والحضر ، ومن أهلها ، لا يذهبون اليها ولا يتصلون بها[4] . فهم يعيشون في عالم خاص بهم بعيد عن القيود والتكاليف ، والتنويع في المأكل والمشرب .

ورعاة يرعون إبلاً ويرعون غيرها معها من بقر وخيل وغنم . وهم لعدم استطاعة البقر والغنم من التوغل في البادية والتعمق في طياتها ، لا يستطيعون الابتعاد عن الماء كثيراً ، لعدم استطاعة تلك الحيوانات الصبر على العطش كثيراً . ولهذا فهم على اتصال بالحضر وبالحضارة ، وهم مرحلة وسطى بين الحضارة وبين

---

١ تاج العروس (٣/١٠٠ وما بعدها) ، (جشر) ، قال الاخطل :
تسأله الصبر من غسان اذ حضروا والحزن كيف قراه الغلمة الجشر
« وانما قالوا له ذلك ، لانه كان يقول لهم : أنتم جشر ، أي رعاة ابل » ، تاج العروس (٩/١٧٤) ، (حزن) .
٢ تاج العروس (٦/١٢٣) ، (تريف) ، (٦/٢٢٧) ، (قلف) .
٣ تاج العروس (٩/١٧) ، (قحم) .
٤ تاج العروس (٥/٤٢٢) ، (صنع) .

الأعرابية ، وهم الجرثومة التي نبتت منها المجتمعات العربية الحضريـة في العراق وفي بلاد الشأم وفي جزيرة العرب ، وهم من أهل الخيام السود المنسوجة من شعر الماعز ، أو من صوف الأغنام . وقد أشير اليهم في التوراة ، وقد كانوا يسكنون شرق العبرانيين وفي أرض فلسطين .

وكانوا ينتجعون أيام الكلأ فتجتمع منهم قبائل شتى في مكان واحد ، فتقع بينهم ألفة ، فإذا افترقوا ورجعوا الى أوطانهم ساءهم ذلك ، وقد عرف هؤلاء بـ (الخلطاء) . كما كانوا يتشاركون في الرعي ، وذلك أن يستأجروا راعيـاً أو رعاة ، ويقدم كل واحد من الشركاء ما يريد تقديمه من الإبل أو الشياه ، ويحتمل كل واحد من المتشاركين أجر الرعي ، حسب عدد إبله أو شياهه[1] .

ولا يشترط في الراعي ، أن يكون أجيراً لغيره يرعى إبل وماشية غيره ، فقد يكون راعياً ، وهو مالك لإبله ولبقية الماشية التي يرعاها ، وهو إنما سُمّي راعياً لأنه اتخذ الرعي وسيلة للحياة يعيش عليها ، ويجوز أن يكون قد ورثها عن آبائه وأجداده ، ويجوز أن يكون قد اختارها هو حرفة له ، كما يجوز أن يكون راعياً لمال غيره من أهل قبيلته أو من الأبعدين ، وقد يكون هؤلاء من أهل الحواضر المستقرين ، يسلمون ما لهم للرعاة ، لترعى في البوادي ، وليكثر نسلها وتصح أجسامها ، فإذا أرادوا بيعها طلبوا من الرعاة اعادتها اليهم .

ويقوم الأبناء في العادة برعي إبل الأب والعائلة ، ونجد في القصص إشارات اليهم ، لطمع الرجال في الإبل ، وازدراءهم شأن الراعي لصغر سنه ، فيستاقون إبله ، مما يتسبب عن ذلك تعقب السراق ، ووقوع حوادث بينهم وبين أرباب الإبـل .

ولا يربي الرعاة الدجاج والبط والحمام والأوز والطيور المختلفة والخنازير ، انما يربيها أهل الريف . والريف ما قارب الماء من أرض العرب وغيرها ، وأرض فيها زرع وخصب ، أو حيث تكون الخضر والمياه والزروع[2] . وتربية الدجاج حرفة ينظر العربي اليها نظرة ازدراء واستهجان ؛ فلا يليق برجل حـرّ يحترم نفسه ، ان يخدم طيراً أو حيوانـاً صغيراً كالدجاجة ، ولذلك كانت من حرف

---

١ تاج العروس (٥/١٣٢) ، (خلط) .
٢ تاج العروس (٦/١٢٣) ، (تريف) .

(النبط) والعرب المتنبطة ، أي أهل الريف ممن خالط النبط ، أي بني إرم ، ومن تأثر بهم . وقد ربى أهل القرى الدجاج والطيور ، لأكلهم ، إذ كانوا يأكلون لحم الدجاج . ذكر ان الرسول والصحابة أكلت لحومها[1] ، ونجد الشعراء يشيرون إلى صياح الديكة عند دنوهم من الأرياف ، لتربيتهم الدجاج واعتنائهم بها ، واعتبارهم لحومها من ألذّ اللحوم .

وترعى الماشية في القرى وفي المزارع بما يظهر من أخضر على وجه الأرض بعد الحصاد ، ويقال لذلك : المحشرة[2] .

الرعاة والحضارة :

وقد حدث في الجاهلية ما يحدث اليوم : يتنقل الأعراب بمواشيهم وبيوتهم وكل ما يملكون من باطن جزيرة العرب في الجفاف ، فيتجهون نحو الشمال ، نحو بلاد الشأم والعراق للرعي والاكتيال . ينزلون هناك جماعات حيث يجدون الماء والكلأ ، في مواضع مختلفة قد تكون بعيدة عن القرى والمدن ممعنة في البادية ، وقد تكون في أطراف القرى وبين الحضر ، وقد يدخلون بين الحضر للاكتيال والامتيار وللري في مواضع العشب والكلأ المحيطة بهم . وهم على هذه الحالة ما دامت بهم حاجة إلى كل أولئك ، فإذا انتهت أو شح ما قصدوه انتقلوا إلى مواضع أخرى ، وهكذا كانت سنّة البدوي في الحياة .

وقد كانوا يفدون دوماً من باطن الجزيرة ، فيتوغلون في بادية الشأم ومنهم من كان يمعن في التوغل في تلك البادية حتى يصل أقصاها ،أي أعاليها في الشمال ، فيدخل الأرضين الجنوبية من (تركية) في الوقت الحاضر ، وأعالي العراق وبلاد الشأم . ومنهم من كان يجد له طيب العيش والمقام ، في هذه المهابط والمواطن الجديدة ، فيقيم بها ، وقد يتحضر قوم منهم ، ومن هؤلاء تولد حضر العرب في هذه الديار .

ولمّا كان في مجيء الأعراب على هذه الصورة محاذير وأخطار على الحضر وعلى الحكومات ، اضطرت الحكومات المسيطرة على العراق وبلاد الشأم الى اتخاذ وسائل

---

١ تاج العروس (٢/٣٨) ، (دج) .
٢ تاج العروس (٣/١٤٢) ، (حشر) .

الحماية المختلفة لحماية أرضهـــا منهم ، فبنت المسالح ووضعت الحرس في المواضع المشرفة على البوادي الممسكة بعنان طرقها ، لمراقبة القادم والخارج ولابلاغ رجال الأمن بدنوّ الخطر ، وحذرت من الأعراب ، فأشرفت على حركاتهم وسكناتهم خشية انتهازها فرص الضعف ، فتعبث على عادتها بالأمن . وقد أنشأ الرومـــان واليونان بركاً واتخذوا صهاريج لخزن مياه الأمطار ليستفيد منها الأعراب وليجدوا فيها ما يحتاجون اليه ، فلا يتوغلوا عميقاً في بلاد الشأم ، كما أقامـوا حصوناً في أطراف البادية لمراقبة حركات الأعراب .

وهكذا أمـــن حكّام الشأم من خطر الأعراب ، بعد أن اتبعوا معهم سياسة الترضية والتهدئة للاستفادة منهم في حفظ الحدود . وأقـام قسم من الأعراب في المواضع التي تتوافر فيها المياه ، وزرعوا ، واشتغلوا ببعض الحرف مثـــل غزل الأصواف ونسجها ، والتوسط في التجارة بين الأعراب وسكان المدن والقرى البعيدة عن البادية من بلاد الشأم ، وزرع الحبوب وأشجار الزيتون والكروم . واستفادوا من هذا الحاصل الزراعي ببيعه للأعراب المحتاجين اليه .

ولا حاجة بي إلى الاشارة إلى أثر المراعي في حياة جزيرة العرب ، وفي حياة الأعراب بصورة خاصة . فعلى المراعي تتوقف حياة الماشية عماد الثروة والمال لأهل البادية ، وهي من أهم المشكلات العويصة بالنسبة اليهم وإلى الحكومات حتى الآن. والأعرابي ومعه ماشيته وراء المراعي يفتش عنها في كل مكان،وينتقل اليها ليجد فيها الكلأ لماشيته . وسبب هذه المشكلة هو قلة وجود الماء في جزيرة العـرب ، وقلة الأمطار وانحصارها في مواسم ضيقـــة لا تمتـد طويلاً ، وانحباسها في بعض السنين ، مما يسبب قصر زمن الرعي ، وجفاف الكلأ والتأثير في حياة الماشية بحيث تتعرض للهلاك والموت . وهذا مما يحمل القبائل على التنقل من مكان إلى مكان ، فتتزاحم وتتطاحن للاستيلاء على المراعي .

الفصل الرابع والتسعون

الثروة الحيوانية

والحيوان ثروة مهمة وخاصة لتلك البلاد الفقيرة التي لا تملك صناعة ، والتي تكون مواردها الطبيعية محدودة . فتعوض عن الصناعة بتربية الحيوان وبالزراعة إن توفر الماء . والإبل مصدر ثروة عظيمة في الجاهليـة ، لاستفادتهم منها في أمور كثيرة عديدة . وبعدد الإبل تقاس الثروات . والإبل المال عند العرب ، وأساس التعامل بينهم . قال بعض العلماء : « المال في الأصل ما يملك من الذهب والفضة، ثم أطلق على كل ما يقتنى ويملك من الأعيان . وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل ، لأنها كانت أكثر أموالهم »[1] . وفي الحديث نهي عن اضاعة المال. قيل أراد به الحيوان ، أي يحسن اليه ولا يهمل[2] .

ويطلق العرب على الإبل والبقر والشاء (النعم) ، وزاد بعض علماء اللغة المعز والضأن . وذكر بعض آخر ، ان النعم ، إنما خصت بالإبل ، لكونها عنـدهم أعظم نعمة . وقيل إن العرب إذا أفردت النعم ، لم يريدوا بها إلا الإبل ، فإذا قالوا الأنعام : أرادوا بها الإبل والبقر والغنم[3] .

ويراد بـ (الماشية) ، الإبل والغنم ، وقيل الإبل والبقر والغنم ، وقال بعض العلماء ، وأكثر ما يستعمل في الغنم ، وقيل : كل مالٍ يكون سائمة للنسل والقنية

---

١ تاج العروس (٨/١٢١) ، (موّل) .
٢ تاج العروس (٨/١٢١) ، (موّل) .
٣ تاج العروس (٩/٧٩ وما بعدها) ، (نعم) .

من إبل وشاء وبقر ، فهي ماشية . وأصل المشاء النماء والكثرة . ومشت الماشية مشاءً كثرت أولادها [1] .

و (الشاة) ، الواحدة من الغنم ، تكون للذكر والأنثى ، أو يكون من الضأن ، والمعز ، والظباء ، والبقر ، والنعام ، وحمر الوحش . وفي الحديث : فأمر لها بشياه غنم ، انما أضافها إلى الغنم ، لأن العرب تسمي البقرة الوحشية شاة ، فميزها بالاضافة لذلك ، وشاء ، وشياه ، وشواه ، وأشاوه ، وشوىّ ، وشيه ، في حالة الجمع [2] .

و (السوام) و (السائمة) ، الإبل الراعية ، وقيل كل ما رعى من المال في الفلوات ، إذا خلى وسومه يرعى حيث شاء . والسائم الذاهب إلى وجهه حيث شاء ، يقال سامت السائمة ، وأسأمها هو ، أي أرعاها أو أخرجها إلى الرعي . وذكر ان السوام والسائمة كل إبل ترسل ترعى ولا تعلف في الأصل . وسوّم الخيل ، أرسلها إلى المرعى ، ترعى حيث شاءت [3] .

والجمل هو الحيوان الوحيد الذي رضي بمرافقة الأعراب وبمشاطرتهم حياتهم في البوادي . ألفهم وعاشرهم وشاركهم في مسرّاتهم وفي أحزانهم ، صابراً راضياً، يحملهم ويحمل أثقالهم ، لا يسألهم على ذلك أجراً ، وهو مع ذلك طعامهم إذا جاعوا ، أو شعروا انه قد مرض مرضاً لا يرجى شفاؤه،أو انه قد كبر وأسنّ ، فصار لا يصلح للعمل ، ومن وبره صنعوا خيامهم . وهو قنوع يقنع بالقليل ولا يطالب بالكثير . ويصبر على العطش والجوع ، لا يباريه في هذا الصبر أي حيوان من الحيوانات التي ألفت الانسان وقاسمته حياته . إذا اخضرت الأرض ، وجد طعامه هبة ، لا يكلف مالكه شيئاً عن اقتضامه له ، وإذا يبست الأرض ، قنع بالتهام اليابس ، وبتناول العوسج ونباتات البر ، التي يكون عمرها أطول من عمر الكلأ ، وإذا بَعُدَ الماء صبر على العطش حتى يجده،لا يلح على صاحبه بوجوب تقديم الماء له ، كما تفعل الخيل والحمير والبغال .

وتعدّ لحوم الإبل من اللحوم اللذيذة الطيبة عند العرب . وتنحر عند قدوم شخصية كبيرة تقديراً لها ، وتنحر تقرباً الى الأصنام وفي المناسبات الدينية ، وتعقر

---

١ تاج العروس (١٠/٣٤٣) ، (مشى) .
٢ تاج العروس (٩/٣٩٥ وما بعدها) ، (شوه) .
٣ تاج العروس (٨/٣٥٠) ، سوّم) .

القبور إكراماً لصاحب القبر ، ويبيع الجزّارون لحومها وسائر اللحوم الأخرى . ونظراً الى أهمية الإبل بالنسبة الى حياة الأعراب ، ولغلاء ثمنها ، ولعدم تمكنهم من شراء عدد كثير منها ، إلا بالنسبة للموسر منهم ، اقتصدوا في ذبحها ، إلا لعلة قاتلة ومرض مهلك ، لأنها أصول أموالهم ، فهم يريدون إكثارها ، وفي اكثارها اكثار لأموالهم ، ولا سيما في إكثار الإبل النجيبة التي لا توازى عندهم بثمن ، والتي تعدّ مقياس الثراء والجاه والغنى عند العرب .

وإذا مات فصيل الناقة أو ذبح ، سلخ برأسه وقوائمه ثم حشي جلده تبناً لتزأمه أمه وتشم رائحته ، فتدر عليه ولا ينقطع لبنها ، فتحلب . ويقال للجلد المحشو بالتبن (البو)[1] .

و (الأشراط) الإبل أو الغنم تعزل للبيع . و (الشريطة) ، الجماعة المعزولة منها ، المعدّة للبيع[2] .

والجمل ، هو الحيوان الوحيد الذي لم يجد الأعرابي في تربيته بأساً ولا غضاضة ، ولا حطة لقدر ومنزلة . فاجتناه وتباهى به وافتخر ، وجعله مقياس ثرائه وماله ، وأعز شيء عنده في حياته ، وما الذي يملكه الأعرابي في دنياه غير هذا الجمل ! أما البقر والغنم والحمير والبغال ، فهي دون الجمل في المكانة والمنزلة عنده ، فترفّع لذلك عن تربيتها ، واعتبر تربيتها وخدمتها وبيعها عملاً من أعمال (النبط) والخدم والعبيد والأعاجم . وكيف يقبل أن ينظف تلك الحيوانات وأن يجمع روثها ، ويتحمل سقوط أبوالها عليه ، وأن يشم رائحة أرواثها وبولها ، وهي حوله أو في بيته ، والروث قذارة . وكيف يرضى أن يحشها وأن يقدم لها العلف والقت ، ثم تروّث له . جاء في المثل : أحشك وتروثني[3] ؟ .

والجمل قليل الكلفة ، لا يكلف أكله صاحبه كثيراً ، يعيش على ما تنبته الأرض ، وعلى ما يجده على وجهها من يابس النبات ، ومن عوسج ونبات ذي شوك ، ومن نباتات أخرى تتبطر عليها بقية الماشية . وهو لا يطلب من صاحبه علفاً غالياً ، أو متنوعاً ، كما تفعل بقية الماشية ، مثل البقر والخيل والغنم

---

١ الفاخر (٢٤٩) .
٢ تاج العروس (١٦٧/٥) ، (شرط) .
٣ تاج العروس (٦٢٦/١) ، (راث) .

والحمير ، مع انها ليست في صبر الجمل ولا في قدرته على تحمّل المشقات وحمل الأثقال إلى مسافات طويلة في البوادي ، وفي الرمال التي تفزع منها بقية الماشية ، وتهلك إن اجبرت على السير بها .

والإبل من حيث الأصالة والعرق أجناس وأصناف ، فيها الإبل الأصيلة التي يفتخر أصحابها بها ، ويظنون على غيرهم بها ، ولا يعطون منها لأحد ، وفيها الإبل الرخيصة ، من الصنف الواطيء المعدود للبيع ، لخساسة جنسه ، ولعدم نجابته . وكان الملوك وسادات القبائل يجنون الأصيل من الإبل ، فكان (النعمان ابن المنذر) ، وهو من أصحاب الهوايات في حيازة النادر من الأشياء ، يمتلك الإبل الجيدة ، ومنها إبل عرفت بـ (عصافير النعمان) . وقد أمر للنابغة بمائة ناقة من عصافيره بريشها وحسام وآنية من فضة ، أعطاها بريشها ليعلم أنها من عطايا الملوك . وكانت للملك (المنذر) ملك الحيرة إبل نجائب منهن إبل عرفت بـ (عصافير المنذر »[1] .

ومن الابل الجيدة الشهيرة ، النجائب القطريات . نسبت الى قطر وما والاها من البر[2] . و (المهرية) ، وقد نالت حظاً واسعاً من الشهرة حتى زعم أنها من إبل الجن[3] . وقد اشتهرت (جرش) ، باليمن بإبلها . فقيل (ناقة جرشية) وبعير جرشي[4] . والأرحبيات من نجائب الابل الكريمة ، منسوبة الى بني أرحب من همدان[5] ، والصدفية ، والجرمية ، والداعرية[6] .

وكانوا لا يبيعون الإبل النجيبة ، إلا عن اضطرار . ويسمونها (الحرائز) . ذكر علماء اللغة ان الحرائز من الإبل التي لا تباع نفاسة . ومنه المثل : لا حريز من بيع ، أي ان أعطيتني ثمناً أرضاه لم أمتنع من بيعه . والحرزة خيار المال ، لأن صاحبها يحرزها ويصونها ، ومنه الحديث في الزكاة : لا تأخذوا من حرزات أموال الناس شيئاً ، أي من خيارها[7] .

---

١ تاج العروس (٣/٤٠٨) ، (عصفر) .
٢ تاج العروس (٣/٥٠٠) ، (قطر) .
٣ تاج العروس (٣/٥٥١) ، (مهر) .
٤ تاج العروس (٤/٣٨٧) ، (جرش) .
٥ تاج العروس (١/٢٦٨) ، (رحب) .
٦ الصفة (٢٠١) .
٧ تاج العروس (٤/٢٤) ، (حرز) .

وللعرب مصطلحات يقولونها في الإبل إذا كثر عددها . منها (الهجمة) القطعة الضخمة منها ، قيل : أولها أربعون إلى ما زادت ، و (الهنيدة) ، المائة فقط ، وقيل : هي ما بين الثلاثين والمائة ، أو ما بين السبعين والمائة ، أو ما بين السبعين إلى دوينها ، أو هي ما بين التسعين إلى المائة . وقال بعض علماء اللغة : إذا بلغت الإبل ستين ، فهي (عجرمة) ، ثم هي (هجمة) حتى تبلغ المائة [1] . وتطلق لفظة (الكور) على الجماعة الكثيرة من الإبل [2] .

والعارض الناقة المريضة أو الكسير ، وهي التي أصابها كسر أو آفة ، وكانوا ينحرون العوارض، ومن عادتهم انهم لا ينحرون الإبل إلا من داء يصيبها ،وتقول العرب للرجل إذا قدم اليهم لحماً أعبيط أم عارضة . فالعبيط الذي ينحر من غير علة . والعرب تعير من يأكل العوارض ، ومن ينحر الإبل المريضة للضيوف [3] .

ويقال للإبل وللبقر (العوامل) [4] ، ويظهر أن ذلك بسبب تشغيل أهل القرى لها في كثير من الأعمال في مثل الحمل وسحب الماء من الآبار والحراثة وأمثال ذلك من أعمال . وأطلقت اللفظة على بقر الحراثة والدياسة . وفي حديث الزكاة : ليس في العوامل شيء... العوامل من البقر، هي التي يستقى عليها ويحرث وتستعمل في الأشغال [5] .

وذكر (الهمداني) أن بالعربية الجنوبية من البقر الجندية والحديرية والجبلانية ، وهي قوية [6] . وقد استخدم أهل العربية الجنوبية البقر في الحراثة ، وكذلك غيرهم في معظم أنحاء جزيرة العرب .

والخيل جماعة الأفراس [7] . و (الفرس) للذكر والأنثى ، ولا يقال للأنثى فرسة [8] . و (الحصان) الفرس الذكر ، أو هو الكريم المضنون بمائه ، حتى

---

١ تاج العروس (٩/٩٩) ، (هجم) ، (٢/٥٤٧) ، (هند) .
٢ تاج العروس (٣/٥٣٠) ، (كور) .
٣ تاج العروس (٥/٤٢) ، (عرض) .
٤ تاج العروس (٨/٣٤) ، (عمل) .
٥ تاج العروس (٨/٣٥) ، (عمل) .
٦ الصفحة (٢٠١) .
٧ تاج العروس (٨/٣١٥) ، (خيل) .
٨ تاج العروس (٤/٢٠٦) ، (فرس) .

. سمّوا كل ذكر من الخيـــل حصاناً[1] . و (الحجر) ، الأنثى من الخيـــل[2] . و (الطحون) الكتيبة من الخيل[3] .

لم تكن الخيل كثيرة في الحجاز عند ظهور الاسلام . ففي معركة (بدر) لم يكن مع المسلمين سوى فرسين ، فرس للمقداد بن عمرو ، وفرس لمرثد بن أبـي مرثد[4] ، ولم يكن مـــع قريش سوى مائة فرس[5] . فقـــد كانت غالية الثمن ، وتكاليفها عالية ، فعسر على من لا مال له شراؤها والانفاق عليها . وقد ورد في بعض الروايات أن (المقداد بن عمرو) ، كان فارس يوم بدر ، حتى انـــه لم يثبت انه كان فيها على فرس غيره . وكان اسم فرسه (سبحة)[6] .

والأخدرية من الخيل منسوبة الى (أخدر) فحل أفلت فتوحش ، ذكر أهل الأخبار انه كان لسليمان ، أو لأزدشير (أردشير) . وهناك حمر عرفت بالأخدرية كذلك ، ذكروا انها منسوبة اليه أيضاً . والخدري ، الحمار الأسود ، والأخدري وحشيه ، ويقال للأخدرية من الحمر بنات الأخدر[7] .

والأغنام عند الحضر وأشباههم ، يربونها للاستفادة من لحومها وألبانها وأصوافها ، ولحاجتها إلى الماء والكلأ والعلف بصورة دائمة ، صارت من ماشية أهل الحضر والمراعي . وهي مصدر ثروة لأصحابها ، تصدّر إلى أسواق العراق وبلاد الشأم لبيعها هناك . ومن أنواعها المشهورة : الكباش العوسية . والعوس ، ضرب من الكباش البيض[8] ، ويكون صوفها أبيض ، وهو مرغوب مطلوب .

و (المعز) خلاف الضأن من الغنم ، والمعز ذوات الشعور ، والضأن ذوات الصوف ، و (الماعز) واحد المعز[9] . ويستفاد من لحوم المعز ومن ألبانها وشعرها. وكان أعراب بادية الشأم الساكنين على مقربة من فلسطين ، يتخذون بيوتهم من

---

١ تاج العروس (٩/١٨٠) ، (حصن) .
٢ تاج العروس (٣/١٢٥) ، (حجر) .
٣ تاج (٩/٣٦٨) ، (طحن) .
٤ الطبري (٢/٤٧٨) .
٥ الطبري (٢/٤٧٧) .
٦ الاصابة (٣/٤٣٤) ، (رقم ٨١٨٥) .
٧ تاج العروس (٣/١٧١) ، (خدر) .
٨ تاج العروس (٤/١٩٩) ، (العوس) .
٩ تاج العروس (٤/٨٢) ، (معز) .

شعر الماعز ، كما تتخذ البسط والسجاجيد منها . و (العنز) الأنثى من المعز . ويكثر وجود المعز البري في جبال السراة وفي المناطق الصخرية ، حيث يعيش على الأشجار والأعشاب البرية . ويربي الرعاة المعز ، حيث يأخذون قطعانها الى المواضع المعشبة القريبة من الماء لترعى هناك ، وتربى بصورة خاصة في الأرضين الجبلية والمتوجة ، حيث يتسلق المعز المرتفعات ، فيأكل ما يجده أمامه من شجر وحشائش .

الطيور :

وقد عني أهل المدر وأهل الريف ، بتربية الطيور . وعلى رأسها الدجاج . وقد عدّ أكله من طعام المترفين المتمكنين ، لارتفاع ثمنه بالنسبة الى الفقراء ، وكانوا يتفننون في طبخه . وقد أكله النبي والصحابة [1] .

والأوز عند العرب البطّ ، صغاره وكباره [2] . ويعدونه من طير الماء،ويذكر علماء اللغة أن (بطة) و (بط) من الالفاظ المعربة [3] . واللفظة إرمية أصلها في لغة بني إرم (بطو) [4] .

ويربي الزرّاع الحيوانات للاستفادة منها في الخدمات الزراعية وفي معاشهم ، كالجمال للنقل والحراثة ومتْح الماء من الآبار العميقة ، والبقر للانتفاع بألبانها ولحومها وللحراثة ومتح الماء ، والضأن والمعز والدجاج وغير ذلك من الحيوانات الأخرى الأليفة ، مثل البط والأوز ، وغيرها ، مما يربيه الحضر وأهل الريف .

تربية النحل :

والنحل ذباب العسل ، يقع على الذكر والأنثى [5] . و (اليعسوب) أمير النحل

---

١ تاج العروس (٢/٣٨) ، (دجّ) .
٢ تاج العروس (٤/٥) ، (الاوز) .
٣ تاج العروس (٥/١٠٨) ، (بطّ) .
٤ غرائب اللغة (١٧٤) .
٥ تاج العروس (٨/١٢٩) ، (نحل) .

وذكرها والرئيس الكبير[1] . والعسل من الأغذية الثمينة عند أهل الجاهلية ، وقد استعملوه في المعالجة من أمراض عديدة ، نص عليها في كتب الحديث والطب . وقد أطلق العرب لفظة (العسل) على ما يشبه العسل في الحلاوة أو في الشكل ، فقالوا : عسل العرفط ، وهو صمغ العرفط لحلاوته ، وعسل اللبنى ، صمغ ينضح من شجرة ، يشبه العسل لا حلاوة له ، ويتبخر به ، وعسل الرمث،شيء أبيض يخرج منه كالجمان[2] . ويعسل النحل في (الخلى) ، وقد يتخذ النحل خليته بنفسه ، في الجبال وفي البساتين ، فتكون خلايا طبيعية ، وقد يعمل الانسان بيده خلية النحل ، كما يفعل من يربي النحل ، فيتخذ لها ما يشبه الراقود من طين،ويقال لها (كوارة) ، أو خشبة تنقر ليعسل فيها ، وأشياء أخرى[3] . وهي خلايا أهلية . و (الكور) موضع الزنابير ، و (كوارة النحل) ، شيء يتخذ للنحل من القضبان والطين ، ضيق الرأس تعسل فيه ، وقد يراد باللفظة العسل في الشمع[4] . و (الشمع) الموم كذلك[5] . و (الجزع) خلية النحل[6] .

وتعزل للنحل مواضع منتبذة عن البيوت يقولون لها : (المصانع) ، واحدتها مصنعة[7] .

والنحل من الجوارس في اصطلاح أهل الأخبار ، ويعنون بذلك أنه يلحس الشجر والنور للتعسيل . فهو من الجوارس[8] .

وقد عدّ (سترابون) العسل من جملة المحصولات التي اشتهرت بها العربية السعيدة ، وذكر أنه كثير جداً فيها[9] . وهو كثير في اليمن ، ولا تزال اليمن على شهرتها به[10] .

وقد كانت الجبال والهضاب المنعزلة ، من مواطن النحل الوحشي ، وهناك

---

١ تاج العروس (١/٣٨١) ، (عسب) .
٢ تاج العروس (٨/١٧) ، (عسل) .
٣ تاج العروس (١٠/١١٨) ، (خلا) .
٤ تاج العروس (٣/٥٣١) ، (كور) .
٥ تاج العروس (٩/٧٠) ، (الموم) .
٦ تاج العروس (٥/٣٠١) ، (جزع) .
٧ تاج العروس (٥/٤٢٣) ، (صنع) .
٨ تاج العروس (٤/١١٨) ، (جرس) ، (٣/٧٨) ، (ثمر) .
٩ مجلة المجمع العلمي العراقي (٢/٢٤٧) .
١٠ أحمد فخري ، اليمن ماضيها وحاضرها (٢٣) .

(معيدون)[1] ، حذقوا الرقي والنزول من الجبال ، يذهبون الى الجبال للبحث بين صخورها عن خلايا للنحل لاستخلاص العسل منها . وقد اشتهرت جبـال (بني سُليم) ، بكثرة ما بها من عسل ، وبقيت على شهرتها هذه في الإسلام[2] .

وقد عني الحضارمة بتربية النحل ودرّ العسل عليهم ربحاً طيباً . ونجد في كتاب رسول الله لربيعة بن ذي مرحب الحضرمي واخوته وأعمامـه « أن لهم أموالهم ونحلهم ورقيقهم وآبارهم وشجرهم ومياههم وسواقيهم ونبتهم وشراجعهم بحضرموت »[3] وفي ذكر النحل بعد الأموال ، اشارة الى أهميته وكونه من مصادر الرزق عندهم في ذلك الوقت .

الأسماك :

وقد أشير في القرآن الكريم الى صيد البحر ، فورد فيه : « أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيّارة ، وحرم عليكم صيد البرّ ما دمتم حرماً، واتقوا الله الذي اليه تحشرون »[4] . وصيد البحر ، ما يصطاد من البحـار من حيوانات تعيش فيه . وقد كان العرب يعتاشون من البحر ، ولا سيما سكان السواحل حيث يسدّ هذا الصيد جزءاً مهماً من معيشتهم ، فيستعملون ما يحتاجون اليه ، ويبيعون الفائض منه ، أو يتقاضون به . وقـد كان سكان السواحـل يخرجون بالوسائل المتيسرة لهم لصيد السمك ؛ ومنهم من يصطاد عند السواحل فيجمع ما يقع تحت يديه ليستفيد منه .

ويقال لصياد السمك (العركي) كذلك . ولهذا قيل للملاحين (عرك) لأنهم يصيدون السمك . وفي الحديث ان النبي كتب إلى قوم من اليهود على ساحل خليج العقبة عليكم ربع ما أخرجت نخلكم ، وربع ما صادت عروكـم ، وربع المغزل. والعروك جمع عرك ، وهم الذين يصيدون السمك[5] .

---

١ المخصص (٨/١٨٠) .
٢ ابن المجاور (١/١٤) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٦) .
٤ المائدة ، الآية ٩٩ .
٥ تاج العروس (٧/١٦١) ، (عرك) ، القاموس (٣/٢١٣) ، المخصص (١/٢٨) .

وقد عاش على صيد البحر خلق كثير من سكنة السواحل ، في ذلك الزمن ، حيث كانت سبل العيش عندهم قليلة ضيقة . وقد استفادوا من الحيتان والأسماك الأخرى الكبيرة بصورة خاصة للحمها الغزير ، ولاستعمال عظامها وهي كبيرة في حاجات متعددة ، حتى جلودها استفادوا منها . والحيتان معروفة في البحر الأحمر وفي البحر العربي والخليج . وهي لضخامتهـا يحتاج في صيدها الى آلات والى أيدي متعددة . وقد أشير اليها والى ضخامتها في القرآن الكريم .

والحوت ، في رأي بعض علماء اللغة السمك كله . ولكن الغالب أنه ما عظم منه ، والسمك في العرف أصغر من الحوت .

ويجفف السمك في الشمس ، ويملح أحياناً ، ويجفف في الهواء ليؤكل وقت الحاجة اليه . وقد يستعمل علفاً للحيوانات . وقد يطحن السمك المجفف ويؤكل طحينه ، ويجعل علفاً للحيوانات . وقد يحفظ السمك في ماء مملح أو في خلّ ، ويقال للسمك المملح ما دام طرياً (القريب)[1] . وأما السمك المنقور في ماء وملح ، فهو (النشوط)[2] ، والمقر السمكة المالحة أو المنقعة في الخل[3] . و (الحساس) ، سمك يجفف ويسمى (قاشعاً) كذلك[4] .

ومن حيوان البحر (التّامور)[5] ، و (الاطوم) سلحفاة بحرية غليظة الجلد ، يشبه بها جلد البعير الأملس وتتخذ منها الخفاف للجمالين ، وتتخذ منهـا النعال . وقيل : انها سمكة عظيمة ، يقال لها المصلة والزاخة ، تحذى من جلدها النعال[6] . و (النكيع) دابة من دواب البحر[7] ، و (الزجر) ، سمك عظام[8] ، و (اللخم) سمك بحري ، ضخم لا يمر بشيء إلا قطعه ، وهو يأكل النـاس . وقيـل هو الكوسج ، وقيل القرش[9] . و (الجمل) ، كاللخم من السمك الضخم ، ويقال

---

١ القاموس (١/١١٥) ، (قرب) ، تاج العروس (١/٤٢٥) ، (قرب) .
٢ القاموس (٢/٣٨٨) ، (نشط) ، تاج العروس (٥/٢٣٢) ، (نشط) .
٣ القاموس (٢/١٣٦) ، (مقر) ، تاج العروس (٣/٥٤٨) ، (مقر) .
٤ المخصص (١٠/٢٠) ، القاموس (٢/٢٠٧) .
٥ المخصص (١٠/٢٠ وما بعدها) .
٦ القاموس (٤/٧٥) ، تاج العروس (٨/١٨٧) ، (أطم) .
٧ المخصص (١٠/٢٠ وما بعدها) .
٨ القاموس (٢/٣٨) ، تاج العروس (٣/٢٣٤) ، (زجر) .
٩ تاج العروس (٩/٥٨) ، (لخم) .

له (البال) ، قيل إن طول السمكة منه ثلاثون ذراعاً ، ويقال هي (الكبع)[1] . و (الكبع) ، جمل البحر ، وقيل سمك بحري وحشي الهيئة ، ومنه يقال للمرأة الدميمة : يا وجه الكبع[2] . و (الكنعد) و (الكنعت) ضرب من سمك البحر[3] . و (سابوط) دابة من دواب البحر[4] . و (قضاعة) اسم كلب الماء ، وقيل كلبة الماء[5] . و (قبع) دويبة بحرية[6] ، و (الدوع) ضرب من الحيتان بلهجة أهل اليمن ، وسمكة حمراء صغيرة كأصبع[7] . و (العنز) ، ويقال لها (عنز الماء) أيضاً ، سمكة كبيرة ، لا يكاد يحملها بغل[8] .

و (الجريث) سمك يقال له (الجريّ) . ويظهر أن اليهود كانوا لا يأكلونه، ولما جاء الإسلام ، سألوا عن أكله ، فاختلف الناس فيه ، فمنهم من أباحه ومنهم من نهى عنه . وذكروا اسم نوع آخر من السمك اسمه (الصلور) ، قالوا إنه (الجريث) ، وأما (الانقليس) ، فإنه (مار ماهي) بالفارسية ، أي حية الماء[9] . وقد ذكر أحد الشعراء أن الأزد كانوا يأكلون : (الشيم) ، والجريث ، والكنعد[10] ، و (الشيم) نوع من السمك أيضاً[11] . فقال :

قل لطغام الأزد لا تبطروا بالشيم والجريث والكنعد[12]

وقد كان أهل البحرين يحملون (الكنعد) المالح في الجلال البحرانية . يستخرجونه من البحر . وذكر الشاعر (جرير) هذا السمك أيضاً ، وذكر أنهم كانوا يشوونه ويأكلونه مع البصل[13] .

---

١ تاج العروس (٧/٢٦٣) ، (جمل) .
٢ تاج العروس (٥/٤٩٠) ، (كبع) .
٣ القاموس (١/١٥٦ ، ٢٣٤) ، تاج العروس (٢/٤٨٧) ، (كنعد) .
٤ القاموس (٢/٢٦٣) ، تاج العروس (٥/١٤٩) ، (سبط) .
٥ القاموس (٣/٦٩) ، تاج العروس (٥/٤٧٠) ، (قضع) .
٦ القاموس (٣/٦٥) ، تاج العروس (٥/٤٥٧) ، (قبع) .
٧ تاج العروس (٥/٣٣٣) ، (داع) .
٨ تاج العروس (٤/٦١) ، (عنز) .
٩ تاج العروس (١/٦٠٩) ، (جريث) .
١٠ قل لطغام الازد لا تبطروا بالشيم والجريث والكنعد
تاج العروس (٢/٤٨٧) ، (كنعد) .
١١ تاج العروس (٨/٣٦٣) ، (شيم) .
١٢ تاج العروس (٢/٤٨٧) ، (كنعد) .
١٣ تاج العروس (٢/٤٨٧) ، (كنعد) ، (٩/١٣٥) ، (البحون) .

و (القرش) سمك ضخم كبير ، يقال له Shark في الانكليزية ، يستفاد من لحومه ، كما يستفاد من شحومه في الأغراض الطبية ، وقد يستفاد من جلوده الغليظة في صنع الأحذية . وزعم أهل الأخبار ، أن (القرش) ، دابة بحرية تخافها دواب البحر كلها [1] .

وأشير في الحديث الى دابة من دواب البحر ، يقال لها (العنبر) ، عثر عليها رجال سرية كان الرسول قد أرسلها الى ناحية السيف ، فجاعوا فأكلوها . ويذكر علماء اللغة أنها سمكة بحرية يبلغ طولها خمسين ذراعاً يقال لها بالفارسية (باله) تتخذ من جلدها الترسة ،فعرف الترس المتخذ منها بالعنبر . قال العباس بن مرداس :

لنا عارض كرهاء الصريم فيه الأشلة والعنبر

وذكر أن الناس كانوا يحتذون أحذية من جلد العنبر فيكون أقوى وأبقى ما يتخذ منه وأصلب [2] .

وقد اتخذوا من جلد الأسماك الكبيرة الخشنة مادة تحك بها السياط والقدحان والسهام والصحاف ، ويقال لهذا الجلد : (السفن) . وقيل : السفن جلد الاطوم تسوى قوائم السيوف من جلدها ، أو جلد أخشن غليظ كجلود التماسيح أو الضب يجعل على قوائم السيوف ، أو يسحج بها القدح حتى تذهب عنه آثار المبراة [3] .

وقد ذكر اللؤلؤ والمرجان في القرآن الكريم ، ويستخرج اللؤلؤ من أجواف الصدف . وقد اشتهر به أهل العربية الشرقية بصورة خاصة ، يستخرجه الغواصون من البحر . ولا تزال هذه المنطقة تستخرجه وتربح منه . ويوجد اللؤلؤ في البحر الأحمر ، ولا سيما قرب جدة والى الجنوب [4] ، لكنه لم يشتهر لؤلؤه شهرة لؤلؤ الخليج ، ولم يشتهر غواصو البحر الأحمر بالغوص [5] . ولعل اللؤلؤ الذي ذكر في القرآن الكريم هو من اللؤلؤ المستورد من الخليج . واللؤلؤ الدر في تفسير علماء اللغة [6].

---

١ تاج العروس (٤/٣٣٧) ، (قرش) ، القاموس (٢/٢٨٣) ، (قرش) .
٢ تاج العروس (٣/٤٢٦) ، (العنبر) .
٣ تاج العروس (٩/٢٣٦) ، (سفن) .
٤ ابن المجاور (١/١٠٥) .
٥ تويتشل ، المملكة العربية السعودية ، (ترجمة شكيب الاموي) ، (ص ٣٧) ، (القاهرة ١٩٥٥ م) .
٦ تاج العروس (١/١١٣) ، (لأل) .

وتعدّ جزيرة (فرسان) من مغاصات الدر ، أي اللؤلؤ[1] .

و (المرجان) مادة كلسية ، يفرزها نوع من الحيوانات البحرية نظير هيكل لوقاية جسمه من الأمواج . وقد تتوسع فتكون صخوراً مرجانية تكون خطراً على السفن . وله ألوان مختلفة ، من أبيض وآخر أحمر ، وبعضه متفرع على هيئة مروحة أو أشكال النبات . وتصنع منه حلي ، ولذلك عُدّ في جملة المواد الثمينة مثل اللآلىء التي تدخل في التجارة . وهو في البحر الأحمر ، ولا سيما في ساحل جزيرة العرب، كثير . ويظهر ان أهل الأخبار وعلماء اللغة ، لم يكونوا على علم واضح بالمرجان ، فذهب بعض منهم الى انه صغار اللؤلؤ ، وقال بعض آخر الى انه (البسذ) ، وهو جوهر أحمر[2] ، وذهب بعض آخر الى انه عظام اللؤلؤ ، وذهب آخرون الى انه خرز أحمر ، الى غير ذلك من آراء[2] . و (البسذ) ، لفظة فارسية[3] . وقد ذكر علماء التفسير ان (كعب الأحبار) قال : المرجان (البسذ)[4] .

والصدف ، وهو المحار ، غشاء اللؤلؤ . ويظهر أن أهل الجاهلية كانوا يرون أن السماء إذا أمطرت فتحت الأصداف أفواهها، فما وقع فيها من مطر فهو لؤلؤ[5]. وقد استفادوا من الصدف ، إذ اتخذوا منه حلياً وزينة . وأكلوا ما في جوفها . وهناك ألفاظ تؤدي معنى الصدف، مثل الجُمّ ، وهو صدف من أصداف البحر[6]. و (القبقب)[7] و (القنقن) ضرب من صدف البحر ، يعلق على الصبيان من العين[8] . و (الدوك) ضرب من صدف البحر[9]، والدلاع ضرب من محار البحر[10] .

وقد استفادوا من السلاحف ، ولا سيما البحرية منها . استفادوا من هيكلها ومن لحمها ، وعالجوا بعض الأمراض بدمها[11] . وذكر أن (الغيلم) السلحفاة ،

---

١ تاج العروس (٤/٢٠٦) ، (فرس) .
٢ تاج العروس (٢/٩٩) ، (مرج) .
٣ تاج العروس (٢/٥٥٤) ، (البسذ) .
٤ تفسير الطبري (٢٧/٧٦) .
٥ تفسير الطبري (٢٧/٧٧) ، تاج العروس (٦/١٦١) ، (صدف) .
٦ القاموس (٤/٩١) ، تاج العروس (٨/٢٣١) ، (جمّ) .
٧ القاموس (١/١١٣) .
٨ المخصص (١٠/٢٠) ، القاموس (٤/٢٦١) .
٩ المخصص (١٠/٢٠) .
١٠ القاموس (٣/٢٢) .
١١ تاج العروس (٦/١٤٥) ، (سلحفية) .

وقيل الذكر منها[1] . واتخذوا من عصب السلحفاة ومن عظامها خرزاً يظنم منهـا القلائد والأسورة[2] .

وفي جزيرة العرب حيوانات وحشية ، منهـا ما كانت مؤذية وهي السباع . ومنها ما كانت تفيد الانسان ، إذ كان يصطادها ويأكلها : مثل الغزلان والظباء الوحشية ، والبقر الوحشي ، و (الناشط) هو الثور البري[3] ، والحمر الوحشية ، والوعل . وقد تمكن الإنسان من تأليف بعض هذه الحيوانات مثل الغزال والظبي ، فرباها بمقياس صغير في البيوت وفي البساتين .

وتوجد القردة في مواضع من جبال السراة وفي العربية الجنوبية ، وقد كانت تؤذي النبات والشجر[4] .

وعرفت (النمور) في مواضع من جزيرة العرب ، فقد ذكر العلماء ان في جبل (أقراح) نمور وأراوي[5] . وان في جبـل (شواحط) كثير من النمور والأراوي[6] . والأروى أنثى الوعول وهي تيوس الجبل[7] . وعرفت مواضع الأسود بـ (مأسدة) ، ومنها (بيش) (بيشة) باليمامة[8] .

ويظهر ان أهل الجاهلية لم يستذوقوا لحم الخنزير ، ولعل منهم من كان يحرم كله أو يتجنبه . وقد ذكر ان الأحناف كانوا يحرمون أكله على أنفسهم ، وان من سنن ابراهيم ، تجنب أكل لحم الخنزير ، غير ان النصارى العرب ، ومنهم (تغلب) كانوا يأكلونه ، وقد عيرهم غيرهم بأكله . ولا نجد في الشعر الجاهلي ولا في القصص اشارات الى أكل أهل الجاهلية لحم الخنزير ، ولا الى تربيتهم له. ويظهر انهم كانوا يكرهونه ، وإلا لما سكتت روايات أهل الأخبار عن ذكره ، ولقام الرعاة بتربيته وبالعناية به ، عنايتهم بالحيوانات الأخرى .

واستعان الجاهليون بالكلاب في الصيد ، وهناك فصائل خاصة منها استخدمت

---

١ تاج العروس (٩/٥) ، (غلم) .
٢ تاج العروس (١/٣٨٣) ، (عصب) .
٣ تاج (٥/٢٣١) ، (نشط) .
٤ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤١٧) .
٥ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٣٣) .
٦ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٣٤) .
٧ تاج العروس (١٠/١٥٩) ، (روى) .
٨ تاج العروس (٤/٢٨٥) ، (بيش) .

في الصيد . كما استخدموها في حراسة الماشية ، وفي الحرث[1] .

وقد كانت الذئاب والسباع تؤذي الرعاة . تغتنم الفرص ، فتهجم على ماشيتهم وتفترس ما تستطيع افتراسه منها . ولهذا كانوا إذا نزلوا أرضاً مسبعة ، أي ذات سباع ، خافوا منها ، وأوقدوا بهـا ناراً في الليل ، لطرد السبـاع عنهم ، إذ كانت تخشى النار . واذا كثرت السباع في الطريق ، قيـل : أسبعت الطريق . والمسبوعة البقرة التي أكل السبع ولدها[2] . ويقال للأرض التي تكثر فيها الذئاب: أرض مذأبة ، كقولك أرض مأسدة من الأسد ، للأرض التي تكثر فيها الأسود . وإذا جاع الذئب ، صار شرساً جريئاً لا يهاب الإنسان ، فيهجم عـلى الغنم ، مع وجود الرعاة معها ، وقد يهاجم البشر . وقد تختفي الذئاب بالغضى ، فيقال ذئاب الغضى[3] .

وفي موضع يقال له (بستان ابن عامر) مأسدة[4] . وهو مجتمع النخلتـين : النخلة اليمانية والشامية[5]. و(عثر) مأسدة أيضاً باليمن ، وقيل جبل بتبالة مأسدة[6] . ومن مواضع الأسد : أسد خفّان ، وأسد الشرى من بلاد لخم ، وأسد حاملة، وأسد الملاحيظ ، وأسد المقيضا ، وأسد الكطاء ، وأسد تعشر ، وأسد ليـة ، وأسد حلية ، وأسد السحول،وأسد عتود وغيرها . وهناك مواضع أخرى اشتهرت بوجود الوحش بها[7] .

العلف :

و (العلف) هو ما تأكله الماشية ، وقوت الحيوان وقضيم الدابة . وبائعـه العلاّف[8] . ومنه (القِتّ) ، الفصفصة ، وقيل الرطب واليابس من العلف ،

---

١ ارشاد الساري (٤/١٧٢ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٥/٣٧٥) ، (سبع) .
٣ تاج العروس (١/٢٤٨) ، (ذأب) .
٤ تاج العروس (٢/٣٧٤) ، (سدد) .
٥ تاج العروس (٩/١٤٠) ، (البستان) .
٦ تاج العروس (٣/٣٨٢) ، (عثر) .
٧ الصفة (١٢٧) .
٨ تاج العروس (٦/٢٠٤) ، (علف) .

وخص بعضهم به اليابس منه[1] . و (القصفصة) رطب القت . وفي الحديث : ليس في القصافص صدقة . وهي الرطبة من علف الدواب ، أي القت . واللفظة من المعربات ، عربت من أصل فارسي ، هو (اسبست) و (اسفست)[2] .

والتبن من علف الماشية ، وكذلك (الحشيش) ، وهو الكلأ اليابس . ذكر بعض علماء اللغة ان الحشيش لا يطلق على الكلأ الرطب ، وقال بعض آخر : الحشيش : أخضر الكلأ ويابسه . وذكر بعض : ان العرب اذا أطلقوا اسم الحشيش ، عنوا به الخلي خاصة ، وهو أجود علف يصلح الخيل عليه ، وهو من خير مراعي النعم ، وهو عروة في الجدب وعقدة في الأزمات . وقال بعض علماء اللغة : البقل أجمع رطباً ويابساً . حشيش وعلف وخلي[3] . و (الخلي) ، الرطب من النبات . وقيل : هو الحشيش الذي يحتش من بقول الربيع ، وقيل : هو النبات الرقيق ما دام رطباً . وقيل : كل بقلة قلعتها . وأخلت الأرض كثر خلاها[4] .

وقد تعلف بعض الماشية شعيراً ، مثل الخيول الأصيلة والبقرة الحلوب . وقد تعلف نخالة . وقد تمزج النخالة بالملح ، لتقوية عظام الحيوان . وقد تعلف سمكاً مجففاً ، أو طحين السمك المجفف ، أو عظامه ، وذلك كما فعل أهل العربية الجنوبية ، لكثرة وجود السمك عندهم ، فتصح أجسام ماشيتهم وتدر عليهم الحليب . ويعتنى بعلف الخيل الكريمة خاصة ، حتى كان الرجل منهم يبيت طاوياً ويشبع فرسه ، ويؤثره على نفسه وأهله وولده[5] . وكانوا يعلفون خيولهم ذرة . قال (أبي بن خلف) لرسول الله : « إن عندي فرساً أعلفه فرقاً من ذرة »[6] .

وقد يكون العلف (سحالة) ، والسحالة قشر البر والشعير ونحوه ، وقد تحات من الدخن والذرة[7] ، وتقدم السحالة الى الدجاج والطيور خاصة .

ومن علف الإبل (الخبط الملجون) ، وهو ورق الشجر يخبط ثم يخلط بدقيق

---

١ تاج العروس (١/٥٧١) ، (قتّ) .
٢ تاج العروس (٤/٤١٦) ، (فصص) .
٣ تاج العروس (٤/٢٩٨) ، (حشش) .
٤ تاج العروس (١٠/١٢٠) ، (خلى) .
٥ بلوغ الارب (٢/٧٧) .
٦ كتاب نسب قريش (٣٨٧) .
٧ تاج العروس (٧/٣٧٢) ، (سحل) .

أو شعير فيعلف الإبل ، وكل ورق أو نحوه ، فهو ملجون أو لجين[1] . والخليط من العلف طين مختلط بتبن ، أو تبن مختلط بقت[2] .

نجابة العرق :

وللعرب عناية خاصة بالأصل والعرق : عرق الإنسان وعرق الحيوان . فهم يضنون بذي العرق الكريم من أن يتصل بما دونه في الإصالة والنجابة، لئلا يتردى نسله ، وينحط عقبه . وكذلك كانوا يفعلون بالخيل والإبل . فهم يحافظون على أنساب الكريم الأصيل النجيب من الجنسين ، ويدوّنون شجرة النسب ، ويحفظونها حفظهم لأنساب الناس . وكانوا يضنون بضراب الجمل وبعسب الحصان الأصيل ، إلا إذا كانت الناقة أو الفرس من الأصائل النجيبات . وقد كان بعضهم من يوافق على ضراب فحل نجيب لديه ، إذا أعطى ثمناً يوافق عليه عن ذلك الضراب ، لحاجته الى المال .

وكان من شدة عنايتهم بالخيل والإبل ، أنهم حفظوا أنسابها ، ودوّنوا أسماء النابه منها ، ووضعوا الكتب فيها ، وقد طبعت بعض منها ، وهي لمشاهير الأخباريين مثل ابن الكلبي . ولا زال العرب يعتنون بنسب فحول الخيل والإبل، ويدوّنون شجرة أنسابها ويحفظونها حفظ أنساب الناس .

ضراب الفحل :

وكان منهم من يأخذ الكراء على ضراب الفحل . فيجعل على الضراب أجراً يتفق عليه . فينزو الفحل على الناقة في مقابل ذلك الأجر . وكانوا يزيدون في ثمن ضراب الجمل اذا كان أصيلاً معروفاً . وقد نهى الاسلام عن ثمن الضراب، وجعله من السحت[3] . كما نهى عن عسب الفحل ، أي ثمنه . و (العسب) ،

---

١ تاج العروس (٩/٣٣٠) ، (لجن) .
٢ تاج العروس (٥/١٣٢) ، (خلط) .
٣ تاج العروس (١/٣٤٦) ، (ضرب) ، زاد المعاد (٤/٢٥٧) .

ضراب الفحل وطرقه ، أو ماء الفحل فرساً كان أو بعيراً . واعطاء الكراء على الضراب ، واسم للكراء الذي يؤخذ على ضرب الفحل[1] . ويقال للضراب (الشبر) كذلك . وهو طرق الجمل وضرابه ، وأخذ الكراء على ضراب الفحل[2] . والعادة عندهم انهم يستأجرون الفحل للضراب ؛ للناتج . وللفقهاء في جواز ذلك وعدمه أقوال .

الأمراض والأوبئة :

ويصاب الحيوان كما يصاب الإنسان بالأمراض والأوبئة . وقد تفتك به فتكاً فتؤذي صاحبه ، وتنزل به خسارة كبيرة ، ولا سيما إذا كان ذلك الحيوان من الإبل . وقد يتأذى الحيوان من حيوان آخر فيهلكه ، فقد تصيب بعض الطيور الإبل فتؤذيها . وكل طائر يتطير منه للإبل، فهو عرقوب ، لأنه يعرقبها . وعرقبه قطع عرقوبه . وطير العراقيب الشقراق ، وتقول العرب : إذا وقع الأخيل على البعير ليكشفن عرقوباه[3] . مما يدل على أنه كان يؤذي الإبل . و (القراد) تعفن الإبل وتؤذيها ، كما تؤذي غير الإبل من الحيوان أيضاً[4] .

وقد تصاب الإبل بـ (الهيام) ، وهو داء يأخذ بها ، فيصيبها مثل الحمى، ولذلك عرف بـ (حمى الإبل) . وقيل انه جنون يصيب الإبل فيهلكها . يصيبها في الموضع المهيم الموبىء ، الذي تكون فيه نقوع ساكرة لا تجري . ولذلك قال أهل الأخبار إن الهيام يحدث من ماء تشربه الإبل مستنقعاً ، وعن شرب النجل اذا كثر طحلبه واكتنفت الذبان به . وبتهامة مياه من هذا النوع[5] .

و (النقبة) قرحة تخرج بالجنب ، وجرب يصيب الإبل[6] . (والنقر) ، مرض

---

١ تاج العروس (١/٣٨٠) ، (عسب) .
٢ تاج العروس (٣/٢٨٨) ، (شبر) .
٣ تاج العروس (١/٣٧٨) ، (عرقب) .
٤ تاج العروس (٢/٤٦٤) ، (قرد) .
٥ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤١٠ وما بعدها) ، تاج العروس (٩/١١٢) ، (هيم) .
٦ تاج العروس (١/٤٩٠) ، (نقب) .

يصيب الشاة[1] :

وقد كانوا يتوسلون الى الأصنام لتشفي ماشيتهم من أمراض قد تصاب بها . روي عن (ساعدة الهذلي) أنه « قال : كنّا عند صنمنا سواع ، وقد جلبنا اليه غنماً لنا مائتي شاة قد أصابها جرب فأدنيتها منه أطلب بركته »[2] . فالأصنام تشفي من الأمراض وتبارك في الماشية وفي الانسان على رأي الجاهليين .

---

١ تاج العروس (٣/٥٨١) ، (نقد) .

٢ الاصابة (٢/٤) ، (رقم ٣٠٣٨) .

obeikandl.com

الفصل الخامس والتسعون

الارض

والأرض هي مصدر الثراء والغنى للانسان ، وعلى مقدار ما يملكه الانسان من أرض ، تكون ثروته ويكون غناه ، وعلى قدر ما يبذله صاحب الأرض من جهد في استغلالها وفي تطويرها وفي استنباط ما في باطنها من خيرات يتوقف دخله منها وغلته التي تأتيه من أرضه هذه .

ولا تعرف ملكية الأرض والماء ، إلا بين الحضر . أما الأعراب ، فإن هذه الملكية تكون عندها للقبيلة ولساداتها ، حيث يحمون بعض الأرضين ، أو يستنبطون الماء من أرض موات لا ماء فيها ، فتتحول الأرض بذلك الى أرض نافعة ذات ماء ، يبسط حافرها حمايته عليها ويجعلها ملكاً له ، وقد يزرع عليهـا ، فتصير الأرض التي يزرعها ملكاً له . وبهذه الطريقة تكونت الملكية بين القبائل.ولا يستطيع أن ينال من هذه الملكية بالطبع إلا المتمكن من أبناء القبيلة ومن ساداتهـا ، ممن يتمكن بما لديه من مال وامكانيات من استنباط الماء ومن احياء الأرض واستغلالها بما عنده من موالٍ وعبيد .

ويكتسب هذا التملك صفة شرعية ، إذ يعتبر ملكـاً صرفاً لصاحبه ، ليس لأحد حق منازعته عليه . ولمالكه أن يتصرف به كيف يشاء . له أن يبيعه ، وله أن يهبه ، وان مات انتقلت ملكيته الى ورثته .

فالأرض في معظم جزيرة العرب ، حق عام مشاع لا تعود ملكيته لأحـد .

الى ان صار الرعي ، وأخذت القبائل تنتقل من مكان الى مكان ، ففرض سادتها حق الحمى ، وهو نوع من التملك المتولد من حق الاستيلاء بسبب الزعامة والقوة والاغتصاب ، فصار الحمى ملكاً لسادات القبائل ، وصارت الأرض المتبقية التي دخلت في حوزة القبيلة بسبب بسطها سلطانها عليها ، ملكاً لها . ملكاً مشاعاً بين جميع أبناء القبيلة ، ليس لأحد صد أحد من أبناء قبيلته عن ارتياد أرضها ، إلا بقانون القوة والعزة والتجبر ، أو بفرض سلطانه على الأرض باستنباط مائها ، وهو حق لا يعمل به إلا القوي المتمكن .

ومن هذا الإحياء للأرض الموات تكونت بعض المستوطنات في البوادي، جلب ظهور الماء فيها الناس اليها ، فسكنوا حولها ، وجاءوا من أطرافها للاستقاء من مائها ، وشجع العثور عليه في هذا الموضع المتمكنين الآخرين على الحفر أيضاً ، فكان اذا ظهر ماء عذب ، جذب الناس اليـــه ، وسحرهم بسحره ، وأناخهم حوله ، فتوسعت بذلك تلك المستوطنات ، وتعددت،وظهرت فيها الملكية الفردية، والحياة الحضرية القائمة على الحيازة والتملك الفردي ، بصورة أوسع مما نجدها عند البدوي الاعتيادي الذي لا يملك إلا بيته ، وهو خيمته وأهله ، وما قـــد يكون عنده من الإبل .

ظهور القرى :

وصار بعض هذه المستوطنات قرى ، توسع قسم منها حتى صار بمنزلة المدن، منها ما كان يضاهي (يثرب) أو مكة في الحجم ، غير أنه لم يشتهر ولم يذكر، لعدم وجود تماس له وصلة مباشرة بتأريخ الإسلام . وهي مستوطنات سكن وماء وأسواق وتجارة ، ذكرها أهل الأخبار بقولهم : « قرية كانت عظيمة الشأن » وبقولهم : (قرى) . وصار بعض منها (قرى وزروع ونخيل)[1] ، أي قرى غلبت الزراعة على أهلها ، فظهرت الزراعة بها . زراعة نخيل ، إن كانت زراعة النخيل هي الزراعة المتغلبة عليها ، وزراعة نخيـــل وزروع أخرى ، إن شاركت

---

١ الصفة (١٤٧) ، (حائط بني غبر : قرية عظيمة بها سوق . وكذلك جماز قريـــة عظيمة أيضا) ، الصفة (١٤٢) .

الزروع الأخرى النخيل في ذلك . وهذا هو سبب نص (الهمداني) وأمثاله ممن كتب عن مواضع جزيرة العرب ، على القرى ، بأنها قرى ، أو قرى سكن ، أو قرى نخيل[1] ، أو قرى زراعة ونخيل ، أو نخل وقرية[2] .

وأما القرى التي غلب التعدين عليها ، فقد نص عليها بأنها (معدن) ،لتمييزها عن القرى الأخرى[3] .

وهكذا ظهرت في البوادي مستوطنات زراعية رعوية ، كفت نفسها بنفسها ، توقف حجمها على كمية الماء فيها ، وتوقف انتاجها على مقداره وكميته،وظهرت فيها نتيجة لذلك الملكية الفردية ، تملك المقيم فيها الأرض التي استقر بهـا وبنى بيته عليهـا ، وتملك زرعه وحاصله إن كان له زرع ، وتملك ماشيته إن كان صاحب ماشية . وتولد نتيجة لكل ذلك مجتمع مستقر ، تعاون فيما بينه في الدفاع عن نفسه وعن ماله ، وفي جلب السلع التي يحتاج اليها الانسان والميرة ، وتولد فيها تعامل وبيع وشراء ، توقف حجمه بالطبع على حجم ذلك المكان وعلى مقدار وجود الماء به .

فالبحث عن الماء والحصول عليه بالمال وبالخدم والعبيد،كوّن الملكيات الفردية في البوادي بين الأعراب ، وأوجد المستوطنات الحضرية والمستقرات ، وصيّر من بعض البدو حضراً أو أشباه حضر ، وغيّر بعض التغير من معاييرهم ومقاييسهم الاجتماعية ، بجعلهم زراعاً وفلاحين ، بعد كـره واستهجان للمزارع وللزراعة . وهذه المستوطنات هي مستوطنات نشأت وظهرت بجهـد الانسان وبعمله وجدّه ، وباستثمار عقله وماله وفي تسخير أتباعه في استنباط الماء ، وتحويل الأرض البكـر الى أرض زراعة وسكن ، وفي جزيرة العرب مستوطنات عديدة من هذا القبيل، ومعظم مستوطنات يثرب ، هي من هذا النوع ، مستوطنات قامت عـلى الآبار التي احتفرها المتمكنون من أهلها ، فزرعوها وأقاموا الأطم بها لحماية الزرع والناس من الأخطار . والأطم القصور ، وكل حصن بُني بالحجارة أطم . وقيـل هو

---

١ (وفي ثنية الحفير نخل) ، الصفة (١٤٨) ، (روضة الحازمي ، وبها النخيل وحصن منبع) ، الصفة (١٤٢) .

٢ (والعذيب نخل وقرية) ، الصفة (١٤٩) .

٣ (وقرية عظيمة يقال لها : العوسجة . وهي معدن . وكذلك شمام : معدن ..) ، الصفة (١٤٩) .

كل بيت مربع مسطح . وقد اشتهرت يثرب بآطامها . وذكر (الأعشى) آطام جو بقوله :

فلما أتت آطام جوّ وأهله أنيخت فألقت رحلها بفنائكا [1]

وأقيمت الحصون لحماية هذه المستوطنات ، واتخذت وسائل التحصن الأخرى لحماية النفس والزرع من الأعراب الجياع . ولا تزال في اليمامة آثار حصون وآطام عادية ، تعود الى ما قبل الإسلام بأمد . وكانت حماية ومنعة للساكنين حولها ، وتشاهد آثار السكن في أطرافها ، وآثار آبار مندرسة ، وآثار زرع ، هي مزارع القوم . فنجد في الافلاج حصوناً ، ونجد في (ملهم) حصوناً كان يتحصن بها (بنو يشكر) ، ونجد في أرضين أخرى حصوناً بنيت كلها لدرء النفس من الأخطار [2] . واليمامة حصون متفرقة ونخل ورياض ، وفيها بتل ، والبتيل ، هن مربع مثل الصومعة مستطيل في السماء من طين ، ويرجع أهل الأخبار زمانها الى (طسم) و (جديس) ، وذكروا أن طول بعضها خمسمائة ذراع [3] .

وقد أشار أهل الأخبار الى قرى ومستوطنات قديمة في مواضع متعددة من جزيرة العرب ، نسبوها الى (عاد) والى (طسم) و (جديس) لبعض منها حصون وآبار . فالقرية ، موضع قديم به ماء عادي ، أي ماء قديم ، الى جنبه آبار عادية وكنيسة منحوتة في الصخر [4] .والقصر العادي بالأثل من عهد طسم وجديس [5] ، و (القرية) : القرية الخضراء ، خضراء حجر ، هي حضور لطسم وجديس ، وفيها حصونهم وبتلهم . والبتيل : هنّ مربع مثل الصومعة مستطيل في السماء من طين . بناء بعضه مائتا ذراع أو خمسمائة ذراع مرتفعاً سامقاً في السماء [6] . وبقرية بني سدوس ، قصر مبني بصخر منحوت ، نسبه أهل الأخبار الى (سليمان بن

---

١ تاج العروس (١٨٧/٨) ، (أطم) .
٢ العقد الفريد (١٩٠/٥) ، البلدان (٥٣٧/٢) .
٣ الصفة (١٤٠ وما بعدها) .
٤ الصفة (١٥٢) .
٥ الصفة (١٦٠) .
٦ الصفة (١٤١) .

داوود)[1] . و (تر) نخيل وحصون عادية وغير عادية[2] .

الى غير ذلك من قرى وقصور وحصون قديمة ذكرها أهل الأخبار ، أشرت الى بعض منها في مواضع من هـذا الكتاب ، نشأت ونبتت في البوادي ، في المواضع التي أمكن للانسان بفنه البدائي وبعلمه في ذلك الوقت من استنباط المـاء فيها . وبظهور ذلك المـاء نبتت مستوطنات وزروع ونخيـل وملكيات في أرض كانت ميتة ليس لها مالك ، فأحياها استنباط الماء منها ، وجعلها ملكاً لأصحاب الماء .

وقد كانت هذه الآطام والحصون معاقل لأصحاب الأرض ومنازل لهـم ، ومخازن يخزنون بها حاصل أرضهم وماشيتهم عند دنو الخطر ، وقد يحتمي بهـا عبيدهم وأتباعهم ، فهي مثل قلاع الأشراف النبلاء في أوروبـة أيام الاقطاع ، ومثل المحافد والقصور في اليمن . وهي تختلف في الحجم والسعة باختلاف درجة ومنزلة المالك للأرض ، من حيث تملكه للمال وللخدم والعبيد وما عنده من ثراء، وقد صارت سبباً في تحويل أصحابها الى حضر أو شبه حضر ، ولو انهم كانوا وسط بواد وبين أعراب ، فإقامتهم في أبنية مستقرة وحرثهم الأرض وزرعها ، واستخدامهم للعبيد في الفلاحة ، طورتهم بعض التطوير ، حتى صاروا على شاكلة الحضر ، يتركون منازلهم لزيارة القرى والأرياف ، ويتصلون بالحضر وقد يقيمون بينهم على نحو ما يفعله كثير من سادات (شيوخ) القبائل في الوقت الحاضر ، وكان جلّ سادات القبائل الكبار من أصحاب الأبنية الثابتة، لهم منازلهم ومزارعهم وأعرابهم الذين لم تمكنهم أحوالهم المادية من تملك الأرض والزرع ، فاشتغلوا برعي الإبل .

وقد تتعرض مزارع هذه المستوطنات الى الأخطار مع وجود الحصون وأبنيـة الحماية الأخرى ، فالمزارع الكبيرة لا يمكن حمايتها إلا إذا حميـت بحصون عديدة من جميع جهاتها، وحمايتها على هذا النحو عمل مكلف باهظ ، لذلك كان المهاجم يهـاجم الزرع ليحرق قلوب أصحابه المتحصنين في الحصن ، فلما هـاجم (بنو يربوع) (بني يشكر) ، تحصن (بنو يشكر) بحصنهم بقريـة (ملهم) ،

---

١ الصفة (١٤١) .
٢ الصفة (١٤١) .

فأحرق (بنو يربوع) بعض زرعهم ، وعقروا بعض نخلهم ، فلما رأى القوم ذلك نزلوا اليهم فقاتلوهم[1] .

وقد اتخذ المزارعون ملاجىء لهم عند أماكن زرعهم يأوون اليها لحماية أنفسهم من أشعة الشمس ومن المطر والعواصف ، وكانوا يسكنون بها ، كانت هذه سنتهم في الجاهلية وفي الإسلام . وقد ذكر مؤلف (بلاد العرب) أن بروضة السويس قبتين مبنيتين يسكنها الزرّاعون[2] .

وقد أولد هذا المجتمع تبايناً في منازل الناس ، جعل من أصحاب الأرض الكبيرة ملاكاً كباراً لهم أطم وحصون ، يأوون اليها ، ولهم خدم يخدمونهم ويخدمون زرعهم وماشيتهم ، هم العنصر المنتج ، والآلة التي تساعد على الانتاج وعلى تكثيره ، وعلى تزييد أموال الملاّك ، أما هم أنفسهم فمجرد خدم ورقيق ، خلقوا لخدمة سادتهم ووجدوا لرعاية أموالهم والعناية بزرعهم وتكثير رزقهم . والى جانب هؤلاء أناس أحرار ، كان في رزقهم شحّ ، وفي حياتهم عسر ، وقوتهم قليل ، قاموا بمختلف الأعمال والحرف لإعالة أنفسهم وسدّ رمقهم .

وقد تمكنت بعض هذه المستوطنات من انتاج حاصل زراعي سد حاجة أهل المستوطنة ، ومن بيع الفائض منه الى الأعراب. وبينها مستوطنات زرعت الحبوب، مثل الحنطة وصدرتها الى أماكن أخرى . فقد ذكر ان قرى اليمامة كانت تمون مكة بالحبّ ، وتمون الأعراب بالتمور . وما هذه القرى سوى مستوطنات ، ظهرت في البوادي بسبب وجود الماء فيها ، وبسبب استنباطه من الأرض بحفر الآبار ، فنمت وتوسعت ، لاتساع صدر الماء بها ، ولتفضل الأرض على من نزل بها باعطائهم ماءً كافياً . كفاية تساعد على توسع المستوطنة ، فيما لو عمل النازلون بها على استنباطه من باطنها . واستعملوا عقولهم وأيديهم في استغلال التربة للحصول على موارد الرزق منها .

وتحدد الأرض المملوكة بحدود ، وقد توضع على أطرافها علامات ، لتكون حدودها معلومة ، فلا يتجاوز عليها . ويقال للحد بين الدارين، أو بين الأرضين (الجماد) . وقد أشير الى (الجوامد) ، أي الحدود في الحديث . ورد : اذا

---

١ النويري ، نهاية الارب (١٥/٣٨٥) ، (يوم الحائر وهو يوم ملهم) .
٢ بلاد العرب (٣٠٤) .

وقعت الجوامد فلا شفعة في الحدود[1] .

والأرض عامر أو غامر ، والعامر المأهول والمزروع والمستغل ، والغامر خلاف العامر ، وهو الخراب . وقد قسم (عمر) السواد الى عامر وغامر ، أي عامر وخراب . والغامر الأرض ما لم تستخرج حتى تصلح للزراعة والغرس ، وقيل : هو ما لم يزرع مما يحتمل الزراعة . وانما قيل له غامر ، لأن الماء يبلغه فيغمره[2]. ويقال للأرض العامرة : (السوداء) ، وأرض سوداء ، أرض مغروسة ، والأرض في عرف العرب اذا غرست اسودت واخضرت ، و (البيضاء) الخراب من الأرض ، لأن الموات من الأرض يكون أبيض[3] .

والبور : الأرض قبل أن تصلح للزرع ، وقيل : هي الأرض التي لم تزرع، أو الأرض كلها قبل أن تستخرج حتى تصلح للزرع أو الغرس . وفي كتاب النبي لأكيدر دومة : ولكم البور والمعامى وأغفال الأرض . فالبور الأرض الخراب التي لم تزرع،أو هي التي تجم سنة لتزرع من قابل[4] . وذكر أن المعامى الأعلام من الأرض ما لا حدّ له . والأغفال ما لا يقال على حده من الأرض[5] . والمعامى على حدّ قول بعض العلماء:أغفال الأرض التي لا عمارة بها ، أو لا أثر للعمارة بها[6] . والغفل : ما لا عمارة فيه من الأرضين ، وقيل الموات ، وأرض غفل لا علم بها ولا أثر عمارة ، وأرض سبسب ميتة لا علامة فيها ، وكل ما لا علامة فيه ولا أثر عمارة من الأرضين والطرق ونحوها غفل ، وبلاد أغفال لا أعلام فيها يهتدى بها[7] . وقد ورد في كتاب الرسول الى الأكيدر : « أن له الضاحية والبور والمعامى وأغفال الأرض والحلقة والسلاح والحافر والحصن ، ولكم الضامنة من النخل والمعين من المعمور »[8] .

---

١ تاج العروس (٢/٣٢٥) ، (جمد) .
٢ تاج العروس (٣/٤٥٤) ، (غمر) .
٣ تاج العروس (٥/١٠) ، (بيض) .
٤ تاج العروس (٣/٦٠) ، (بدر) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٩) .
٦ تاج العروس (١٠/٢٥٥) ، (عمى) .
٧ تاج العروس (٨/٤٧) ، (غفل) .
٨ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٨ وما بعدها) .

والضاحية ما كان خارج السور من النخل ، والضاحية البادية ، وضواحي قريش النازلون بظواهر مكة[1] .

والعامر ، إما ملك للحكومة ، وإما ملك للملوك ولذويهم ، وإما ملك للمعبد ، أي أوقاف حبست على المعابد ، وإما ملك لأسر وأفراد ، وذلك بالنسبة للحضر ، وفي العربية الجنوبية بصورة خاصة . وأما بالنسبة الى الأعراب ، سكنة البوادي ، فأرض القبيلة — كما سبق ان قلت — ملك لها ، إلا ما حمى منها ، فهو من حق أصحاب الإحماء . فالأرض اذن مشاعة بين أبناء القبيلة ، ويدخل في ذلك الماء والكلأ .

وقد عبر في أحد النصوص عن الأرض التي آلت الى صاحبها بطريق التملك بـ (مقبلت قنيو)) ، أي الأرض التي أقبلت الى الشخص بطريق الملكية[2] . ومعناها الأرض المقتناة أي الملك . وهي أرض ملكها صاحبها إرثاً من أهله ، وذلك تمييزاً لها عن الأرض التي يتملكها صاحبها شراءً ، وقد عبر عنها بـ (شامتهو) ، أي الأرض المشتراة[3] .

وتعد كل الأرضين التي لا تملكها الجهات المذكورة ملكاً للدولة . ورقبتها بيد الحكومة ، وتسجل باسم الشعب الحاكم . فإذا كانت الحكومة حكومة معين ، تسجل الأرض باسم شعب معين ، وإذا كانت الأرض في سبأ ، تسجل باسم شعب سبأ ، وقد توسعت رقعة الأرضين الحكومية بالفتوحات الواسعة التي تمت في عهد الملك (كرب ايل وتر) ، وفي عهود الملوك المحاربين مثل (شمر يهرعش) الذين إذا انتصروا على خصومهم جعلوا أرضهم وما يملكونه غنيمة لحكومتهم ، تابعة لبيت المال . وذلك على نحو ما فعله المسلمون في الفتوحات من تسجيلهم الأرضين التي فتحوها باسم (بيت مال المسلمين) .

وقد تؤجر أرض التاج للقبائل والعشائر بعقد يتفق عليه ، تذكر فيه شروطه في الوثائق التي تدوّن لهذه الغاية ، ويتم الدفع بموجبها ، فيكون إما عيناً ، وإما نقداً . وقد يقوم سادات القبائل باستغلال الأرضين المؤجرة على حسابهم ، وقد

---

١ تاج العروس (٢١٨/١٠) ، (ضحو) .
٢ REP. EPIGR. 2876, Tome, V, p. 209.
٣ الفقرة الثالثة من النص المذكور .

يؤجرونها أو يؤجرون أجزاءً منها الى حاشيتهم أو أتباعهم في مقابل جعل يدفع لهم . فيكون دخلهم من هذه الأرض المؤجرة من العوائد التي اتفقوا على استحصالها من المستأجرين الثانويين ومن صغار الفلاحين .

وقد كان الفلاح مغبوناً في الأكثر ، لأنه بحكم فقره واضطراره الى استئجار الأرض بشروط صعبة في الغالب ، مضطر الى الاستدانة في أغلب الأحيان ، لضمان معيشته في مقابل تعهده بدفع ما استدانه في آخر موسم الحصاد وقطف الثمر فإذا حلّ الأجل ، اضطر الى دفع ديونه وما ترتب عليها من ربا فاحش ، وما عليه من حق للحكومة ولصاحب الأرض ، فلا يتبقى لديه ما يكفيه في عامه الجديد ، فيضطر الى تجديد الاستدانة ، والغالب أن أصحاب الأرض هم الذين يقومون بتقديم الديون الى الفلاحين ، لربطهم طول حياتهم بالأرض ، فلا يتمكن الفلاح من الهروب منها بسبب ثقل ما عليه من الديون ، ووجوب دفعها مع فائضها كاملة إن أراد تركها ، وهو حلّ لا يتمكن من تنفيذه ، فيظل لذلك مرتبطاً مع عائلته بأرض المالك صاحب الديون .

وكانت حكومة سبأ تستغل أرضها الخاضعة للخزينة العامة ، أي (أرض السلطان) ، إما بادارتها نفسها وباستغلالها بتشغيل المزارعين بها على حساب الدولة ، وإما ببيعها ، وإما بتأجيرها في مقابل (أجر) يقال له (اثوبت) في لغتهم[1] .

وامتلكت المعابد أرضين واسعة شاسعة ، استغلتها باسم الآلهة ، ودرّت عليهم أرباحاً كثيرة . وهي أرضين سجلت باسمها منذ نشأت المعابد وظهرت ، فارتبطت بها ، وصارت وقفاً عليها . منها ما سجل في عهد (المكربين) أي حكومات رجال الدين في العربية الجنوبية ، يوم كان (المكرب) هو رجل الدين والحاكم الدنيوي ، فكانت نظرتهم ان الأرض وما عليها ملك للآلهة . ورجال الدين الحكام هم خلفاء الآلهة على الأرض ، وهم وحدهم لهم حق الحكم والفصل بين البشر ، وما يقرونه حق ، وما يخالفونه ويحرمونه فهو باطل . وهم الذين يفصلون بين الحرام وبين الحلال ، ويقررون ما يوافق حكم الآلهة وما يخالفه. فهم حكام الشرع والقانون .

---

١ Glaser 904, Halevy 51, 1571, Handbuch, I, S. 137, Rhodokanakis, Katab. Texte, I, S. 70.

وكانت للمعابد الأخرى أحباس خصصت بها ، وحميت للمعبد ولما ينذر له ويحبس عليه من حيوان يرعى فيه ، فلا يتطاول عليه أحد . وقد سبق ان تحدثت عن حرم (العزى) ، وهو شعب حمته قريش للصنم ، يقال له (سقام) في وادي حراض ، وقد كان حرماً آمناً ، لا يجوز قطع شجره ولا الاعتداء على ما يكون فيه من انسان وحيوان[1] . وهو قرب مكة بين (المشاش) و (الغمير) فوق ذات عرق ، الى البستان ، وقيل بالنخلة الشامية[2] . كما كان للبيت الحرام ، حرم واسع به شجر وزرع ، سبق ان تحدثت عنه .

وقد وجدت في بعض المناطق ، مثل أرض قبيلة (بكل) (بكيل) ، أملاك واسعة حبست على (المقه) ، كانت تديرها وتتصرف بها عشيرة (مرثد) ، ووجدت أرضون واسعة في مناطق أخرى ، جعلت المعبد من أكبر ملاك الأرض. وقد استغل المعبد بنفسه بعض أملاكه ، وأجر بعضاً آخر للأسر المتنفذة ولسادات القبائل ، بموجب اتفاقات دوّنت وحفظت في خزائن المعابد . وقد كان المتنفذون قد استولوا على بعض حبوس المعابد ، واستغلوها ، ولما كانوا أقوياء ،والأوقاف في مناطق نفوذهم ، ولا يمكن للمعبد أن ينتزعها منهم ، اضطر إلى تأجيرها لهم ببدل ايجار رمزي ، ليحافظ بذلك على اسم وقفه ، فلا يستبد أولئك السادة به ، ويسجلونه ملكاً باسمه . فصارت هذه الأملاك من أملاك المعبد بالإسم ، ومن أملاك الملاك الأقوياء بالفعل .

ولا نجد في أخبار أهل الأخبار ما يفيد بوجود حبوس كبيرة وكثيرة على المعابد في العربية الغربية أو العربية الوسطى أو العربية الشرقية ، على نحو ما وجدناه في اليمن ، ويعود سبب ذلك في رأيي الى صغر مساحات الأرضين الخصبة المزروعة في هذه الأقسام ، والى قلة الماء فيها ، مما جعل من الصعب على الناس التخلي عن أرضين كبيرة للمعبد . بل ترينا أخبارهم ان أهل هذه المناطق كانوا لا يتأثمون أحياناً من التطاول على (حرم) المعابد ، فكانوا يقطعون شجره ويستقطعون قطعاً من أرضه لاتخاذها منازل لهم كالذي حدث لـ (حرم) بيت الله .

وقد كان الملوك وكبّار الملاك يقطعون أرضهم اقطاعات لاستغلالها . ويعبر عن

---

١ البلدان (٥/٩١) ، (٦/١٦٦) .
٢ تاج العروس (٥/١٩) ، (حرض) .

ذلك بلفظة (بضع) في المسند ، أي القطعة . وقد يراد بها الأرض المعطاة لجماعة لاستغلالها في الزراعة[1] .

وفي أواخر عصور الملكية في سبأ ، نجد طبقة الأشراف وسادات (الأعراب) (اعربم) والقبائل وقد ازداد نفوذها وقوي سلطانها ، فنازعت الملك على صلاحياته في بعض الأحيان . وصار لرؤساء القبائل نفوذ قوي في المملكة ، حتى قلصت حكم الـ (مزود) واستأثرت بالأرض ، واحتكرتها ، فاضطر الملوك الى النزول عن حقهم في الأرضين الى أولئك الرؤساء في مقابل اتفاقياف تحدد الواجبات والمبالغ التي يجب على رئيس القبيلة أن يقدمها الى الملك في مقابل استغلاله للأرض ، ويقوم الرئيس بإيجار أرضه لأتباعه المتنفذين في القبيلة أو لأفراد قبيلته الاعتياديين ، يتقاضى على ذلك أجراً يتفق عليه ، باهظاً مرهقاً للفلاح المسكين الذي لا يملك في العادة أرضاً ، فتحولت العربية الجنوبية بذلك الى دولة اقطاعية ، أرباحها وحاصلها وناتجها وقف وإقطاع لطبقات معينة متنفذة .

وفي جملة تلك الواجبات تقديم عدد يتفق عليه من أتباع من حصل على أرض حكومية للقيام بالخدمات العسكرية ، ووجوب الدفاع عن الحكومة عند ظهور خطر عليها . فيقوم المقتطع للأرض بإرسال رجاله على حسابه للدفاع عن الملك . وبذلك صارت جيوش الملك مؤلفة من جنود مرتزقة وجنود أرسلوا الى القتال إرسالاً بأمر سادتهم تنفيذاً لالتزاماتهم التي ألزموا أنفسهم بها مع الملوك .

ويمكن حصر الأشخاص الذين تمتعوا بنعم الاقطاع وامتيازاته بالملوك وبذويهم ، والملك هو الراعي الشرعي للحق العام ، وهو الناظر والوصي لأرض الدولة ، وهو بهذه الصفة يصطفي لنفسه ولأولاده ولأهله خيرة الأرضين ، ثم يليه من بعده رجال الدين الناطقون باسم الآلهة ، وهم في نظر الشرع ، أي الدين أصحاب الأرض ، لأن الأرض ملك للآلهة . ثم يليهم قادة الجيش وصفوة الملوك وكبار الحكام ، والسادات . سادات الحضر وسادات القبائل . أما السواد ، وهم غالبية الناس ، فليس منهم من يملك إلا المساحات الصغيرة من الأرض ، وإلا البيوت ، وأغلب الباقين عالة على غيرهم ، يتعيشون باستعمال أيديهم في كسب قوتهم .

---

١ راجع الفقرة الثانية من النص :
Glaser 1000 A, B, 1693, Rhodokanakis, Kataba. Texte, II, S. 41.

وقد يؤجر سيد القبيلة أو سادات الأرض ما استحوذوا عليه من الحكومة من أرضين الى أناس غرباء أجراء أم الى قبائل أخرى ، في مقابل شروط يعينها ، فيستغلون الأرض بموجبها ، ويكونون عندئذ في حمايته وفي رحمته ورعايته، فيعاملون عندئذ وكأنهم فرع من فروع قبيلة صاحب الأرض . واذا استمر العقد ، فقد يدمجهم الزمن في قبيلة سيد الأرض فيعدّون منها ، وينسبون اليها ، مع انهم غرباء عنها . ومن هنا نرى ان القبائل في العربية الجنوبية ، لم تكن على نحو ما نفهمه من معنى القبيلة ، من انها بنو أب واحد ، وأصحاب نسب واحد يصعد حتى يتصل بجد ، بل قد تكون من قبائل وعشائر مختلفة ومن جماعات عمل ، تمثل مختلف الحرف ، انضمت الى قبيلة كبيرة [1] ، أو الى ملاّك كبير ، للعمل في أرضه أو لأداء خدمات له ، فلما طال بها المقام اندمجت في القبيلة الكبيرة ، أو في قبيلة الملاّك الكبير ، فعدّت منها ، أو في آل وأتباع صاحب الأرض ، فعدّوا من أتباعه ، ونسبوا اليه ، حتى اذا طال الزمن وتقادم العهد، صار ذلك الرئيس جداً لهم ، وعدّ نسبهم منه .

ولما ظهر الإسلام ، كان الأقيال وسادات القبائل قد استبدوا بالأمر وتحكموا في رقاب الأرض ، واقطعوها فيما بينهم ، ولقب بعضهم كما سبق أن تحدثت عن ذلك أنفسهم بألقاب الملوك . ومن هؤلاء (بنو وليعة) ملوك حضرموت : (حمدة) ، و (مخوس) ، و (مشرح) ، و (أبضعة)[2] . و (الحارث ابن عبد كلال) ، و (نعيم بن عبد كلال) ، و (النعمان) قيل ذي دعين (ذي يزن) ومعافر وهمدان[3] وشريح بن عبد كلال ، وزرعة ذي رعين[4] . و (جيفر بن الجلندي) و (عبد بن الجلندي) وهما من الأزد . وكان(جيفر)، يلقب نفسه بلقب ملك عمان[5] . و (ذو الكُلاع بن ناكور بن حبيب بن مالك ابن حسان بن تبع) ، و (ذو عمرو)[6] ، و (معدي‌كرب بن أبرهة) صاحب

---

١ J. Rychmans, L'Institution Monarchique, p. 178.

٢ ابن سعد ، طبقات (١/٣٤٩) .

٣ ابن سعد ، طبقات (١/٣٥٦) .

٤ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٤ وما بعدها) .

٥ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٢) .

٦ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٦) .

خولان[1] . و (ربيعة بن ذي مرحب) الحضرمي ، وآل ذي مرحب ، وكانوا يملكون الأموال والنحل والرقيق والآبار والمياه والسواقي والشراجع بحضرموت[2] ، و (وائل بن حجر) ، من كندة حضرموت ، وكان يملك الأرضين والحصون والأودية ، وكان (الأشعث) وغيره من كندة ينازعونه في واد[3] .

ويقال لتقدم الفلاح أو المستأجر لأرض ما ،ما عليه من حقوق تجاه الحكومة ، التي استأجر الأرض منها ، أو صاحب الملك ، الذي استأجر أرضه لزراعتها ، (دعتم) (دعت)[4] ، أي (غلة) ، تسلم الى وكـلاء الحكومة أو صاحب الأرض عن حقهم المتفق عليه .

وتعرف الأرضون الحكومية التي تعطى باللزمة والإجارة لمن لا يملكها بـ (مقبلت) و (قبلت) ، و (مقبل) ، من أصل (قبل)[5] . تعطى في مقابل تعهد يتعهد الملتزم والمؤجر بدفع مبلغ معين أو حصة معينة الى الملك أو ممثليه من الموظفين أو أصحاب الأرض ، وذلك في مقابل استغلاله للأرض . وقد تدون شروط الاتفاق وتثبت ليرجع اليها اذا حدث اختلاف .

وقد صالح الرسول أهل خيبر ، على حقن دمائهم ، وعلى ان يقوموا عـلى النخل والزرع ، لأن لهم علماً باصلاح الأرض وخدمـة الزرع ، ولم يكن لرسول الله وأصحابه غلمان يقومون بذلك ، فأعطاهم خيبر على ان لهم الشطر من كل زرع ونخل وشيء ما[6] . فبقوا يستغلونها على نصف ما خرج منها ، فكان (الخارص) يأتي اليهم عند الموسم يخرص ما يخرج منها ، فيأخذ النصف ، ويترك النصف الآخر لليهود[7] . وصالح الرسول أهل (فدك) على نصف الأرض بتربتها ، وعلى نصف النخل[8] .

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٦) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٦) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٢٨٧) .
٤ Handbuch, I, S. 137.
٥ REP. EPIGR. 2876, Tome, V, p. 209.
٦ البلاذري ، فتوح (٣٧) .
٧ البلاذري ، فتوح (٣٩ وما بعدها) .
٨ البلاذري ، فتوح (٤٢ وما بعدها) .

عقود الوتف :

وقد وصلت الينا وثائق مهمة تتضمن عقوداً في استغـــلال الأرضين ، عرفت باسم (وتفم) (وتف) . وهي عقود تبين ان الحكومـة كانت تؤجر الأرض لمـــن يريدها في مقابل حقوق يقدمها اليها . وتشمل عقود الوتف ، العقود التي عقدت بين المعبد والوجهاء وسادات القبائل أيضاً ، والعقود التي عقدها كبـــار أصحاب الأملاك الذين فاضت أملاكهم عن حاجتهم الى المحتاجين اليها في مقابـل شروط اتفق عليها دونت في (الوتف) .

وقد عثر على نصوص (وتف) ورد فيها اسم (مرثد) . ممـا يدل على أن (بني مرثد) هؤلاء كانوا يستأجرون الأرضين لاستغلالها ، في مقـــابل تعهدات خاصة يقدمونهـــا الى أصحاب الأرض . وتتناول معظم هذه العقود (الوتف) استئجار أرضين خاضعة للحكومة وأرضين هي من أوقاف المعابد . وجدت المعابد أن من الصعب عليهـــا ادارتها فأجرتها الى (بني مرثد) لاستغلالها ، وقد قام (بنو مرثد) بتأجير قسم منها الى غيرهم من العشائر التابعة لهم في مقابل جعل يقدمونه لهم، يزيد على مقدار بدل الإجارة المتفق عليه مع المعبد ، وبذلك استفادوا من الفرق بين بدل الإجارتين .

ولدينا جملة نصوص (وتف) يفهم منها أن بعض المتعاقـدين من مستأجري أملاك المعبد قد قدّموا نذوراً وذبائح الى الآلهة التي أوقفت عليها الأرض المستأجرة لأنها أعطتهم غلة طيبة وحاصلاً وافراً طيباً بعد فقر وجوع . ويظهر من بعضها أن أولئك المستأجرين المتعاقدين كانوا قد تهاونوا في تنفيذ ما ورد في العقد ، أو أنهم أخلوا بها عمداً ، فلم ينفذوا ما جاء فيها ، واتفق أن نزلت آفات طبيعيـــة بزروعهم ، مثل جفـــاف أتلف معظم حاصلهم ، ففشا الجوع بينهم ، ففسروا ذلك على أنه غضب حلّ بهم من آلهتهم ، وانتقام نزل بهم منها . ولهذا كفّروا عن ذنوبهم وتابوا عما ارتكبوه من آثام ، بعدم تنفيذهم تلك الاتفاقيات، وعاهدوا آلهتهم على ترضيتها وتقديم الذبائح اليها في كل عام بانتظام ، ان هي غفرت لهم قبح أعمـــالهم ، وباركت في زروعهم ، وهم في مقابل ذلك سيوفون بالعهد ، ويؤدون ما فرض عليهم من (الوتف) كاملاً غير منقوص[1] .

---

١ Oslander 10, Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 158.

وقد استغلت الأرض في العربية الجنوبية ، ولا سيما في اليمن استغلالاً حسناً بالنسبة الى باقي أنحاء جزيرة العرب ، وذلك لسقوط المطـر الموسمي بها بكميات مناسبة للزراعة ، ولوجود موارد طبيعية للمياه بكثرة فيهـا بالقياس الى المواضع الأخرى من جزيرة العرب ، ثم لوجود فجوات ومنخفضات بين الجبال والهضاب ساعدت على خزن مياه الأمطار بها ، كما ساعدت عـلى اقامة السدود في أفواه الأودية لحصر المياه في المنخفضات ومنعها من السيلان الى البحر . وبسبب هـذه الميزات ظهر في اليمن اقتصاد زراعي وحاصل زراعي،أمكن استغلاله في الداخل، وتصدير الفائض منه الى الخارج .

الاقطاع :

الاقطاع في الاسلام يكون تمليكاً ويكون غير تمليك . والقطائع انما تجوز في عفو البـلاد التي لا ملك لأحد فيها ولا عمارة فيها لأحـد ، وفيما ليس بمملوك كبطون الأودية والجبال والموات ، فيقطـع الإمام المستقطع منها قدر ما يتهيأ له عمارته باجراء الماء اليه أو باستخراج عين منه ، أو بتحجر عليه للبناء فيه . ومن الاقطاع اقطاع ارفاق لا تمليك كالمقاعدة بالأسواق التي هي طرق المسلمين ، فمن قعد في موضع منها كان له بقدر ما يصلح له ما كان مقيماً فيه ، فإذا فارقه لم يكن له منع غيره منه ، كأبنية العرب وفساطيطهم ، فإذا انتجعوا لم يملكوا بها حيث نزلوا منها ، ومنها اقطاع السكنى . وفي الحديث : لما قدم النبي المدينـة أقطع الناس الدور ، معناه أنزلهم في دور الأنصار يسكنونها معهم ، ثم يتحولون عنها . ومنه الحديث ، انه أقطع الزبير نخلاً ،يشبه انه انما أعطاه ذلك من الخمس الذي هو سهمه ، لأن النخل مال ظاهر العين حاضر النفع ، فلا يجوز اقطاعه . وأما اقطاع الموات ، فهو تمليك[1] .

وهو ضربان : إقطاع تمليك ، وإقطاع استغلال . فأما اقطاع التمليك فتنقسم فيه الأرض المقطعة ثلاثـة أقسام : موات وعامر ومعادن . فأما الموات ، فعلى ضربين : أحدهما ما لم يزل مواتاً على قديم الدهر فلم تجر فيه عمـارة ولا يثبت

---

١ تاج العروس (٥/٤٧٤) ، (قطع) ، ارشاد الساري (٤/٢٠٦) ، صبح الاعشـى (١٣/١١٣ وما بعدها) .

عليه ملك ، فهذا الذي يجوز للسلطان أن يقطعه من يحييه ومن يعمره ، والضرب الثاني من الموات ما كان عامراً ، فصار مواتاً عاطلاً . وذلك ضربان : أحدهما ما كان جاهلياً،فهو كالموات الذي لم يثبت فيه عمارة ، ويجوز اقطاعه . والضرب الثاني ما كان إسلامياً جرى عليه ملك المسلمين ثم خرب حتى صار مواتاً عاطلاً وقد اختلف فيه الفقهاء .

وأما العامر فضربان : أحدهما ما تعين مالكه فلا نظر للسلطان فيه ، والضرب الثاني من العامر ما لم يتعين مالكوه ولم يتميز مستحقوه ، وهو على ثلاثة أقسام : تكلم فيها الفقهاء .

وأما اقطاع الاستغلال فعلى ضربين : عُشر وخراج . فأما العشر : فإقطاعه لا يجوز . وأما الخراج ، فيختلف حكم اقطاعه باختلاف حال مقطعه ، وله ثلاثة أحوال ، ذكرت في كتب الفقه .

وأما اقطاع المعادن ، فهو ضربان ، ظاهرة وباطنة ، فأما الظاهرة ، كمعادن الكحل والملح والقار والنفط ، وهو كالماء الذي لا يجوز اقطاعه والناس فيه سواء يأخذه من ورد اليه . وأما المعادن الباطنية ، ففي جواز اقطاعها قولان : أحدهما لا يجوز كالمعادن الظاهرة ، وكل الناس فيها شَرَع . والقول الثاني : يجوز اقطاعها . وفي حكمه قولان : أحدهما أنه إقطاع تمليك يصير به المقطع مالكاً لرقبة المعدن كسائر أمواله في حال عمله وبعد قطعه يجوز له بيعه في حياته وينتقل الى ورثته بعد موته . والقول الثاني أنه اقطاع ارفاق لا يملك فيه رقبة المعدن ويملك به الارتفاق بالعمل فيه مدة مقامه عليه ، وليس لأحد أن ينازعه فيه ما أقام على العمل ؛ فإذا تركه زال حكم الاقطاع عنه وعاد الى حال الإباحة . فإذا أحيا مواتاً بالإقطاع أو غير اقطاع فظهر فيه بالإحياء معدن ظاهر أو باطن ملكه المحيي على التأبيد كما يملك ما استنبطه من العيون واحتفره من الآبار[1] .

وأما الاقطاع عند أهل الجاهلية ، فكان معروفاً عندهم ، وقد أشير اليه في نصوص المسند . وقد كان اقطاع تمليك ، واقطاع استغلال .

فأما اقطاع التمليك ، فيشمل الموات والعامر والمعادن . وقد أقطع الحكام في كل هذه الأقسام الثلاثة . فكان الملوك ، يهبون الموات أو العامر الى من يريدون

---

١ الاحكام السلطانية ، للماوردي (١٩٠ وما بعدها) .

من أقربائهم أو قواد جيوشهم أو سادات القبائل ، أو كبار الموظفين ومن يرضون عنه . يعطونهم أرضاً مواتاً لا أصحاب لها ، أو أرضاً عامرة لها أصحاب وملاّك. فقد كانوا يحاربون ، فإذا انتصروا اصطفوا لأنفسهم ما أحبوا من أرض مملوكة للدولة أو للاشخاص ، فسجلوه ملكاً باسمهم ، وأعطوا مـا شاءوا الى خاصتهم وذوي رحمهم وقواد جيشهم ، ملكاً لهم ، يملكون رقبته وكل ما عليه من شجر ونبات وماء ومعادن ورقيق وأناس ، لا ينازعهم في ذلك منازع،لهم حق بيعه إن شاءوا ، أو حق ايجاره ، أو اعطائه لأي شخص آخر لاستغلاله ، وإن وجدت فيه معادن ، فهي لهم أيضاً .

وقد يغضب ملك أو أي حاكم متفرد بأمره على من هو من تبعتـه ، فينتزع منه ملكه ، ويستولي عليه وعلى كل ما عليه ، وقد يقطعه كله أو جزءاً منه أحد خاصته ، أو يقطعه اقطاعاً ، لجملة أشخاص . هبة أي تمليكاً ، أو غير تمليك، أي عارية ، رقبته للحاكم ، ومنفعته لمن أقطع له الى أجل معين أو الى أجل غير محدود ، يكون له ولورثته حق الانتفاع منه . والحاكم الذي يقطع الإقطـاع لمن يشاء ويهب الأرض لمن يحب ، لا يعجز عن استعادة ما أقطعه تمليكاً أو استغلالاً متى أحب ، فهو الآمر بأمره والناهي ، لا يعارضه معارض ، متى أراد الاستيلاء على أرض أو على اقطاع اقطعه أحداً ، أمر بالاستيلاء عليه ، فيطاع أمره وينفذ ما دام قوياً له الحول والطول .

ولا يعني الاقطاع عند الجاهليين وجوب وجود العبيد أو الأقنـان في الأرض لاستغلالها ولإعمارها ، فقد يتعامل الاقطاعي ، مع أجراء أو أجرار يتفقون معـه على استثمارها في مقابل حقوق يدفعونها له . أما إذا كان متمكناً غنياً له خـدم ورقيق وأتباع ، فقد يستخدمهم في خدمة ملكه بأجر او بغير اجر ، حسب مبلغ هيمنته عليهم ومقدار نفوذه بين قومه واهله .

وقد عرف اقطاع المعادن عند الجاهليين ، ما ظهر من المعادن ، وما بطن . ويظهر ان أهل اليمن لم يكونوا يفرقون في الاقطـاع بين النوعين من المعـدن . فكانوا يقطعون المعادن الظاهرة ، مثل الذهب والملح ، كما كانوا يقطعون المعادن الباطنة ، أي المعادن التي يكون جوهرها مستكناً فيها ، لا يوصل اليه إلا بالعمل، كمعادن الذهب والفضة والصفر والحديد ، فهذه معادن باطنة سواء احتاج المأخوذ

منها الى سبك وتخليص أو لم يحتج ، في حين أن المعادن الظاهرة ، ظاهرة على سطح الأرض ، ولا يبذل لاخراجها ما يبذل في اخراج المعادن الباطنة . أما الإسلام ، فقد جعل حكم المعادن الظاهرة حكم الماء العدّ من ورده أخذه، لا يجوز اقطاعه والناس فيه سواء يأخذه من ورد اليه[1] .

وفي كتب السير والتأريخ أن الرسول أقطع بعض سادات القبائل ورؤساء الوفود اقطاعاً ، وأمر فكتبت لهم كتب التملك . فأعطى (الزبير بن العوّام) « ركض فرسه من موات النقيع (البقيع) ، فأجراه ، ثم رمى بسوطه رغبة في الزيادة . فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : أعطوه منتهى سوطه »[2] . وفي حديث (أسماء) بنت (أبي بكر) ، أنه أقطع الزبير أرضاً من أموال بني النضير ذات نخل وشجر[3] .

وقد سأل (الأبيض بن حمّال) رسول الله ، ان يستقطعه ملح مأرب ، فأقطعه . « فقال الأقرع بن حابس التميمي : يا رسول الله إني وردت هذا الملح في الجاهلية ، وهو بأرض ليس فيها غيره ، من ورده أخذه ، وهو مثل الماء العدّ بالأرض . فاستقال الأبيض في قطيعة الملح . فقد أقلتك على ان تجعله مني صدقة . فقال النبي عليه الصلاة والسلام : هو منك صدقة ، وهو مثل الماء العدّ من ورده أخذه »[4] . و (الأبيض بن حمال) ، سبأي من أهل مأرب ، وكان من سادة قومه . وفد على أبي بكر ، لما انتقض عليه عُمال اليمن ، فأقره أبو بكر على ما صالح عليه النبي ، من الصدقة ، ثم انتقض ذلك بعد أبي بكر وصار الى الصدقة . وكان مصاباً بـ (حزازة) في وجهه ، وهي القوباء ، فالتقمت أنفه[5] .

وأقطع الرسول « بلالَ بن الحارثَ ، المعادن القبلية جلسيّها وغوريها . وحيث

---

١ الاحكام السلطانية ، للماوردي (١٩٧) .

٢ الاحكام السلطانية (١٩٠) ، (في أحكام الاقطاع) .

٣ ارشاد الساري (٤/٢١٠) ، البلاذري ، فتوح (٢٤ ، ٤٢) ، (موات البقيع) ، صبح الاعشى (١٣/١٠٥) .

٤ الاحكام السلطانية (١٩٧) ، (في أحكام الاقطاع) ، صبح الاعشى (١٣/١٠٥) .

٥ الاصابة (١/٢٩) ، (رقم ١٩) .

يصلح الزرع من قدّس ، ولم يقطعه حق مسلم »[1] . وذكر ان المراد من الجلسي والغوري : أعلاها وأسفلها ، وذكر ان الجلسي بلاد نجد والغوري بلاد تهامة[2] . وذكر ان (القبلية) ، ناحية من ساحل البحر ، بينها وبين المدينة خمسة ايام ، وقيل : ناحية من نواحي الفرع بين نخلة والمدينة ، وهي التي أقطعها الرسول ، بلال بن الحارث . وورد أيضاً : (معادن القلية)[3] . ولم يذكر العلماء أسماء المعادن التي كانت في هذه الأرض . وقد باع بنو (بلال) (عمر بن عبد العزيز) أرضاً منها ، فظهر فيها معدن أو معدنان ، فجاءوا اليه ، وقالوا : انما بعناك أرض حرث ولم نبعك المعادن . فقال (عمر) لقيمه : أنظر ما خرج منها وما أنفقت وقاصهم بالنفقة وردّ عليهم الفضل[4] .

وأقطع الرسول (وائل بن حجر) ارضاً بحضرموت[5] . وكان أبوه من أقيال اليمن ، وفد على النبي واستقطعه أرضاً فأقطعه إياها وكتب له عهداً[6] . وأقطع (زيد الخيل) الشاعر الفارس لما وفد عليه في سنة تسع من الهجرة أرضين . هي (فيد) وكتب له بذلك[7] ، فلما وصل موضع (قردة) ، توفي بها فدفن هناك ، وأقام عليه (قبيصة بن الأسود بن عامر) المناحة سنة[8] .

واقطع الرسول (حمزة بن النعمان بن هوذة) (جمرة) العذري ، أرضاً من وادي القرى ، وكان سيد (بني عذرة)[9] . وكان (جمرة) أول من قدم بصدقة (بني عذرة) الى النبي ، وقدم في وفد قومه . وقد نزل أرضه التي اقطعها الرسول له الى أن مات[10] . واقطع الرسول (ساعدة التميمي العنبري)

---

١ الاحكام السلطانية (١٩٨) ، (في أحكام الاقطاع) ، تاج العروس (٩/٢٧٥) ، (عدن) .
٢ الاحكام السلطانية (١٩٨) .
٣ تاج العروس (٨/٧٣) ، (قبل) .
٤ البلاذري ، فتوح (٢٧) .
٥ ارشاد الساري (٤/٢١٠) .
٦ الاصابة (٣/٥٩٢) ، (رقم ٩١٠٢) .
٧ تاج العروس (٧/٣١٥) ، (خيل) .
٨ الاصابة (١/٥٥٥) ، (رقم ٢٩٤١) .
٩ البلاذري ، فتوح (٤٨) ، (حمزة) . وضبطه الاخرون « جمرة » ، الاصابة (١/٢٤٤) ، (رقم ١١٨٤) ، (١/٣٩٦) ، (رقم ٢١١٠) .
١٠ الاصابة (١/٢٤٤) ، (رقم ١١٨٤) .

بئراً في الملاة [1] . وأقطع (مجاعة بن مرارة) الحنفي اليمامي ، وكان من رؤساء (بني حنيفة) أرضاً باليمامة يقال لها (العورة) ، وكتب له بـذلك كتاباً [2] . وكانت خصبة منتجة ذات ماء .

واقطع الخلفاء القطائع كذلك ، فأقطع (أبو بكر) (الزبير) ما بين (الجرف) الى (قناة) . واقطع (عمر) (الزبير) (العقيق) ، واقطع (خوات بن جبير) الأنصاري أرضاً تتصل بالعقيق ، فعرفت بقطيعة خوات ، فباعها، واقطع (عليا) (ينبع) [3] .

الحمى :

وتفرد العزيز من أهل الجاهلية بالحمى لنفسه ، كالذي كان يفعله (كليب بن وائل) ، فإنه كان يوافى بكلب على نشاز من الأرض ، ثم يستعديه ويحمي ما انتهى اليه عواؤه من كل الجهات ، وتشارك الناس فيما عداه حتى كان ذلك سبب قتله [4] . والحمى ، موضع فيه كلأ يحمى من الناس ان يرعى . وذكر ان الشريف من العرب في الجاهلية اذا نزل بلداً في عشيرته استعوى كلباً فحمى لخاصته مدى عواء الكلب ، لا يشركه فيه غيره ، فلم يرعه معه أحد ، وكان شريك القوم في سائر المراتع حوله [5] .

وقد نهى النبي ان يحمى على الناس حمى كما كانوا في الجاهلية يفعلون إلا ما يحمى لخيل المسلمين وركابهم التي ترصد للجهاد ويحمل عليها في سبيل الله ، وابل الزكاة كما حمى عمر (النقيع) لنعم الصدقة والخيل المعدة في سبيل الله [6] . وكان الرسول قد حماه ، وهو موضع على عشرين فرسخاً من المدينة ، وقدره

---

١ الاصابة (٢/٤) ، (رقم ٣٠٢٧) .
٢ الاصابة (٣/٣٤٢) ، (٧٧٢٤) .
٣ البلاذري ، فتوح (٢٦) .
٤ قال العباس بن مرداس :

كما كان يبغيها كليب بظلمه ... من العز حتى طاح وهو قتيلها
على وائل اذ يترك الكلب نابحا ... واذ يمنع الاقناء منها حلولها

الاحكام السلطانية (١٨٦) .
٥ تاج العروس (١٠/٩٩) ، (حمى) ، ارشاد الساري (٤/٢٠٦) .
٦ تاج العروس (١٠/٩٩) ، (حمى) .

ميل في ثمانية أميال[1] . وقد جعل بعض العلماء هذا النقيع : نقيع الخضمات ، وجعله بعضهم غرز النقيع . وذهب بعضهم مذهباً آخر في تعيين موضع المكان[2] .

وقد حمى عمر (السرف) (الشرف) أيضاً[3] . وفي الشرف حمى (ضرية) ، وضرية بئر وفي الشرف الربذة ، وهي الحمى الأيمن . وفي الحديث ان عمر حمى الشرف والربذة[4] . ويقال لحمى الربـــذة (حمى الحناكية) في الوقت الحاضر . وهناك حمى آخر ، يسمى (حمى النير)[5] . وذكر ان بالنير قبر (كليب وائل) ، الذي تنسب اليه بدعة الاحماء ، وهو قريب من (ضرية)[6] .

ومن أشهر الأحماء وأكبرها في جزيرة العرب ، حمى (ضرية) . يذكر أهل الأخبار أنه سمي بـ (ضرية بنت ربيعة بن نزار) . وقد حماه (عمر) لإبـــل الصدقة وظهر الغزاة ، وكان ستة أميال من كل ناحية من نواحي ضرية، وضرية في وسطها[7] . وحمى (فيد) ، ذكر أنه فلاة في الأرض بين (أسد) ، و(طيء) ، في الجاهلية . فلما قدم (زيد الخيل) على رسول الله أقطعه (فيد)[8] . وقـــد أشير الى هذا الحمى في الشعر[9] . و (فيد) قلعة وبليدة بطريق مكة ، في نصفها من الكوفة في وسطها حصن عليـــه باب حديد وعليها سور دائر ، كان الناس يودعون فيها فواضل أزوادهم الى حين رجوعهم ، وما ثقل من أمتعتهم ، وهي قر أجأ وسلمى جبلي طيء . وقد ذكرت في شعر ازهير[10] ، وفي شعر للبيـد بن

---

١ ارشاد الساري (٤/٢٠٦) .

٢ تاج العروس (٥/٥٣٠) ، (نقع) ، (٨/٢٨٠) ، (خضم) .

٣ بين العلماء اختلاف في ضبط الاسم ، فمنهم من ضبطه « السرف » ، ومنهم من ضبطه بحرف الشـــين ، أي « الشرف » ، والصحيـــح أنـــه « الشرف » ارشاد الساري (٤/٢٠٦) .

٤ تاج العروس (٦/١٥٢) ، ارشاد الساري (٤/٢٠٦) .

٥ الصفة (٤٠٨) .

٦ تاج العروس (٣/٥٩٣) ، (نـير) .

٧ تاج العروس (١٠/٢١٩) ، (ضرى) .

٨ تاج العروس (٢/٤٥٧) ، (فاد) .

٩ سقى الله حيا بين صارة والحمى حمى الفيد صوب المدجنات المواطر
تاج العروس (٢/٤٥٧) ، (فاد) .

١٠ ثم استمروا وقالوا ان مشربكم ماء بشرقي سلمى فيد أو ركك
تاج العروس (٢/٤٥٧) ، (فاد) ، و « رك ماء شرقي سلمى ، أحد جبلي طيء . له ذكر في سرية علي ، رضي الله عنه ، الى الفلس » تاج العروس (٧/١٣٦) ، (رك) .

ربيعة[1] ، وفي شعر لآخرين[2] . وقد زعم بعض أهل الأخبار أنها سميت بـ (فيد ابن حام) أول من نزلها[3] . وقد يشير هذا الزعم الى وجود جالية من العبيد في هذا المكان ، عهد اليها زراعة الأرض . وذكر أنها عرفت بكعكها حتى ضرب به المثل :

وتلك فيد قريـة والمثـل في كعك فيد سائر لا يجهل[4]

وقد أعطى الرسول (بني قرة بن عبدالله بن أبسي نجيح) النبهانيين المظلة كلها أرضها وماءها وسهلها وجبلها حمى يرعون فيه مواشيهم[5] .

ولا تزال عادة الاحماء متبعة حتى الآن . فـ (سجا) مثلاً وهو ماء يعد في حمى الأمير (فيصل آل سعود) خص به إبله وخيله[6] .

وقد عرف الاحماء عند العرب الجنوبيين ، وقد ذكر (الحمى) بلفظة (محمت) و (محميم) في نصوص المسند . أي (المحماة) و (المحمى) ، ومعناها الأرض المحماة ، أي (الحمى)[7] .

وذكر علماء اللغة ان (الحمى) (المحجر) . والمحجر : (الحديقة) ، والمرعى المنخفض والموضع فيه رعي كثير وماء ، وما حول القرية ، ومنه محاجر أقيال اليمن ، أي ملوكها ، وهي الاحماء . كان لكل واحد منهم حمى لا يرعاه غيره . وذكر ان محجر القيل من أقيال اليمن حوزته وناحيته التي لا يدخل عليه فيها غيره[8] . وورد ان (بني عمرو بن معاوية) لما امتنعوا عن دفع الصدقات خرجوا الى (المحاجر) ، وهي أحماء حموها ، فنزلوا بها وتحصنوا ، وقاوموا منها

---

١ مريـة حلت بفيـد وجاورت أرض الحجـاز فأين منك مرامهـا
تاج العروس (٢/٤٥٧) ، (فاد) .

٢ لقد أشمتت بي أهل فيد وغادرت بجسمي صبرا بنت مصان باديا
تاج العروس (٢/٤٥٧) ، (فاد) .

٣ تاج العروس (٢/٤٥٧) ، (فاد) .

٤ تاج العروس (٢/٤٥٧) ، (فاد) .

٥ ابن سعد ، الطبقات (١/٢٦٧) .

٦ محمد بن عبدالله بن بليهد النجدي ، صحيح الاخبار عما في بلاد العرب من الآثار (١/١٨) .

٧ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 120, Mordtmann, Himj. Inschri., S. 42.

٨ تاج العروس (٣/١٢٦) ، (حجر) .

جيش المسلمين[1] . ويظهر ان المحاجر ، هي أبنية حصينة من حجارة ، اتخذت في أملاك أهل المحاجر ، للدفاع عنها ايام الخطر .

ولم يستعمل الحمى كما يظهر من كتب الحديث والفقه في غير الرعي ، رعي الكلأ الذي ينبت فيه . ولم أعثر حتى الآن على نص يفيد انهم استعملوه لأغراض زراعية . ويظهر ان لفظة (الحمى) قد خصصت بهذا النوع من المراعي ، لتمييزها عن المراعي العامة التي يتساوى فيها الجميع في حقوق الرعي ، فهي مراعي مشاعة لا يجوز منع إبل أحد من الرعي فيها ، وتساهم في الرعي فيها إبل السادة أصحاب الاحماء .

الموات :

والأرض الموات التي لا مالك لهـا ولا ينتفع بها ولا ماء بها ، والموتان من الأرض ما لم يستخرج ولا اعتمر ، وأرض ميتة وموات من ذلك[2] . وقد يستصلح الموات ويعمر ، ويكون من خيرة الأرضين المثمرة ، فتكون رقبته بيد مصلحه ، لأنه أحياه بعد أن كان مواتاً ، وصرف عليه مالاً وجهداً ، فيكون له .

ويكون إحياء الموات ، بجمع التراب المحيط به حتى يصير حاجزاً بينـه وبين غيره ، أو سوق الماء اليه إن كان يبساً وحبسه عنه إن كان بطـائح أو مغموراً بماء ، أو بحرثه لزرعـه أو لتعديله وتسويته لاعداده للزراعة أو للسكن أو لأي انتفاع آخر ، أو بحفر آبار فيه لاسقائه أو لزرعه،أو للاستفادة مـن البئر ، ببيع مائها ، فتكون البئر ملكاً لصاحبها ، ليس لأحد محاجته فيها ، فقـد صرف عليها وانفق جهداً في استنباط الماء منها . وفي التأريخ الجاهلي أمثلـة عديدة لآبار حفرها أصحابها في أرض موات ، فصارت ملكاً لهم ، وصارت الأرض المحيطة بها ملكاً له قدر وصول الماء اليها .

احياء الموات :

وقد أثبت اقدام سادات القبائل وأعزة أهل القرى على إحياء الموات، باستنباط

---

١ الطبري (٣/٣٣٤) ، « ذكر خبر حضرموت في ردتهم » .
٢ تاج العروس (١/٥٨٧) ، (موت) ، اللسان (٢/٩٣) .

الماء من جوف التربة وبالاستفادة من ماء السماء المنهمر قِرَباً ، على ان من السهل تحويل الغامر من الأرض الى أرض عامرة حية منتجة ،والى تكوين قرى ومستوطنات في المفاوز والبوادي ، كما وقع ذلك في اليمامة وفي الحجاز وفي مواضع أخرى ، حيث حفر رجال آباراً واستنبطوا عيوناً ، أحيت الأرض بعد موت ، وأولدت قرى عليها . غير ان عقلية البداوة ، وأعني بها الروح الفردية ونزعة الغزو بسبب الجهل والفقر ، وعدم وجود حكومة تحمي الأمن وتدافع عن هذه المستوطنات وعن مشاريع الأفراد ، تشعر ان من واجبها البحث عن الماء في كل مكان ، قد كانت من أهم العوائق في عدم إحياء الأرض وإنباتها ، وفي تأخر سكان جزيرة العرب وفي تفقيرهم . فكان على من يحيي أرضاً حماية ما أحياه بنفسه والدفاع عنه بأهله وبماله وبنفوذه وقوته ، وإلا عرّض نفسه وما أحياه للخطر ، وهذا عمل مجهد شاق ، جعل أكثر المتمكنين يحجمون عنه ، ولا يقبلون عليه ، ولم يقبل عليه إلا المجازف القوي المتمكن من القيام به بما له من جاه ونفوذ .

وأهم ما تعرض له إحياء الموات من خطر ،هو خطر الغزو ومحاولات الاستيلاء عليه . وحماقة البحث عن العامر لأخذه أو لأخذ ما يوجد فيه بدلاً من إحياء موات وتعميره . وذلك لما قلته من وجود الفقر وفقدان الأمن والحماية ، فتحول قسم كبير من العامر بسبب هذا المرض الى غامر ، إذ خربت مصادر الحياة فيه وهو المياه وطمرت ، فماتت ، وماتت المستوطنات التي كانت عليها بسبب ذلك .

الماء والكلأ والنار :

الماء إذا كان عاماً ، فإنه لا يمتلك . والماء العام مثل عيون الماء التي لا تكون في حيازة مالك ، بل تكون مشاعة بين الجميع ، لا يملكها أحد من أهل الحي ، وليس لرقبتها مالك ، فماؤها للجميع . مثل أن تكون العين في قرية أو في مدينة أو في أرض قبيلة ، فلكل إنسان حق الانتفاع منها ، لا يمنعه أحد منها ، ولا يستوفى بدل عن ذلك الماء . وقد ورد أن الناس شركاء في الماء ، ماء الأرض وماء السماء ، إذا كانا في أرض عامة ، أي مشاعة ،ينتفع منها كل إنسان[1] .

---

١ تاج العروس (١٠/٩٩) ، (حمى) .

واذا كان الكلأ في أرض عامة ، فإنه يكون أيضاً ملكاً للجميع ، أي مشاعاً بينهم . فلا يجوز لأي أحد منع آخر من الاستفادة منه ، لأنه مشترك بين الجميع ، فلا يكون أحد أخص به من أحد ، ولو أقام عليه وبنى عليه . وباستثناء الأحماء فإن الكلأ النابت في موطن قبيلة هو لكل أبناء القبيلة ، ليس لأحد صد أحد عنه إلا اذا كان غريباً عن القبيلة دخل أرضها بغير اذن من أبنائها وهو ليس في حماية أحد منها . فالكلأ في البادية لا يعود لمالك فرد ، وانما هو ملك القبيلة ، أبناء القبيلة فيه شركاء ، يرعون فيه سواء[1] .

وقد ورد في الحديث ، انه قال : الناس شركاء في ثلاث : الكلأ والماء والنار . ومعنى النار الحطب الذي يستوقد به ، فيقلع من عفو البلاد . وكذلك الماء الذي ينبع ، والكلأ الذي منبته غير مملوك والناس فيه مستوون . وذهب بعضهم الى ان الماء ماء السماء والعيون والأنهار التي لا مالك لها . وأراد بالكلأ المباح الذي لا يخص به أحد ، وأراد بالنار الشجر الذي يحتطبه الناس من المباح فيوقدونه[2] . فكل هذه الموارد الثلاثة ، موارد مشاعة للجميع ، يشترك في الانتفاع بها كل الناس . وهو مذهب أهل الجاهلية أيضاً ، ما لم يبسط أحد من الملوك أو سادة القبائل سلطانه عليها ، ويعلن انها في حمايته ، إذ تكون حينئذ ملكاً له .

الأرض ملك الآلهة :

الأرض كما سبق ان بينت ملك للآلهة . وكل شيء على هذه الأرض هو ملك لها كذلك . والناس أنفسهم عبيد لها (ادم)[3] . ورأيهم هذا يطابق رأي الإسلام بالنسبة الى الملك . فالله في الإسلام مالك الملك ، وهو مالك كل شيء . والمال مال الله والناس عبيد له . وعندهم أن ممثلي السلطة الإلهية على هذه الأرض هم الذين ينظمون الملك ويقيمون العدل بين الناس ويحققون الحق كما تأمرهم الآلهة به . وكما شرعته لهم وأوصت به . فهم في ذلك مثل الإسلام أيضاً في أن أولي الأمر

---

١ تاج العروس (٩٩/١٠) ، (حمى) .
٢ اللسان (٤٤٩/١٠) ، (شرك) .
٣ (ادم) ، (ادوم) (ادومت) ، (آوادم) ، (عبيد) ، (عبدات) ، Grohmann, S. 126.

أي (السلطان) يحكمون بين الناس بالقسط والعدل وبما أنزله الله على رسوله من أحكام وأوامر ونواهٍ . فهم ظل الله وخلفاء رسول الله على العباد .

هذا هو المبدأ العام بالنسبة الى الملكية والتملك عند العرب الجنوبيين . ويتمثل هذا الرأي في عقود التملك (شامت) (شمت) بالشراء المدوّنة باللهجات العربية الجنوبية ، حيث يذكر المتعاقدون أنهم باعوا أو تملكوا ملكاً مثل أرض أو دار أو بستان أو غير ذلك ، بموافقة (الإلـه الفلاني) ، وبرضاه . وانهم أجروا ذلك وفقاً لأوامره ونواهيه يكتبون ذلك على حجر يضعونه على حدّ الملك أو باب الدار ، ليكون بمثابة شهادة تمليك . أو صك بيع أو شراء وسند (طابو) ، أي سند تملك كما يعبر عن ذلك في لغة أهل العراق في الوقت الحاضر .

وحكم ان الملك ملك الآلهة ، لا يعني ان الملكية هي مجرد انتفاع الى أجل يحدد أو لا يحدد . أو ان من حق السلطان انتزاع الملك من صاحبه والاستيلاء عليه أو اعطائه لآخر باعتباره ممثل سلطة الآلهة على الأرض . بل الملكية تملك دائم ، لا يجوز لأحد منازعة صاحب الملك على ملكه ، لأن انتزاع الملك من صاحبه ومن دون رضاه تعسف وظلم . ولا ترضى الآلهة بظلم أحد ، حتى وإن صدر ذلك الظلم من (السلطان) أي الملك أو من خوّله الملك الحكم نيابة عنه . وقد خولت القوانين المالك الذي يغتصب ملكه حق مقاضاة المغتصب عند ذوي الرأي و (أولي الأمر) وعند المعابد وإن كان ذلك المغتصب ملكاً . صحيح ان بعض الملوك ظلموا الناس ، بمصادرة أملاكهم وأموالهم ، وبالاستيلاء على كل ما مَلَكه أفراد رعيتهم من دون دفع تعويض عنه . غير ان هذا عمل شاذ ، وقد وقع لظروف شاذة . كأن يكون الشخص الذي صودر ملكه من أعداء الملك أو قد قام بعمل معادٍ للحكومة ، أو قاوم (أولي الأمر) بطريقة من الطرق ، أو خالف أوامر المعبدّ وأحكام دينه إلى غير ذلك من أمور . فهذه أمور شاذة لا تكون قاعدة حكمية عامة ، لأن الأصل القانوني هو : ان الملكية حق مقدس لا يجوز مسه ولا الاعتداء عليه ، لأن الآلهة لا ترضى بذلك ، وهي تنتقم من المعتدين مهما كانوا .

والملك هو كل ما تملكه يمينك ويكون في حوزتك احتواءً قادراً على الاستبداد به . وكل ما صار في ملكك إما شراءً واما إرثاً أو لقطة لم يظهر مالكها ولم ينازعه عليها منازع ولم يعارض في تملكه لها قانون ، واما هبة أو ما شاكل ذلك.

وذلك بالنسبة الى الملك الدائم الـذي لا يمكن انتزاعه من صاحبه ، لأن الآلهـة أمرت به وأقرته . خلاف الملكية المؤقتة ، التي تمنح الإنسان حق التصرف بالملك ولكن لأجل وبشروط تعين وتثبّت لا يجوز تخطيها والعمل بخلافها . مثل التملك بعقد ، أي بشروط ويعـبر عن ذلك بـ (شامت) (شمت) . ويكون ذلك شراءً ، أو بعقد خاص أو بإيجار[1] .

ولا نجد في الحجاز أو نجد أو العربية الشرقية ملاكاً مزارعين كباراً على نحو ما نجده في اليمن أو في بقية العربية الجنوبيـة ، وذلك لصغر مساحة الأرضين المسقـاة بالمطر أو بالميـاه الأرضية في هذه البلاد . نتيجة شح الأرض وبخلها على الناس بالماء . ولهذا لم يظهر في الحجان أو في نجد أو أرض العروض مزارعون كبار ، لهم عدد كبير من الفلاحين والرقيق يستغلونهم في استغلال الأرض . ومع ذلك فاننا لا نجد حتى في اليمن أو في العربية الجنوبية أناساً أصحاب أرضين واسعة أي من نسميهم اليوم بـ (اقطاعيين) على نحو ما نجده في أرض السواد ، أي العراق ، حيث كان الإقطاعيون يملكون مساحات واسعة من الارض ، تسقيهـا الانهار دون كبير عناء ، ويعمل فيها الفلاحون بأجور بخسة ورقيق الارض والخول فتأتي لاصحابها بالمال والثراء .

الخليط :

ويعرف المشارك في حقوق الملك كالشرب والطريق ونحو ذلك بـ (الخليط) . والخليط الشريك المشارك في الشيوع . وقد حدثت خصومات في موضوع هـذه الشركة . وقد بحث فيهـا الاسلام . جاء في الحديث : « ما كان من خليطين فانهما يتراجعان بينهما بالسويـة » . وورد أيضاً : « الشريك أولى من الخليط . والخليط أولى من الجار » . وأراد بالشريك المشارك في الشيوع[2] .

---

١ Grohmann, Arabien, S. 126.

٢ تاج العروس (١٣٢/٥) ، (خلط) .